القلزم للدراسات التاريخية والحضارية
مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان
بالشراكة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين - الدنمارك
ISSN:1858-9952

في هذا العدد :

- أسماء بعض السكان في المصادر المصرية والكوشية
  د. أحمد الياس الحسين
- الجعل والجعليون في السودان(قراءة مغايرة للدلالات التاريخية لمصطلح أصول الهوية العربية)
  د. عوض شبا
- الزعيم كوامي نكروما(من رموز النضال في إفريقيا)
  د. عبد الله الزبير يوسف الزبير - د. نهلة أحمد عبد الباقي أحمد
- الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء (ملامح عن مملكة وداي الاسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي)
  د .حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني
- الظواهر السالبة الجديدة في المجتمع وأثرها في تهديد السلم الاجتماعي(دراسة ظاهرة المتفلتين في ولاية غرب كردفان) (2015 – 2022م)
  د. حامد إبراهيم الإحيدب قادم
- النشاط البحري لليونانيين والرومان في البحر الأحمر (دراسة تحليلية لمقومات الاقتصاد الأزرق في ضوء الكتابات القديمة)
  أ.عائشة عالم
- النشاط التجّاري في موانئ الحجاز (1256 – 1337هـ/1840–1918م)
  أ.سهى سعود محمد شعبان
- أثر طريق البخور الشرقي على السمات الفنية في مدينتي نجران والفاو
  أ.نوره سعيد سعد الدوسري

العـدد الواحد والأربعـون - ذي الحجة 1447هـ - يونيو 2026م

مجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية علمية دولية ربع سنوية محكمة - العدد الواحد والأربعون-ذي الحجة 1447هـ - يونيو 2026م

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution
ISSN: 1858 - 9952 ردمك

فهرسة المكتبة الوطنية السودانية-السودان
مجلة القلزم:Alqulzum Journal for
Historical and cultural Studies
الخرطوم : مركز دول حوض البحر الأحمر 2026
تصدر عن دار آريثيريا للنشر والتوزيع -السوق العربي
السودان - الخرطوم
ردمك: 1858-9952

مجلة القلزم للدراسات التاريخية و الحضارية

هيئة التحرير

المشرف العام

أ.د.إبراهيم البيضاني

رئيس هيئة التحرير

أ.د.حاتم الصديق محمد احمد

رئيس التحرير

د. عوض أحمد حسني شبا

سكرتير التحرير

د.سلوى التجاني فضل جبر الله

التدقيق اللغوي

أ.الفاتح يحيى محمد عبد القادر

الإشراف الإلكتروني

د. محمد المأمون

التصميم الداخلي

أ. عادل محمد عبد القادر

تصميم الغلاف

ايلين عبد الرحيم ابنعوف

الهيئة العلمية و الإستشارية

أ.د. متعب بن حسين بن وصيوص القثامي- المملكة العربية السعودية

أ.د. حسن أحمد إبراهيم-السودان

أ.د. سارة بنت عبد الله العتيبي- المملكة العربية السعودية

أ.د. أسامة عبد الرحمن الأمين- السودان

أ.د. أبو هريرة عبد الله محمود يعقوب- السودان

أ.د. أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس - جمهورية مصر العربية

أ.د. السماني النصري محمد أحمد - السودان

د. أحمد الياس الحسين - السودان

د. داود ساغه محمد عبد الله- السودان

د. سلطان أحمد الغامدي- المملكة العربية السعودية

د. سامي صالح عبد المالك البياضي- مصر

د. محمد أحمد زروق- المغرب

د. سعاد عبد العزيز أحمد السودان

د . أحمد محمد مركز- السودان

د. باب ولد أحمد ولد الشيخ سيديا- موريتانيا

د. عزة محمد موسى - السودان

د. حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني- السودان

د. ربيعة أحمد عمران المداح- ليبيا

الآراء والأفكار التي تنشر في المجلة

تحمل وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن آراء المركز

موجهات النشر

تعريف المجلة:

مجلة (القُلزم) للدراسات التاريخية و الحضارية مجلة علمية محُكمة تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان . بالشراكة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين - الدنمارك تهتم المجلة بالبحوث والدراسات التاريخية والحضارية والمواضيع ذات الصلة لدول حوض البحر الأحمر من الناحية التاريخية والحضارية.

موجهات المجلة:

1. يجب أن يتسم البحث بالجودة والأصالة وألا يكون قد سبق نشره قبل ذلك.
2. على الباحث أن يقدم بحثه من نسختين. وأن يكون بخط (Traditional Arabic) بحجم 14 على أن تكون الجداول مرقمة وفي نهاية البحث وقبل المراجع على أن يشارك إلى رقم الجدول بين قوسين دائريين ().
3. يجب ترقيم جميع الصفحات تسلسلياً وبالأرقام العربية بما في ذلك الجداول والأشكال التي تلحق بالبحث.
4. المصادر والمراجع الحديثة يستخدم أسم المؤلف، اسم الكتاب، رقم الطبعة، مكان الطبع، تاريخ الطبع، رقم الصفحة.
5. المصادر الأجنبية يستخدم اسم العائلة (Hill, R,).
6. يجب ألا يزيد البحث عن 30 صفحة وبالإمكان كتابته باللغة العربية أو الإنجليزية.
7. يجب أن يكون هناك مستخلص لكل بحث باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد على 200 كلمة بالنسبة للغة الإنجليزية. أما بالنسبة للغة العربية فيجب أن يكون المستخلص وافياً للبحث بما في ذلك طريقة البحث والنتائج والاستنتاجات مما يساعد القارئ العربي على استيعاب موضوع البحث وبما لا يزيد عن 300 كلمة.
8. لا تلزم هيئة تحرير المجلة بإعادة الأوراق التي لم يتم قبولها للنشر.
9. على الباحث إرفاق عنوانه كاملاً مع الورقة المقدمة (الاسم رباعي، مكان العمل، الهاتف البريد الإلكتروني).

نأمل قراءة شروط النشر قبل الشروع في إعداد الورقة العلمية.

المحتويات

أسماء بعض السكان في المصادر المصرية والكوشية.....(7-14)

د. أحمد الياس الحسين

الجعل والجعليون في السودان(قراءة مغايرة للدلالات التاريخية لمصطلح أصول الهوية العربية).....(15-26)

د. عوض شبا

الزعيم كوامي نكروما(من رموز النضال في إفريقيا).....(27-34)

د. عبد الله الزبير يوسف الزبير - د. نهلة أحمد عبد الباقي أحمد

الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء (ملامح عن مملكة وداي الاسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي).....(35-54)

د .حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني

الظواهر السالبة الجديدة في المجتمع وأثرها في تهديد السلم الاجتماعي(دراسة ظاهرة المتفلتين في ولاية غرب كردفان) (2015 - 2022م).....(55-64)

د. حامد إبراهيم الإحيدب قادم

النشاط البحري لليونانيين والرومان في البحر الأحمر (دراسة تحليلية لمقومات الاقتصاد الأزرق في ضوء الكتابات القديمة).....(65-86)

أ.عائشة عالِم

النشاط التجاري في موانئ الحجاز (1256 - 1337هـ/1840-1918م).....(87-106)

أ.سهى سعود محمد شعبان

أثر طريق البخور الشرقي على السمات الفنية في مدينتي نجران والفاو.....(107-134)

أ.نوره سعيد سعد الدوسري

كلمة التحرير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين.

القارئ الكريم:

بعد السلام وكامل التقدير والاحترام يسعدنا أن نضع بين يديك هذا العدد من مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية الذي يأتي في إطار الشراكة العلمية المثمرة والجادة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين (الدنمارك).

القارئ الكريم:

هذا هو العدد الواحد والأربعون من المجلة بفضل الله وتوفيقه بعد أن نجحت المجلة بواسطة هيئتيها العلمية والاستشارية وهيئة تحريرها في إصدار أربعون عداداً من المجلة، الأمر الذي يضع الجميع أمام تحدٍ كبير يتمثل في بذل المزيد من الجهد بغرض التطوير والتحديث والمواكبة لتصبح هذه المجلة في مصاف المجلات العالمية الرائدة بإذن الله تعالى.

القارئ الكريم:

نأمل أن يكون هذا العدد أكثر شمولاً وتنوعاً من حيث المواضيع وطريقة طرحها وتحليلها ومعالجتها. ونسأل الله تعالى أن يجد المهتمين والمختصين والباحثين في هذا العدد ما يفيدهم ويضيف للبحث العلمي.

وأخيراً نجدد شكرنا وامتنانا لكل الذين أسهموا في إنجاح هذا العدد من باحثين، ومحكمين ونجدد دعوتنا للجميع بأن أبواب النشر مشرعة في جميع مجلات القلزم العلمية المتخصصة.

أسرة التحرير

أسماء بعض السكان في المصادر المصرية والكوشية

د. أحمد الياس الحسين

جامعة الخرطوم

المستخلص:

أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن المتداولة حاليّاً تعود إلى قرون قليلة مضت باستثناء القليل منها مثل اسمي البجة والنوبة وبعض أسماء الأماكن على الشريط النيلي. ويهدف لإحياء تلك الأسماء وربطها بوعينا الجمعي المعصر لما لها من أثر كبير على تعزيز الحس القومي. ويتناول هذا الموضوع بعض أسماء السكان التي وردت في المصادر المصرية القديمة والمصادر الكوشية. ويلاحظ أغلب الأسماء التي وردت في تلك المصادر ارتبطت بالصحراء الشرقية والنيل.

الكلمات المفتاحية: الناس،المكان، الوعي،الهوية،الصحراء الشرقية

Names of some inhabitants in ancient Egyptian and Kushite sources

Abstract:

Dr. Elias Al-Hussein

The names of people, tribes, and places currently in use date back only a few centuries, with the exception of a few such names as Beja and Nubia, and some place names along the Nile. This study aims to revive these names and connect them to our contemporary collective consciousness, given their significant impact on strengthening national identity. This topic examines some of the inhabitant names found in ancient Egyptian and Kushite sources. It is noteworthy that most of the names mentioned in these sources are associated with the Eastern Desert and the Nile.

Key words: people, places, consciousness, identity, Eastern Desert

مقدمة :

هذا الموضوع جزء من سلسلة مواضيع عن أسماء السكان والمناطق في المصادر المصرية القديمة والكوشية والأكسومية والعربية المبكرة للتعرف عليها وإحيائها في وعينا وثقافتنا المعاصرة كجزء مهم من تراثنا القديم. وسأبدأ بنبذة مختصرة عن الصحراء الشرقية وعلاقة مصر الفرعونية بالبحر الأحمر لارتباط ذلك بالسكان في تلك المناطق.

الصحراء الشرقية:

تمتد الصحراء الشرقية على مساحات واسعة بين النيل والبحر الأحمر في السودان ومصر. ولم تكن هذه المناطق جافة وجرداء مثل حالتها الراهنة، بل كانت تتوفر فيها كميات وافرة من المياه وغطاء نباتي غزير بما في ذلك الغابات، وثروة حيوانية غنية على رأسها الأبقار والأفيال. فقد تم العثور على آثار التجمعات السكانية منذ الألف السابع قبل الميلاد في كل المناطق الصحراوية الحالية من الشمال وحتى نهر عطبرة في الجنوب.

لم تكن هنالك علاقات ثابتة ومتصلة بين سكان الصحراء الشرقية والمصرين في بداية العصر الفرعوني بعكس ما كان عليه الحال في صحراء مصر الغربية. فوجود عدد من الواحات في الصحراء الغربية مثل واحات الخارجة والداخلة وسيوة أدى إلى قيام مجتمعات مستقرة في تلك المناطق إلى جانب الجماعات البدوية. وقد تعاملت تلك المجتمعات المستقرة في الواحات مع السكان والسلطات الحاكمة على النيل بصورة دائمة ومنتظمة حتى أصبحت الواحات جزءاً من الدولة المصرية.

أما الصحراء الشرقية فلا توجد فيها واحات تساعد على استقرار السكان، ولذلك ساد على سكانها طابع البداوة. ولم يساعد الطابع البدوي والترحال الدائم للسكان السلطات المصرية على خلق صلات دائمة مع تلك المجتمعات البدوية. فأصبح أولئك البدو خارج سلطة الدولة وفصلوها عن سواحل البحر الأحمر.

علاقة مصر القديمة بساحل البحر الأحمر :

اهتم المصريون منذ بدية تاريخهم القديم بالملاحة في نهر النيل الذي يصب في البحر المتوسط مما أدى إلى ارتباطهم المبكر بحوض البحر المتوسط. وقد أدى وجود المرافئ الطبيعية وتوفر وسائل الحياة على ساحل البحر المتوسط وظهيره إلى استقرار السكان وقيام المرافئ والمدن الساحلية. وتوضح المصادر المصرية علاقة مصر بجزر البحر المتوسط وسواحل الشام منذ بداية العصر الفرعوني حتى إنهم كانوا يعتمدون اعتماداً أساسيّاً منذ بداية تاريخهم على خشب لبنان لبناء السفن والقصور الملكية. (سليم حسن، ج 2 ص 247 و258 - 266) وقد اختلفت علاقة مصر بالبحر المتوسط اختلافاً كبيراً عن علاقتهم بالبحر الأحمر الذي تفصله عن مجال مصر الحيوي على النيل مناطق صحراوية ذات طبيعة قاسية تنعدم فيها وسائل الحياة. هذا بالإضافة إلى أن

طبيعة سواحل البحر الأحمر والمناطق الداخلية المجاورة لها مناطق قاحلة تفصل البحر عن النيل. ولذلك لم تكن هنالك حاجة ملحة تؤدي إلى اهتمام المصريين بالبحر الأحمر في بداية تاريخهم القديم تؤدي بهم إلى تكبد مشاق الذهاب إليه. وعن بداية العلاقات بين المصريين والبحر الأحمر يقول سليم حسن، (ج 2 ص 259) "لم يركب المصريون متنه في سياحتهم إلا نادراً، إذ كان معظم ملاحتهم في البحر المتوسط"

وقد ارتبطت محاولات المصريين المبكرة للإبحار جنوباً في البحر الأحمر بالبحث عن بلاد بُنت التي كانت تعرف في ذلك الزمن القديم بالبلاد المقدسة وأرض الأرواح موطن الآلهة. وكانت بلاد بُنت في التاريخ المصري القديم تطلق على مناطق جنوب البحر الأحمر والقرن الافريقي. والسفر إلى بلاد بنت لم يكن بالشيء المعتاد، فقد وصف سليم حسن الطريق من بدايته في قفط على النيل قائلاً:

"كانت القوافل تقطع المسافة في مدة أربعة أيام من قفط إلى البحر الأحمر سالكة طريقًا وعرًا لا ماء فيه، شمسه محرقة، وفي النهاية يصل الإنسان إلى ساحل قاحل لا سكان فيه ولا حياة، ومن أجل ذلك كان أول هم للبعثة أن تحمل معها كل المعدات لبناء السفينة أو السفن التي كانت تقلع إلى بلاد بُنت، إذ لم يكن هناك مرفأ مهيأ للسفن كما كان الحال على البحر الأبيض المتوسط. ولذلك كانت كل بعثة تريد الإبحار إلى بلاد بنت تبتدئ بتجهيز المعدات من جديد، فكانت تحضر معها المواد الغذائية والماء بمقادير عظيمة" (سليم حسن، ج 2 ص 263)

ويواصل قائلاً: "ومن المعروف أن المصريين كانوا ينقلون سفنهم مفككة من مدينة قفط بطريق البر إلى شاطئ البحر الأحمر، ثم يشيدونها هناك في ميناء يقع على مقربة من القصير الحالية" وكان الوصول إلى ساحل البحر الأحمر من النيل عبر الصحراء كما يوضح السيد عبد العزيز سالم يتطلب إعداد فرق عسكرية كبيرة لتأمين الطريق وحفر الآبار والاشراف على إنزال سفن ñجُبيليةá على البحر الأحمر".(عبد العزيز، ص 174) وباستثناء منطقة خليج السويس لم تكن للمصريين طيلة العصر الفرعوني علاقة متصلة وموانئ دائمة على البحر الأحمر.

بعض أسماء السكان في الآثار المصرية:

وردت معلومات عن أسماء سكان الصحراء الشرقية في المصادر المصرية القديمة والكوشية مثل الأونوت والمِجا والمِزا والبُلهاو والرهرس والمدد، وفيما يلي بعض ما ورد عنها.

الأونوت:

من الأسماء المبكرة التي وردت في الأثار المصرية اسم الأونوت. فقد أطلقه المصريون القدماء على مختلف قبائل الصحراء الشرقية منذ عصر الأسرة الأولى في القرن 32 ق م وحتى عصر الأسرة الثامنة عشَر بين القرنين 16 – 11 ق م. كلمة أونوت تعني القوس والرامي للقوس، كما كانت كلمة أونوت تستخدم صفة لاسم ستيو (رامي السهم في اللغة المصرية القديمة) فيقال

ستيو-أونوت. فالأونوت سكان الصحراء كانوا أيضاً "رماة الحدق" وكان الأونوت يمثلون قبيلة "مِجا" أو "مِزا" الذين يسكنون الصحراء بين النيل والبحر الأحمر ويفدون إلى وادي النيل. (سليم حسن، ج 2، ص 81 – 82)

مجموعة المِجا أو المِزا:

المِجا والمِزا هما الاسمان الأكثر شهرة وتدويناً في كتب التاريخ، وقد كُتبا في مراجع التاريخ القديم بأشكال مختلفة مثل مِجا ومِجاو ومِجاي ومِدجاي ومِدجو . ومزا ومِزوي ومِزاوي وما زوي. وينتشرون بين البحر الأحمر والنيل داخل الأراضي المصرية والسودانية. وقد لخص ذلك سليم حسن (ج 2، ص 51) في الآتي:

دلت كلمة مزاي في عصر الدولة القديمة (بين القرنين 27 22- ق. م.) على الاقليم الواقع شمال الشلال الثاني

عهد الدولة الوسطى (بين القرنين 21 – 16 ق. م.) كان قوم المزاي لا يزالون يسكنون جنوب أسوان، ولكن الاسم أصبح عاما يشمل أناساً يحتمل أنهم كانوا يعيشون بعد الشلال الثاني بمسافة كبيرة

عهد الأسرة 18(بين القرنين 16 – 11 ق. م.) أخذت كلمة مزاي تستعمل بمعنى وظيفة الشرطة ورماة الصحراء. ويحتمل أنها فقدت في هذه الفترة كل علاقة فعلية مع بلاد النوبة.

الـ Irm وNimiu

ظهرت في آثار الملكة حتشبسوت في نهاية الألف السادس عشر قبل الميلاد لأشكال ستة زعماء لقبائل أو لجماعات سودانية من بينهم الـ Irm وNimiu يقدمون الذهب إلى الملكة. ويرى آركل أنه من أسماء وأشكال الزعيمين من الممكن أن يكونا Nimiu أسلاف الـ Nyima الحاليين في جبال النوبة، والـ Irm هم الذين أشارت إليهم المصادر المصرية القديمة في القرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر قبل الميلاد بأرضIrm التي تقع في منطقة الاستبس الواقعة

غربيي النيل الأبيض والمعروفة اليوم بكردفان حيث لا يزال بعض فروع الميما يعرف بـ (Armi. (Arkell, p 107

أسماء بعض المناطق في الآثار المصرية بين القرنين 24 - 18 ق م:

وقد ورد ذكر اثنتي عشرة منطقة في عصر المصرية الأسرة السادسة (2345 – 2181 ق م) وهي: واوات، ارثت، ستو، يام، كوش، تمحو، مزا، كاو، عا، ثر، مخر، تِرس. السبع مناطق الأولى وصفت كإمارات أو ممالك. تقع هذه المناطق على النيل جنوب أسوان ما عدا مزا التي تقع في الصحراء الشرقية ويام وتمحو التان تقعا في الصحراء العربية.

وردن في الآثار المصرية القديمة معلومات عن رؤساء ستو وإرثت ويام (سليم حسن ج 10 ص 30) وقال ببي نخت نائب الملك في نخن عن إرثت:

"ذبحت منهم عددا عظيما ومنهم أولاد الرؤساء والضباط المتفوقين من المحاربين ... وعقب ذلك أرسلني جلالته لتهدئة الأحوال في هذه الممالك [يقصد الممالك الواقعة جنوب أسوان] ... أحضرت رئيسي هاتين المملكتين"

ذكر وني مدير جنوب مصر أن الجنود المرتزقة في جيشه من "ارثت والمزاوي ويام وواوات وكاو بلاد التمحو" (سليم حسن ج 10 ص 34) مناطق واوات وارثت وسثو هي التي شهدت ازدهار الحضارة التي أطلق عليه "المجموعة ج C-Group. لتفاصيل ذلك أنظر: "الأوضاع السياسية بعد صقوط مملكة تا ستي" في كتاب مراجعات في تاريخ السودان، ص 30– 34)

ووردت الاشارة في نصوص الأسرة الثانية عشرة (بين القرنين 21 – 18 ق م) إلى أربعة عشرة منطقة في السودان هي: واوات، ارثت، كوش، شعت (صاي)، شِمِك (جنوب حلفا)، حِح (سمنة)، مِرخي (مرقسة بجوار حلفا) هاو (عو، كاو؟) يام، مِتْشا، خَسْعاي، اخركيو، يخركن، بِقِس.

أسماء بعض السكان في الآثار الكوشية:

وردت في الآثار الكوشية أخبار بعض السكان في الصحراء الشرقية مثل البُلهاو والرهرهس والمدد. ويبدو أن الجفاف الذي بدأ يسود المناطق الشمالية والوسطى من الصحراء قد أدى إلى تحركات سكانية اتجهت داخل حدود السودان الحالية غرباً نحو النيل وجنوباً نحو نهر عطبرة. فقد جاء ذكر البُلهاو في مسلة الملك أنلماني في القرن السادس قبل الميلاد.

كما ورد ذكر تحركات أخرى بقطعانها مثل البُلَهاو والرهرهس والمدد وقبائل صحراوية أخرى لم تحدد مواطنها في عصر الملوك أنلاماني 63 593- ق م وأماني نتي يركي 418 398- ق م وحرسيوتف 397 362- ق م، وقد تحركت بعض تلك القبائل نحو النيل في مناطق كورتي ودنقلة الحاليتين وتصدت لها قوات الدولة.

البُلهاو:

ويرى بعض الباحثين أن البلهاو هم البليميين، وأن منطقة البلهاو جزء من بلاد البجة الحالية. (Edie et . al, p221, 226) كما يرى البعض أن اسم البليميين –Imn-m-ip – ربما ورد ذكره في قائمة أسماء الجماعات أوالقبائل التي دونتها كتابات الدولة المصرية الحديثة 1550 – 1069 ق م. (كلايدي ونتر، ص 1) وقد أرجع بعض الباحثين اسم البليميين Blemmyes في شكله الديموطيقي (المصري القديم) إلى Blhn أو Blh.w وشكله القبطي Belehmu بلهمو بفتح الباء وكسرها (Crawford, p 190) وسيتم تناول البليميين لاحقاً.

الرهرهس والمِدِد (المتت):

الفرع الآخر من سكان الصحراء الذين وردت أخبارهم في الآثار الكوشية في الفترة النّبَتية هو: الرهرهس Rehrehs الذين وصفهم آركل بأنهم الفرع الجنوبي للبجة. وقد وردت أخبار تحركاتهم بأعدادهم الكبيرة وأغنامهم وأبقارهم في عصر الملكين أماني نتي يركي وحرسيوتف في آخر

القرن الخامس وأول القرن الرابع قبل الميلاد. فقد ورد في مسلة الملك أماني نتي يركي أنه هزم سكان الصحراء الرهرهس في الاقليم الشمالي واستولى على غنمهم وأبقارهم، وأتوا مرة أخرى بكل ممتلكاتهم وقطعانهم وهم أكثر من عدد الرمل فحاربهم جلالته وهربوا أمامه. (Eide et. al. Vol. 2 p 448, 452. 452. 401, 403)

وقد وردت أيضاً معلومات عن فرع آخر من سكان الصحراء هم المِدِد في عصر الملك أماني نتي يركي، وجاءت أخبار تحركاتهم الكبيرة بثيرانهم ذات القرون الطويلة وذات القرون القصيرة والحمير والضأن والغنم وتصدي الدولة لهم في وفي عصر الملك حرسيوتف. (Eide et. al. Vol. 2 p 448) ويلاحظ أن اسم المدد يكتب أحيانا المتت. ويرجح توروك أن الاسمين يرجعان إلى جماعة واحدة وهم الذين عرفوا باسم المِجا او المِدجاي في المصادر القديمة. (Edie, et al, Vol. 2, p 492, Note no, 180)

وقد وردت في الآثار الكوشية أسماء بعض السكان والمناطق التي تتطلب البحث للتعرف عليها، مثل المعلومات التي وردت في مسلة الملك حرسيوتف. فقد ذكر أنه أرسل جيشاً إلى مِخوف Mekhuf وأوضح أنه أخذ أبقارهم، وأرسل فرقة الفرسان إلى رصد ثوار مِخوف، وهزم الكراوِ Kharawe، كما أرسل جيشاً من فرسان أرض الصحاري الأربعة إلى أرض صحراء مِختيو.(Edie, et al, Vol. 2, and Vol. 2, p 450, note no. 133) ولم تحدد بعد أماكن هذه المواضع وغيرها من أسماء الأماكن التي وردت في مسلات الملوك: أماني نتي يركي وحرسيوتف ونستاسن، ربما كان بعضها في الصحراء الغربية وبعضها الآخر في الصحراء الشرقية.

نقش كلابشة عن الملك خارامادويه :

بعض أسماء الأشخاص والجماعات الذين ورد ذكرهم في نقش كلابشة (جنوب أسوان) مكتوب باللغة المروية. وهو نقش يدور حول الملك خارامادويه في القرن السادس الميلادي. يرى بعض الباحثون أنه ملك البليميين بينما يرى آخرون أنه ملك النوبادين. نشر النقش كلايدي ونترز. (قائمة المراجع)

خارامادويه (ملك)، باتابوتكايه، الاكالآن، الناسادوكا، التاميا، شيمالو، أروخيتايه، الشاقا (ينسب بغض الباحثين قبيلة الشايقية إلى هذه المجموعهة)

وثائق عن البليميين:

وردت ثمان أسماء في ثلاث وثائق عن البليميين مكتوبة باللغة اليونانية ترجع إلى القرن السادس الميلادي عن جزيرة تناري في منطقة الأقصر الحالية جنوب مصر والتي كانت تابعة للبليميين. (مصطفى محمد مسعد ص 241)

الوثيقة رقم الأولى:1. شاراشن (يكتب أيضا خاراخن) ملك البليميين، 2. شاراتكور(يكتب أيضا خاراثكور) 3. شاراهيت (خاراهيت) إبني الملك، 4. تنتكنا أمين القصر، 5. سانسانوس كاتب الوثيقة

// الوثيقة الثانية: 6. باكنمن ملك البليميين، 7. باو اسم قسيس 8. أجاثونوس كاتب الوثيقة كاتب الوثيقة الثالثة,

نقش دندور :

وردت ثمان أسماء عام 559 م في نقش باللغة القبطية على جدران معبد دندور بالقرب من كلابشة جنوب أسوان. النقش بمناسبة تحويل معبد دندور إلى كنيسة. (مصطفى محمد مسعد ص 242)

1. أرجمنيز ملك نوباديا 2. يوسف نائب الملك 3. الأسقف ثيودور 4. القسيس ابراهام، 5. الخصي شاس 6. مندوب الملك يافنوتي 7. حامل أختام الملك أبيفاس 8. ماركوس البريدي.

المصادر والمراجع :

(1) أحمد الياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية ج 4، الخرطوم: مركز بناء الأمة للبحوث والدراسات 2018,

(2) أحمد الياس حسين، مراجعات في تاريخ السودان، الخرطوم: مركز بناء الأمة للبحوث والدراسات 2018,

(3) سليم حسن، مصر القديمة ج 2 ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992

(4) سليم حسن، مصر القديمة ج 10، تاريخ السودان المقارن حتى عص بيعنخي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994.

(5) عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم: مصر والعراق مكتبة الأنجلو المصرية 1990

(6) كلايدي ونترز، "بينة مروية عن الإمبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس" ترجمة اسامة عبد الرحمن النور. مجلة الآثار السودانية، العدد 5 مارس 2004 (online)

(7) مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2011.

(8) Arkell, l,A. J. History of the Sudan, London: University of London, 1961.

(9) Crawford, O. G. S.,The Fung Kingdom of Sennar: with Geographical account of the Middle Nile Region, GlouCester: 1959.

(10) Edie, Tormod, et. al.(eds) Fonte Historiae Nubiorum. Bergen: University of Bergen 1994.

الجعل والجعليون في السودان
(قراءة مغايرة للدلالات التاريخية لمصطلح أصول الهوية العربية)

د. عـــوض شـــبا

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر

المستخلص:

سـعت هـذه الورقـة إلى إثـارة أسـئلة جديـدة حـول بعـض المسـلّمات في تاريـخ السـودان، رغـم مـا يحيـط بهـا مـن حساسـيات معرفيـة واجتماعيـة، وذلـك مـن خـلال إعـادة النظـر في مدلـول مصطلـح (جعـل وجعليـون)، خـارج الإطـار التقليـدي الـذي يحصرهـا في الدلالـة عـلى قبيلـة الجعليـين في شـمال السـودان. واعتمـدت الدراسـة المنهـج التاريخـي التحليـلي، مسـتندةً إلى قـراءة مغايـرة للمصادر الشـفاهية والكتابيـة، في سـياق التحـولات التـي أعقبـت انهيـار مملكـة المقـرّة. وخلصـت الورقـة إلى إمكانيـة تقديـم فرضيـة جديـدة لتشـكّل الهويـة والكيانـات السياسـية في التاريـخ السـوداني، قابلـة للنقـد والتعديـل، بمـا يفتـح مجـالًا لإعـادة بنـاء تاريخـي برؤيـة مختلفـة.

الكلمات المفتاحية: الجعل، الجعليون، السودان، قراءة، الهوية العربية

The Jaal and the Jailun in Sudan
(A different read in of the historical connotation of the tram "origins of Arab identity")

Dr. Awad Shaba

Abstract:

This paper seeks to raise new questions about certain established assumptions in Sudanese history, despite the intellectual and social sensitivities surrounding them, by reexamining the meanings of the terms "Jaʿl and Jaʿaliyyin" beyond their conventional usage as references to the Jaʿaliyyin tribe of northern Sudan.The study adopts a historical-analytical approach, drawing on a critical reading of both oral and written sources within the context of the transformations that followed the collapse of the Kingdom of Makuria. It concludes that a more dynamic interpretation of identity formation and political entities in Sudanese history is possible, opening the way for reinterpreting certain historical phenomena through a broader conceptual framework.

Keywords: Al-Jaal,Al-Jaalyoun ,Sudan, reading, Sudanese ientity

المقدمة:

ورد اسم جعل الدفار، وكذلك مملكة الجعل، في المصادر السودانية الشفاهية والكتابية، كما استُخدم المصطلح للدلالة على القبيلة السودانية المعروفة في شمال السودان، التي تنتسب – وفق الروايات النَّسَبية المتداولة – إلى العباس بن عبد المطلب.

تهدف هذه الورقة إلى إعادة النظر في مصطلح الجعل والجعليون من حيث دلالتها التاريخية، من خلال قراءة مغايرة لمفهومها ولسياقات استخدامها. وتنطلق الدراسة من فرضية تاريخية تهدف لإثارة أسئلة جديدة حول تاريخ السودان الوسيط والمتأخر، وخاصة ما يتصل بالكيانات السياسية التي ظهرت عقب انهيار مملكة المقرة.

وقد سبق للكاتب أن طرح ملامح هذه الفرضية في كتابيه اللذين تناولا الكيانات السياسية التي أعقبت سقوط المقرة، وأطلق عليها وصف خلفاء مملكة المقرة، وهما: (الدناقلة والشايقية) و(الدفار: المملكة المنسّية). ويحاول في هذه الورقة إلى إعادة صياغة الفرضية بصورة أكثر تحديدًا ووضوحًا، مع التأكيد على أنها أطروحة مفتوحة للنقاش والحوار العلمي، وقابلة للمراجعة في ضوء ما قد يستجد من معطيات تاريخية أو قراءات نقدية جديدة.

كما تتناول الدراسة – عرضًا – بعض المصطلحات ذات الصلة، مثل السواكرة، فضلًا عن الإشارة إلى نماذج تاريخية مساندة للفرضية، من بينها الجهود المنسوبة إلى الملك شاويش في سياق تدعيم البناء التاريخي الفرضية الذي تتناوله هذه القراءة. من خلال المحاور التالية:

- نقد نظرية الأصل العربي للجعليين
- كلمة جعل من خلال السياق التاريخي.
- الجعل ومحاولات إحياء مملكة المقرة

نقد نظرية الأصل العربي للجعليين:

اشتهر لدى عدد كبير من الكُتّاب السودانيين، خاصة المهتمين بعلم الأنساب، أن الجعليين يُعدّون من أكبر المجموعات العربية في شمال السودان، وينتسبون إلى العباس بن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ. غير أن هذا النسب تعرّض لنقد واسع من عدد من الباحثين، ونكتفي هنا بعرض آراء بعض أبرز الدارسين لتاريخ العرب في السودان.

من أهم هؤلاء الإداري والمؤرخ البريطاني هارولد ألفريد ماكمايكل (H. A. MacMichael)، الذي تناول الجعليين بقوله إنهم يُعدّون من ضمن المجموعات الرئيسية المعروفة التي يُنسب إليها العرب في السودان، خاصة لدى النسّابة المحليين، وهم الأكثر عدداً وانتشاراً. غير أنه أشار في الوقت نفسه إلى أنهم أكثر القبائل تفككاً من حيث البنية الداخلية، وأن المجموعات المصنفة تحت هذا الاسم لا يمكن اعتبارها قبيلة واحدة بالمعنى الدقيق، بل يجمعها ادعاء الانتساب إلى العباس عمّ النبي ﷺ، حتى أصبحت كلمة "جعلي" في مدلولها الشامل مرادفة لـ"عباسي".

ويضيف ماكمايكل أن هذا اللقب استعارته عائلات عديدة من مناطق تمتد من الحبشة حتى بحيرة تشاد، حيث يعتبر أفرادها أنفسهم – أو يتظاهرون – بالانحدار من العباس. ولا يكتفي

ماكمايكل بالتشكيك في صحة هذا النسب، بل يرى أن الرواية المتداولة حول أصل الاسم ذاته تشير إلى ضعفها؛ إذ تُروى قصة عن رجل يُدعى إبراهيم، يُقال إنه من أحفاد العباس، وأنه اشتهر بكرمه في زمن مجاعة، فكان يقول للناس "جعلناكم" (أي تكفّلنا بكم)، فلقّبوه بـ"جعل"، ومن ثم تجمّع حوله الأتباع. ويرى ماكمايكل أن هذه الرواية أقرب إلى الخيال، وأن ما يُسمى بالجعليين ليس سوى تجمّع يضم أخلاطاً من قبائل شتى.

ويشير كذلك إلى أن مصطلح "جعليين" بمفهومه النسبي المبهم كان يُطلق على مجموعات واسعة من القبائل النوبية في الشمال، مثل الجوابرة والبديرية، بل والشايقية والبطاحين والجوامعة وبديرية كردفان وغيرهم. ويرى أن هذا التمدد الواسع للهوية "الجعليّة" أتاح لبعض المجموعات – مثل الهمج في سنار – الادعاء بأن أجدادهم من الجعليين الذين تزوّجوا من نساء من جبال البرن، كما نشأت ادعاءات بوجود صلات قربى بين الجعليين وحكام تقلي ودارفور ووداي وبرنو[1].

وفي السياق نفسه، انتقد الباحث البريطاني سبنسر ترمنغهام (Spencer Trimingham) استخدام مصطلح "عرب" في السودان بوصفه توصيفاً إثنياً، واعتبره مصطلحاً غامضاً؛ إذ إن عدداً من القبائل النوبية والبجاوية، بل وبعض المجموعات الإفريقية الخالصة مثل الفونج، تدّعي جميعها الانتساب إلى أصول عربية. ويرى أن أشجار الأنساب لا يمكن الوثوق بها مطلقاً، لأنها في كثير من الأحيان مصطنعة بوضوح، وأن العربي في السودان المعاصر قد يكون إفريقياً خالصاً لا أثر فيه لأصل عربي[2].

كما أشار الباحث لودفيغ كورباتشيك إلى أن المصادر المتاحة لدراسة التكوين التاريخي لسكان النوبة الشمالية يجب التعامل معها بتحفظ شديد، لأنها تقوم في الأساس على أساطير وروايات نسب لم تتبلور في صورتها الراهنة إلا في فترات متأخرة، وغالباً ما حُفظت شفوياً أو في مخطوطات باعتبارها ممتلكات ذات قيمة اجتماعية كبرى. ويذكر كورباتشيك أن أشهر من جمع هذه الأنساب هو السمرقندي في القرن السادس عشر الميلادي، وأن كتابه المتعلق بأنساب الفونج كان يهدف إلى إقناع السلطان العثماني بشرعية النسب العربي الإسلامي للنوبيين، وهو هدف سياسي يجعل كثيراً من تلك الأنساب موضع شك[3].

أما الباحثان ريتشارد أوفاهي (R. S. O'Fahey) وجاي سبولدنغ (Jay Spaulding)، فيرجعان تبنّي السكان للأنساب العربية إلى أسباب اقتصادية واجتماعية. ويذهبان إلى أنه منذ القرن الثامن عشر الميلادي ظهرت شرائح تجارية جديدة تحالفت مع قيادات صوفية وفئات من خريجي الأزهر، وشكّل هذا التحالف نواة طبقة وسطى سرعان ما كوّنت لنفسها قاعدة سياسية واقتصادية وأيديولوجية. ولتعزيز مكانتها الاجتماعية، تبنّت هذه الطبقة أنساباً عربية وإسلامية مرموقة تعود إلى صدر الإسلام، وأنشأت لنفسها أشجار نسب تُكسبها وجاهة ورمزية دينية[4]. وفي ذات السياق يقدم سمير محمد نقد سببا إضافياً وهو أن تبنى هذه الأنساب يوفر حماية لهذه المجموعات في ظل الأوضاع الأمنية والسياسية غير المستقرة في تلك الفترة[5]. وبعد عرض هذه التفسيرات الموضوعية لظاهرة ادعاء الأنساب العربية، يتبين أن مسألة الأصل العربي للجعليين – ومنهم

البديريـة – تظـل قضيـة إشـكالية، تتداخـل فيهـا المعطيـات التاريخيـة بالاعتبـارات السياسـية والاجتماعيـة والرمزيـة، وتسـتوجب قـراءة نقديـة تتجـاوز ظاهـر روايـات النسـب إلى تحليـل السـياقات التـي أنتجتهـا.

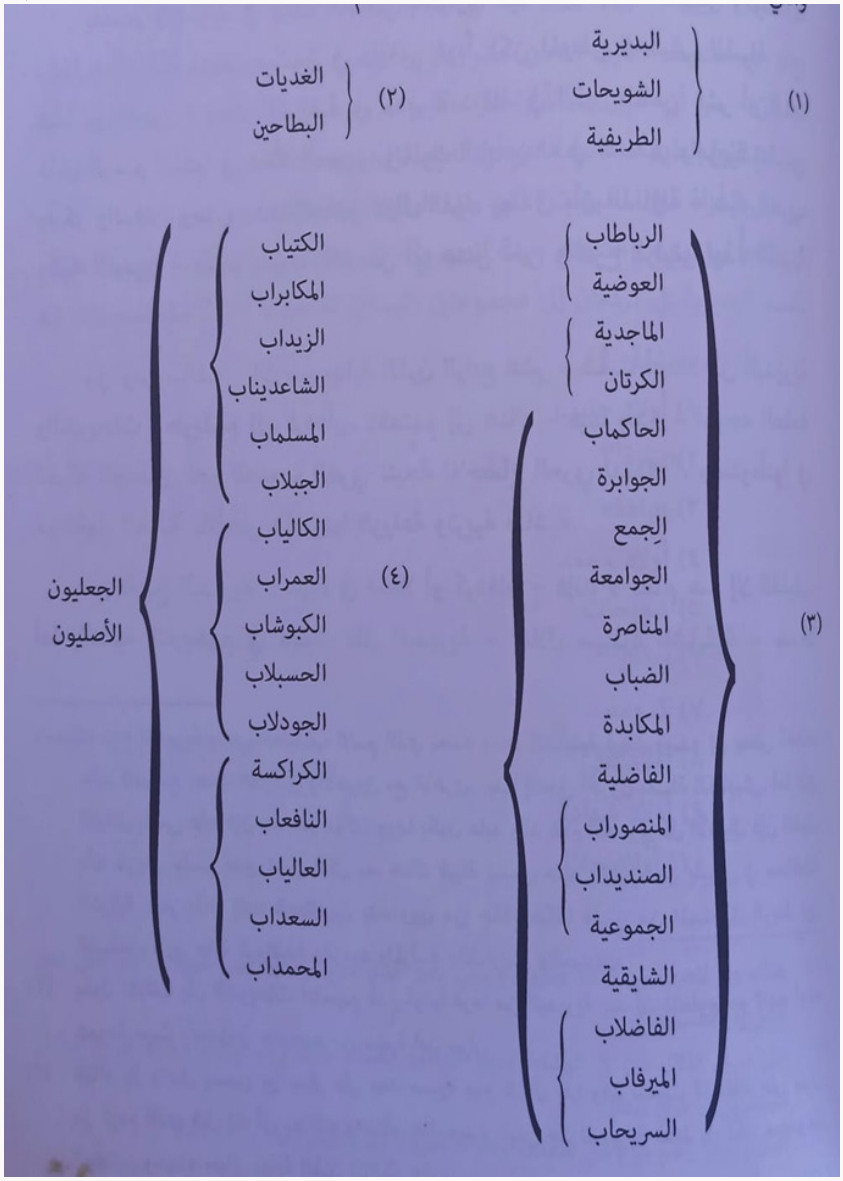

المجموعة الجعلية[6]:

مصطلح جعل من خلال السياق التاريخي:

إن التشـكيك الـذي أُثـير حـول مدلـول مسـمى الجعليـين، ونقـد نظريـة الأصـل العـربي لهـم – وهو في تقديرنـا رأيٌ معتـبر – يدفعنـا إلى البحـث في مصطلـح "جعـل" خـارج إطـار التصنيـف القبـلي العـربي،

والنظر إليه بوصفه مصطلحاً ذا مضمون سياسي أو اجتماعي في سياقه التاريخي.

ومن أقدم الإشارات إلى جعل كمسمى يرتبط بكيان ذي طابع سياسي ما ورد في سياق الصراع مع العنج الذين سيطروا على الأوضاع السياسية في مملكة علوة، وتمركزوا في عاصمتهم سوبا، وامتد نفوذهم شمالاً حتى الشلال الرابع في القرن الرابع عشر الميلادي[7]. وقد تصدت لهم مجموعة عُرفت باسم جعل. فقد ورد في مخطوطة النبر: "... أتت عليهم قبيلة جعل، وتغلبوا على ملك العنج بالظفر، وطردوهم من تلك الديار، وأتتهم الفونج واستولت على جميع البلاد، وأذعنت لهم القبائل بالطاعة، وصارت جعل عندهم من جملة الرعية، ولكن لهم المزية على غيرهم، فولوهم فيما هم فيه من البلاد..."(8)، وتشير هذه الرواية إلى أن جعل لم تكن مجرد تسمية نسبية، بل جماعة ذات حضور عسكري وسياسي في مرحلة انتقالية مضطربة.

كما أورد الرحالة روبيني في الربع الأول من القرن السادس عشر إفادة مهمة، إذ ذكر مملكة جعل التابعة لمملكة سوبا وتحت حكم عمارة. ورغم أن كثيراً من المؤرخين السودانيين نسبوا هذه الإشارة إلى مملكة الجعليين المعروفة لاحقاً، فإن استخدام لفظ "جعل" هنا يثير احتمال وجود رابط ما بين الاسمين، أو أن المصطلح كان أوسع دلالة من مدلوله القبلي المتأخر(9).

من هم هؤلاء "الجعل"؟ لا نملك إجابة قاطعة، غير أننا نحاول تقديم تصور مبدئي قابل للنقاش، ينطلق من دراسة معنى الاسم ودلالاته في سياقه التاريخي، خاصة في فترة التحولات السياسية والاجتماعية التي أعقبت تدهور الممالك النوبية المسيحية.

نميل إلى أن أصل الاسم نوبي، باعتبار أن اللغة السائدة في تلك المنطقة وتلك الفترة كانت اللغة النوبية الدنقلاوية. فكلمة "جال" (Gal) – مع ملاحظة أن نطق الألف يميل إلى العين في الدنقلاوية – تعني الثائر أو الذي يرفع صوته غضباً. وإذا صحّ هذا الاشتقاق، فإنه يتسق مع الأحداث السياسية آنذاك، حيث واجه حكم العنج رفضاً شعبياً تبلور في ثورة ضدهم، وربما أُطلق وصف الجعل على تلك الجماعات الثائرة.

وقد برزت آراء متعددة حول أصول الجعل، إلا أن معظمها يشير إلى جذور نوبية. ويُقال في بعض الروايات إنهم من رقيق النوبة، كما يرد في التراث الشعبي لقبيلة المناصير بولاية نهر النيل – بحسب ما ذكرته فاطمة أحمد علي – أن من أشهر حكامهم الملك السوكري، وهو من الجعل، وقد قُتل على يد آل قمر بمساعدة الفونج في ثورة المناصير الشهيرة ضد أسرة السواكرة، التي تُرجع بعض الروايات أصولها إلى رقيق النوبة، بينما تشير روايات أخرى إلى أن السواكرة ينتسبون إلى الجعل، وأنهم من نوبة الشمال[10]. وتكشف هذه الروايات أن الذاكرة الشعبية ما تزال تحتفظ بمخزون مهم من الإشارات المتعلقة بالجعل، كما يُلاحظ أن عدداً من ملوك وزعماء الكيانات التي خلفت مملكة المقرة يرد في سلسلة نسبهم اسم أو لقب جعل أو جعلي، مما يعزز فرضية أن المصطلح كان يحمل دلالة تتجاوز الإطار القبلي الضيق؛ تستوقفني هنا أيضاً العلاقة بين الجعل والسواكرة. فقد ورد اسم السواكرة في بلاط مملكة المقرة، كما في سيرة ملك دنقلا سمامون (1288–1293م)، حيث جاء أنه "استمال إليه السواكرة"(11)، مما يدل على أن هذه الفئة

كانت تمثل طبقة مؤثرة في البلاط الملكي. ويشير أحمد الياس إلى أن السواكرة في السلطنة السنارية (1504–1821م) كانوا يشرفون على الأمراء في العاصمة، ويُعرف رئيسهم بـ(مقدم السواكرة)، وأن هذا اللقب كان معروفاً أيضاً في مملكة المقرة. ويُستدل من ذلك على وجود استمرارية مؤسسية بين العهدين المقري والسناري، وأن اسم السواكرة ظل متداولاً حتى اليوم، سواء كلقب أسري أو كمسمى قبلي في شمال السودان(12).

إذا وضعنا هذه المعطيات في سياقها الأوسع، نجد أن هارولد ألفريد ماكمايكل أشار إلى هجرة مجموعة من المناصير إلى دارفور قبل قرنين تقريباً، واستقرارهم في مناطق مثل سانية كرو وتولو وجبل حلة، وتسمّيهم باسم مناصرة. كما ذكر أنالمقابضة إحدى فروع الغديات، ويرجّح صلتهم بالبديرية، ويظهر اسمهم أحياناً في النسبة كقبيلة جعلية ذات قربى بالمناصرة(13)، ومن اللافت أن المقابضة (أو المقابدة) تُعد من المجموعات السكانية الأصلية في منطقة الدفار بمنصوركتي، وهو ما قد يعزز الصلة بين الجعل والدفار من جهة، وبين هذه المجموعات ذات الامتداد النوبي من جهة أخرى.

استناداً إلى ما تقدم، يمكن ترجيح أن مسمى جعل كان يُطلق على مجموعة سكانية واسعة الانتشار، ترجع في أصولها إلى النوبيين، ولها صلة وثيقة بمنطقة الدفار. غير أنه يصعب تحديد نطاق جغرافي دقيق لهم في الإقليم النيلي.

وقد ذكر روبيني أن مملكة الجعل تقع شمال سوبا بمسيرة عشرة أيام. وإذا افترضنا أن متوسط المسيرة اليومية يقارب 30 كيلومتراً، فإن المسافة التقديرية تقارب 300 كيلومتر، لكن يظل التساؤل قائماً: هل كان يقصد مركز المملكة أم أطرافها؟

وهنا يبرز تساؤل جوهري: لماذا يقترن اسم الدفار مراراً باسم الجعل؟ وهل كانت الدفار مركزاً لهؤلاء الجعل الثوار؟ وما الأهمية الدينية أو السياسية أو الرمزية التي جعلت من الدفار موضعاً محورياً في هذه الذاكرة التاريخية؟

إن هذه الأسئلة لا تزال مفتوحة، لكنها تشير إلى أن مصطلح جعل قد يكون في أصله توصيفاً سياسياً – اجتماعياً لحركة أو جماعة ثائرة ذات جذور نوبية اختطلت بمجموعات عربية، قبل أن يتحول لاحقاً إلى هوية نسبية وقبلية في سياقات تاريخية مغايرة.

جعل الدفار ومحاولات إحياء مملكة المقرة: ورد مسمى جعل الدفار في المرويات الشفاهية، كما وردت عبارات مثل: ملوك الدفار، ودنقلا الدفار، وجعل الدفار في الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، وفي مخطوط خلاصة الاقتباس لمؤلفه أحمد بن إسماعيل الأزهري. وتحمل عبارة جعل الدفار في هذا المخطوط دلالات سيادية واضحة، تشير إلى حق هذه المجموعة – أحفاد الملك موسى (مسوا الكبير) – في الحكم والملك، وهم الذين يُعرفون بالبديرية، حكام مملكة الدفار[14].

وتُعد منطقة حصن الدفار من المواقع الاستيطانية القديمة والمهمة، خاصة في الفترة التي أعقبت نهاية مملكة مروي في منتصف القرن الرابع الميلادي، وذلك بحسب نتائج الدراسات

الأثرية. وبناءً على ذلك، قد يصح القول إن مركز الدفار أقدم من مركز دنقلا العجوز، وإن بدايات تكوين المملكة ربما انطلقت من الدفار[15].

ويقودنا هذا الطرح إلى التساؤل حول الكيفية التي قامت بها مملكة المقرة، وسبب اتخاذها دنقلا العجوز – القريبة من الدفار – عاصمة لها. كما يطرح سؤالاً آخر: أين كان مركز تجمع الأسرة الملكية والمجموعة التي نجحت في إقامة هذه المملكة؟ وهل يمكن القول – مبدئياً – إن مركز التجمع الأول كان في الدفار، استناداً إلى المرويات الشفاهية ودلالات الاسم؟ وهل كانت الدفار مركزاً لتجمع الثوار المعروفين بجعل الدفار، لاستعادة ملك آبائهم وأجدادهم، لتغدو بذلك منطلقاً لبداية المملكة وملهماً لنهضة سياسية جديدة؟

نؤكد أن هذا الطرح يمثل فرضية تاريخية قابلة للنقاش، وخاصة أن منطقة الدفار تتميز بالأهمية التاريخية عبر الحقب المختلفة، ويبدو أنها كانت إحدى المراكز الدينية القديمة ذات التأثير، ثم لعبت دوراً مهماً في تاريخ السودان الوسيط، خاصة في فترة قيام وتكوين مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا العجوز في القرن السادس الميلادي. وربما أسهمت كذلك في محاولات إحياء المملكة بعد تدهورها في بدايات القرن الرابع عشر الميلادي، من خلال ما عُرف بثوار الدفار (جعل الدفار).

وقد يتضح الأمر بصورة أكبر عند النظر في الكيانات السياسية التي قامت في إقليم الشايقية، إذ تشير غالب الروايات إلى أن الحكم في هذا الإقليم – ممثلاً في مكوك الشايقية – كان ينفرد به من حمل لقب جعل، ويستفاد ذلك مما أوردته فاطمة أحمد علي في كتابها ملوك الجزر السبعة، حيث ذكرت أن الحكم كان في أولاد كدنقا بن شايق، واسمه محمد، وأمه آمنة بنت عيسى ملك مملكة كوكا بمنطقة المحس. وقد لقبه أهل أمه النوبة بـ"كدنقا"، وتعني الولد البكر، وعُرف أولاده وأحفاده بالكندقاب، وأوصى ملوك كوكا شايق بأن يجعل الملك لكدنقا وذريته، وفق العرف السائد لديهم في توريث الحكم لابن البنت. فاحترم الأمير شايق رغبتهم، وظل مكوك الشايقية من أولاد كدنقا. ومنهم شاويش الذي كوَّن مملكة الجعل العمراب في أمري، وتوارثها أحفاده حتى الغزو التركي للسودان عام 1821م. ومن أشهر ملوكها الملك السوَّكري(16)، كما يرد اسم "جعل" في عدد من الأسر الحاكمة عند الشايقية، مثل: جعل الحنكاب، وجعل أمري، وكذلك عند الدناقلة.

يمكن تقديم رؤية عامة لمحاولات إعادة إرث المملكة من خلال تحالف الكيانات السياسية لخلفاء مملكة المقرة، المتمثلة في مكوك وملوك دنقلا والشايقية، وجهود الملك شاويش (أو شاؤس) حفيد الملك كدنقا الجعلي في هذا السياق، فبعد انهيار المنظومة الملكية لمملكة المقرة، نشأت عدة ممالك صغيرة، كانت في الغالب هي الوحدات التي شكّلت المملكة سابقاً ثم استقلت لاحقاً، وعُرفت بممالك دنقلا والشايقية. وشهدت هذه المرحلة نزاعات وغارات متبادلة، خاصة غارات الشايقية على دنقلا العجوز والخندق وأرقو، مما أثار الرعب في وادي النيل.

وتذكر الروايات أن حاكم الخندق، بشير الخندقاوي، حفر خندقاً عميقاً حول المدينة، ونصب فخاً عسكرياً للشايقية، مما أدى إلى مقتل عدد من فرسانهم. كما تشير روايات أخرى إلى اتحاد ممالك دنقلا الجنوبية تحت قيادته، وتمكنهم من إلحاق هزيمة بالشايقية بقيادة شاويش

في معركة عند القولد. وكادت معركة أخرى تقع عند الغريبة، لولا توسط علماء البديرية الذين نجحوا في إبرام صلح وتحديد منطقة الضيقة حداً فاصلاً بين الدناقلة والشايقية. وفي المقابل، تشير بعض الروايات إلى خضوع ممالك دنقلا الجنوبية لنفوذ الشايقية، استناداً إلى وثائق محلية ذكرت وجود نواب لمكوك الشايقية في بعض المناطق(17). وكذلك أورد الرحالة السويسري بوركهارت عن سيطرة الشايقية على مناطق دنقلا وعن وجود نائب لهم في أرقو اسمه محمود العدلانابي(18)، إلا أن هذه الروايات تعرضت للنقد، وخاصة أنه لم يزر أرقو ومعلوماته عن هذا الموضوع سماعية؛ وقد فنّد محمد علي طه الملك هذا الادعاء، موضحاً أن وجود محمود العدلانابي في أرقو كان في إطار المصاهرة والتحالف الأسري، لا بوصفه دليلاً على سيطرة سياسية مباشرة، وتكشف دراسة سيرة محمود العدلانابي – ابن الملك شاويش – أن وجوده في أرقو كان دعماً لخاله طمبل السابع في نزاع أسري داخلي، وأنه غادرها بعد استقرار الأوضاع عام 1815م، واجمعت الأسرة على طمبل السابع ملكاً على أرقو[19].

يبدو أن الملك شاويش استفاد من شبكة المصاهرات والتحالفات لخلق توازن سياسي جديد بين ملوك دنقلا ومكوك الشايقية وزعماء كردفان. وقد نجح في تحسين علاقاته مع زعماء بديرية كردفان، والتحالف مع الملك مساعد في المتمة، مما أضعف موقف السلطان هاشم المسبعاوي المتحالف مع مكوك الحنكاب، الذي اضطر إلى الانسحاب إلى شندي، حيث انتهى أمره لاحقاً، كما تشير الوقائع إلى أن شاويش حاول مد نفوذه جنوباً قبيل الغزو التركي عام 1820م، وسيطر على أجزاء من الضفة الغربية للنيل من المتمة وحتى المقرن، وأنشأ قواعد في الضفة الشرقية وهاجم حلفاية الملوك، إلا أن طموحاته اصطدمت بالتوازنات السياسية القائمة، ثم أجهضها الغزو التركي للسودان، ومن أبرز إنجازاته سماحه لأنصار السلطان هاشم بالاستقرار على النيل بشرط ممارسة الزراعة، وهي سياسة تعكس توجهاً نحو الاستقرار وبناء كيان منظم[20]، خلافاً للصورة التي رسختها بعض روايات الرحالة الأجانب والإداريين الانجليز عن الشايقية بوصفها مجموعات امتهنت السلب والنهب [21].

تكشف دراسة العلاقات بين الكيانات السياسية التي خلفت مملكة المقرة عن واقع سياسي مضطرب، تحكمه تحالفات ظرفية أكثر من كونه مشروع دولة متكامل. ومع ذلك، تبرز شخصية الملك شاويش بوصفها محاولة جادة لتأسيس كيان سياسي أكبر على أنقاض المقرة، مستفيداً من الروابط القبلية والمصاهرات والتحالفات العسكرية، ورغم أن مشروعه لم يكتمل بسبب الغزو التركي، فإن المؤشرات تدل على أن فكرة إعادة بناء الدولة كانت حاضرة، وأن ملوك الجعل – في الدفار والشايقية ودنقلا – حملوا في مرحلة ما عبء محاولة إحياء الإرث المقري في سياق تاريخي معقد ومضطرب[22].

الملك شاويش[23]

الخاتمة:

من خلال هذه القراءة المغايرة، يصبح من الممكن التفريق بين مصطلحي الجعل والجعليون، والنظر إليهما بوصفهما مفهومًا تاريخيًا مزدوجًا قابلًا لإعادة القراءة في ضوء التحولات السياسية والاجتماعية التي أعقبت انهيار مملكة المقرة. وقد سعت الدراسة، عبر منهج تاريخي تحليلي، إلى نقد المسلّمات المرتبطة بالأصل العربي الخالص للجعليين، وإعادة وضع المصطلح في سياقه التاريخي، باعتباره جزءًا من حراك إعادة تشكّل الهوية والسلطة عقب انهيار المقرة.

إن إعادة قراءة كلمة جعل ضمن سياقها التاريخي تفتح المجال أمام فهمٍ أكثر تركيبًا لطبيعة الكيانات التي ظهرت في مرحلة ما بعد المقرة، بعيدًا عن الإسقاطات النَّسَبية اللاحقة التي قد تعكس حاجات سياسية واجتماعية لعصور متأخرة أكثر مما تعكس واقع المرحلة الوسيطة نفسها، كما أن استحضار نماذج مثل الملك شاويش، وما ارتبط به من محاولات لإحياء البناء السياسي، يعزّز فرضية وجود مشروع لإعادة إنتاج شكل مملكة المقرة في ثوب جديد، مستند إلى عناصر محلية وإقليمية متداخلة، لا سيما في ظل وجود عوامل مشتركة عديدة بين الكيانات السياسية التي خلفت المقرة وإرثٍ تاريخي وحضاري امتد لأكثر من ألف عام؛ ولا تدّعي هذه الورقة امتلاك الحقيقة النهائية، بل تقدم قراءة تاريخية افتراضية تسعى إلى توسيع أفق النقاش حول تشكّل الهويات السياسية في التاريخ السوداني، والدعوة إلى تحرير البحث التاريخي من ثنائية الانتماء العربي/المحلي بوصفها إطارًا تفسيريًا مغلقًا. فالتاريخ – بطبيعته – سيرورة معقدة من التفاعل والتراكم، وإعادة بنائه تتطلب شجاعة السؤال بقدر ما تتطلب صرامة المنهج.

إن هذه القراءة المغايرة قد تمثل خطوة في اتجاه إعادة التفكير في مفاهيم راسخة، أملًا في الإسهام في كتابة تاريخ سوداني أكثر اتساعًا وتعددًا، يستوعب التعقيد ويحتفي بالتنوع، ويظل مفتوحًا للنقد والمراجعة العلمية المستمرة.

وتوصي الورقة بأهمية تكثيف طرح الأسئلة في موضوعات تاريخ السودان عمومًا، وتاريخ السودان الوسيط على وجه الخصوص، بوصفه حجر الزاوية الذي شكّل الإطار العام للدولة السودانية بتعقيداتها المختلفة. كما تؤكد أهمية دراسة الشخصيات القيادية المؤثرة في تلك الفترات، مثل الملك شاويش، لما قد تسهم به هذه الدراسات في الكشف عن التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتلك الشخصيات، والتي تعكس – في الغالب – طبيعة الأوضاع السائدة في سياقاتها التاريخية.

المصادر والمراجع:

(1) هارولد ألفريد ماكمايكل، تاريخ العرب في السودان بما فيهم الشعوب التي سبقتهم وسكان دارفور، الكتاب الأول، تعريب: سيد محمد علي ديدان، ط1، أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2012م، ص 237–238.

(2) سبنسر ترمنجهام، الإسلام في السودان، ترجمة: فؤاد عكود 2001م، ص24-25.

(3) Trimingham, Islamin Sudan, (London 1949).- S.

(4) ل كورباتشيك، النوبة في نهاية القرن الثاني عشر وحتى فتح الفونج في بداية القرن السادس عشر، في تاريخ أفريقيا العام، مج4، اليونيسكو، 1998م.

(5) محمد عبد الرحمن أبو سبيب، أدوات الزينة عند الشايقية وأصولها الثقافية- دراسة في الجمالية الشعبية، أم درمان : مركز عبد الكريم ميرغني (ب. ت.)، ص 25 .26

(6) Kindoms of the Sudan, (1974)., R.S.O, Fahey and J. L, Spaulding

(7) سمير محمد عبيد نقد، غلام الله بن عايد وآثاره في السودان الخرطوم: دار عزة للنشر والتوزيع، 2007م)، ص 21-22

(8) هارولد ألفريد ماكمايكل، المرجع السابق، ص241.

(9) راجع: أحمد المعتصم الشيخ، مملكة الأبواب المسيحية وزمن العنج، القاهرة: مركز الدراسات السودانية، 2002م.

(10) أحمد بن المشهور بـ"النبر"، كراس النسب (مخطوط)، محفوظ ضمن وثائق العباسية، دار الوثائق القومية، نقلاً عن: أحمد المعتصم الشيخ، حاشية ومستخلص من زيارة روبيني للسودان، مقال غير منشور.

(11) س. هيللسون، «داوود روبيني من الأوائل لسنار»، السودان في رسائل ومدونات، العدد 15، 1933م، ترجمة: أحمد المعتصم الشيخ، مقال غير منشور، ص 3.

(12) فاطمة أحمد علي، مقابلة شخصية بمنزلها، الحاج يوسف، الخرطوم، 2017/5/3م. (باحثة في التاريخ والتراث، دكتوراه في تاريخ السودان الحديث، نحو 60 عاماً).

(13) مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى: بحث في تاريخ السودان وحضارته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الخرطوم: دار المصورات للنشر، 2011م، ص 158.

(14) أحمد الياس، «موجز تاريخ وتراث المناطق المجاورة لأعالي النيل الأزرق قبل قيام مملكة الفونج»، مقال منشور على موقع سودانيل (Sudanile).

(15) هارولد ألفريد ماكمايكل، تاريخ العرب في السودان، مرجع سابق، ص-248 252.

(16) راجع: عوض شبّا، الدفار المملكة المنسيّة، ط1، الخرطوم، دار آرثيريا للنشر والتوزيع،2021م.

(17) J. Philips: The southern Dongola Reach survey, The first season (1988) Areview if the Ceramices and other finds. Nubian Studies. Boston 1998. pp. 371383-.

(18) راجع:فاطمةأحمدعليعمر،ملوكالجزرالسبعة(جزرالكاسنجر،الحامداب،أمري،المناصير)،الخرطوم2018م.

(19) عوض شبّا، الدناقلة والشايقية- خلفاء مملكة المقرة، الخرطوم، 2012م، ص71-72.

(20) راجع: جون لويس بوركهارت، رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان(1784-1817م)، ترجمة فؤاد أندرواس، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، (ب.ت).

(21) راجع: محمد علي طه الملك، مملكة أرقو- إمارة الحاكماب والجوابرة (1400-1817م)، الخرطوم، 2005م.

(22) راجع: جاي سبولدينق، عصر البطولة في سنار، ترجمة: أحمد المعتصم الشيخ، الخرطوم، 2011.

(23) و. نوكلز، الشايقية- وصف لقبائل الشايقية وتاريخ مديرية دنقلا من القرن الرابع عشر إلى القرن التاسع عشر، ترجمة: عبد المجيد عابدين، (ب.ن).

(24) (22) راجع: عوض شبّا، المرجع السابق.

(25) (23) https://share.google/XNgVs52gwh3XMN1zT

الزعيم كوامي نكروما
(من رموز النضال في إفريقيا)

د. عبد الله الزبير يوسف الزبير — أستاذ المُشارك- قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة بخت الرضا

د. نهلة أحمد عبد الباقي أحمد — أستاذ المُساعد - كلية التربية - قسم التاريخ - جامعة النيل الأزرق

المستخلص:

يهدف البحث إلى إجلاء بعض الحقائق التي غفل عنها الكثير من المؤرخين والباحثين عن دور كوامي نكروما في استقلال غانا – وتتمثل أهمية البحث في أنه يُقدم تجربة نضال لرمزٍ إفريقي استطاع أن يقود بلاده نحو الاستقلال بعد كفاح طويل ضد الاحتلال البريطاني ، فإذا تمت هذه الدراسة بعمق يمكن أن نأخذ منها الكثير من العبر والدروس في عصرنا هذا . استخدم الباحث منهج البحث التاريخي الوصفي التحليلي مُعتمداً على المصادر الأولية والثانوية وتوصلت الدراسة إلى أن كوامي نكروما لمع نجمه بغانا بعد الحرب العالمية الثانية 1945م نتيجة لكفاح سياسي عظيم نجح من خلاله الوصول ببلاده إلى الاستقلال عام1957م وكذلك أوصت الدراسة بإجراء المزيد من الدراسات حول الجهود التي بذلها نكروما في تكوين منظمة الوحدة الإفريقية ومساندته لحركات التحرر الإفريقية .

الكلمات المفتاحية: نكروما ، غانا ، حركة ، وطنية ، بريطانيا ، إفريقيا .

Kwame Nkrumah; The Leader
One of the Symbols of Struggle in African

Dr.Abdala Elzubeir Yousif

Dr.Nahla Ahmed Abdel-Baqi

Abstract:

Kwame Nkrumah and His Role in Ghana's Independence This research aims at clarifying some facts about the role of Kwame Nkrumah in Ghana's independence that many historians and researchers have missed . This research is very crucial because it presents a struggle experience for an African symbol who was able to lead his country towards independence after a long struggle against the British occupation. If this study finishes up successfully many lessons can be taken from it in our time. The researcher used the analytical descriptive historical

research method depending on primary and secondary sources. The study concluded that Kwame Nkrumah rose to prominence in Ghana after the Second World War in 1945 AD as a result of a great political struggle through which he helped his country to gain independence in 1957 AD. The study also recommended that more studies can be carried out on Nkrumah's efforts in founding the Organization of African Unity and his support for African liberation movements.

Key words: Nkrumah, Ghana, Movement, National. Britain, Africa

المُقدمـــة :

لا شك أنَ القارة السمراء تزخر بالعديد من الرموز والمناضلين الذين أفنوا زهرة عمرهم في مقاومة الاستعمار الأوربي ، فلم يأبهوا بالبطش والقهر وآلام السجون لا لشيء سوي أنهم يطالبون بالحرية والاستقلال لشعوبهم المستَرقة ، لذلك استطاع هؤلاء الرجال أن يصنعوا تاريخ بلادهم ، فسجلوا أسمائهم على صفحات من نور صارت تدرَس لأجيال المستقبل في قارتنا الإفريقية كمثال يحتذي لشحذ همم الوطنية ولأخذ العبرة والدروس – وأخص بالحديث هنا واحدٌ من أؤلئك الرموز الذين لمعت أسماؤهم في إفريقيا ودولة غانا بصورة خاصة وهو المناضل كوامي نكروما وتأتي هذه الدراسة إيماناً مني بدوره في استقلال غانا وتقديراً للجهود التي بذلها لوطنه ولقارته من أجل استرداد حقوق الغانيين والأفارقة في الحرية والاستقلال وتحريرهم من قبضة الاحتلال الأوربي الذي ضرب إفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي .

مشكلة البحث:

لا يزال هنالك الكثير من الغموض الذي يكتنف رموز وقيادات الحركة الوطنية في إفريقيا الذين تصدوا للاستعمار الأوربي وسجلوا مواقف لا يمكن لذاكرة التاريخ أن تنساها ، لذلك جاءت هذه الدراسة لفك طلاسم هذا الغموض ولأجل إبراز الحقائق التي يجهلها الكثير من الأفارقة عن رموز بلادهم مثل كوامي نكروما ، وخاصةً أن هذه الحقبة التاريخية بالذات كتبت بأقلام أوربية وهؤلاء في كثيرٍ من الأحيان يمجدون أنفسهم وإمبراطورياتهم الاستعمارية وذلك لأن أغلبهم كانوا عسكريين أو إداريين خدموا في إدارة هذه المستعمرات – لذلك الأمر يحتاج لجهدٍ من الأفارقة أنفسهم ليردوا على ذلك معتمدين على مصادرنا الإفريقية .

أهمية البحث:

تتمثل أهمية البحث في أنه يقدم دراسة مختصرة عن رمزٍ إفريقي يحمل اسمه الكثير في تاريخ بلاده بغانا وذلك من أجل توضيح الصورة الحقيقية وإبراز الحقائق التي يجهلها الكثير من الأفارقة عنه فإذا تمت الدراسة بعمق يمكن أن نأخذ منها الكثير من العبر والدروس في عصرنا هذا .

أهداف البحث:

إجلاء بعض الحقائق التي تقاضى عنها الكثير من المؤرخين والباحثين عن دور كوامي نكروما في استقلال غانا .

إبراز الجهود السياسية لنكروما في غانا وجهوده القومية على مستوي القارة الإفريقية .

الوقوف على حقيقة تجربة كفاح كوامي نكروما في غانا حتى وفاته .

منهجية البحث:

استخدم الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي مستخدماً (المنهج الاستقرائي) معتمداً على المصادر الأولية والثانوية .

أولاً: نشأته ومولده:

ولد كوامي نكروما في 21سبتمبر 1909م في بلدة نكرو في قبيلة (نوى) وطبقاً للعادات الإفريقية التي تقتضي أن يُطلق علي المولود اسم إلوم الذي ولد فيه لذا سمي (بكوامي) أي السبت وهو إلوم الذي ولد فيه و(نكرو) اسم القرية التي ولد فيها والتي تبعد حوإلى 220ميلاً عن العاصمة الغانية أكرا فسمي (بكوامي نكروما) فنشأ نكروما في أسرة بسيطة كادحة ، حيث كان والده يعمل حداداً وأمه تمارس التجارة مما ساعده أن ينشأ قوياً ، وهنالك بعض الروايات تقول أن والده كان يعمل في صياغة الذهب(حميدي،2002م)

أما تعليمه عُرف نكروما بذكائه الحاد منذ الصغر حيث درس وهو صبي بالمدارس الدينية بعد أن أصر والده أن يبعده عن مهنته ، فعمل علي توفير نفقات تعليمه بأي ثمن لذا ألحقه بمدارس الإرسإليات الكاثوليكية الرومانية في بلدة (هاف أسيني) Haif Assini فتخرج من دار المعلمين بأكرا عام 1930م ، ثم عمل مُعلماً في مدرسة أولية حتى عام 1934م ، وبما أن همه كان الاستزادة في العلم فقدم له أحد أعمامه معونة مإلية ، فذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية فالتحق بجامعة (لنكولن) في أكسفورد بولاية بنسلفانيا ، فاضطر للعمل في أحد المطاعم لتأمين مصاريف معيشته لمواصلة تعليمه ، فنجح في نيل درجة الماجستير ثم تحصل علي الدكتوراه إلا أنه كان يُعاني من الاضطهاد والتمييز العنصري فقد روي أنه مرة سأل أمريكياً في مدينة (بيلتمور) عن مكان تواجد الماء لكي يشرب منه ، فإذا بالأمريكي يدله علي أماكن شرب الحيوانات وهذه قمة العنصرية التي كانت سائدة في ذلك الوقت في جميع أنحاء العالم(بوعينة،1945م)

ثانياً: بداية العمل السياسي لكوامي نكروما:

رغم الاضطهاد والتمييز الذي كان يعاني منه نكروما في الولايات المتحدة ، إلا أن ذلك لم ينقص من إرادته بل تضاعف إصراره فقام بتكوين اتحاد الطلبة الأفارقة في أمريكا ثم انتخب رئيساً لمنظمة الأفارقة في أمريكا خاصةً أنه تأثر في ذلك الوقت بكتابات الزعيم (ماركس جارفي) صاحب كتاب بعنوان (العودة إلى إفريقيا) ثم سافر إلى لندن بعد الحرب العالمية الثانية 1945م حيث درس القانون والعلوم السياسية ثم انتخب نائباً لرئيس اتحاد طلبة غرب إفريقيا في أكتوبر من نفس العام ثم سكرتيراً وكذلك كان أحد أمناء المؤتمر الإفريقي الخامس المنعقد في مدينة (مانشستر)

بالمملكة المتحدة (لندن) كما عمل في تحرير صحيفة إفريقيا الجديدة The New African الصادرة باسم الأفارقة في بريطانيا(نكروما،2014م)

ثالثاً: كفاحه السياسي في غانا:

عاد كوامي نكروما للبلاد عام 1945م بدعوة من حزب مؤتمر (ساحل الذهب المتحدة) بعد أن تم انتخابه سكرتيراً عاماً للحزب ، فكان له الفضل في توسع قاعدة الحزب عن طريق فتح فروع له في أقاليم البلاد المُختلفة – وظهرت حنكة نكروما عندما شارك الحزب في الانتفاضة الشعبية التي حدثت يوم 28فبراير 1945م في مدينة أكرا ، بعد أن اتخذ الحزب قراراً بمقاطعة البضائع الأوربية حتى يتم تخفيض أسعارها وقيادته لمسيرات احتجاجية سلمية باتجاه قصر الحاكم العام ، فقامت الشرطة البريطانية بإطلاق النار على المتظاهرين فسقط 29 ضحية مما أدى إلى غليان شعبي عم العاصمة وبقية المدن الساحلية ، استغلها الحزب لشن حملات نقد واسعة لسياسة الحكومة البريطانية باتهامه لها بتجاهلها في حلَ المشكلات التي تُعاني منها البلاد ، فألقت السلطات البريطانية القبض على المئات من المتظاهرين وعلى رأسهم نكروما ، إلا أن السلطات اضطرت لإطلاق سراحهم في محاولة لامتصاص غضب الجماهير الغانية(جاسم،2007م)

هذا الوضع المُحتقن وبعد إطلاق سراح كوامي نكروما أدى إلى الدخول في مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الوطنية الغانية ، حيث قام نكروما بتطوير وسائل وأساليب عمل الحزب بتحويله من تجمع سياسي تقليدي إلى منظمة شعبية ذات تنظيمات منتشرة في أنحاء البلاد فاهتم الحزب بتثقيف العامة عن طريق إصدار المنشورات أو الصحف التي أخذت تعالج مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية بغانا وكانت مُشكلة فلاحي الكاكاو أول مشكلة يتصدى لمعالجتها(حميدي،2002م)

قامت بريطانيا بتشكيل لجنة بريطانية أطلق عليها اسم لجنة (واطس) وقامت بإرسالها إلى ساحل الذهب للتأكد من صدق المشاعر الشعبية وخطورتها على الوجود البريطاني ، فجاءت توصيتها بمنح البلاد الاستقلال حلاً للمشكلة وإنهاء الفوضى ، بزيادة عدد إشراك الأفارقة في الحكم والعمل على تطوير المجلس التشريعي داخل البلاد ، إلا أن بعض قادة الحزب اختلفوا مع كوامي نكروما بسبب اتهامهم له بالإنفراد في قيادة الجماهير بشكل مباشر فضلاً عن تحفظاته الشخصية علي نقاط وقضايا أخرى ، فقام مجلس الحزب بتقليص نشاطه السياسي فتمَ سحبه من وظيفة سكرتير عام إلى أمين الصندوق المإلى – لذا انفصل نكروما عن الحزب وقام بتشكيل حزب سياسي جديد انفرد بقيادته أطلق عليه اسم (حزب مؤتمر الشعب) عام 1949م Convention Peoples Party (حميدي،2002م) فضم حزب مؤتمر الشعب الكثير من العمال وصغار المزارعين والتجار ، وكان هدف هذا الحزب العمل بالوسائل الدستورية لرفع الظلم وإنهاء الاضطهاد والعمل على تحقيق الوحدة الوطنية ولتحقيق مبدأ الحكم الذاتي ، ثم زاد الاشتداد بالمطالبة بالإصلاح الدستوري ومعالجة الأوضاع المتردية ، فقامت بريطانيا بتإلف مجلسين تنفيذي والآخر تشريعي عام 1949م يُختار أعضاؤه بالانتخاب المباشر تخفيفاً لحدة الوضع ، إلا أن هذه الفكرة لم تجد التأييد من

قبل حزب الشعب – فلجأ نكروما عندها إلى ابتداع أسلوب عمل سياسي جديد وذلك بإتباعه سياسة (العمل الإيجابي) Positive Action وهي سياسة مشابه لفلسفة (غاندي) في الهند في شهر فبراير1951م ورفع شعاراً تحت اسم (أسلحة الأحزاب والمقاطعة لا تُقهر) فانتشرت الاضطرابات وأعلن حزبه العصيان المدني ومقاطعة البضائع البريطانية ، عندها أعلنت الحكومة حالة الطوارئ فاستخدمت القوة العسكرية والغاز المسَيل للدموع لتفريق التظاهرات وشن حملة واسعة من الاعتقالات طالت قيادات حزب مؤتمر الشعب وعلى رأسهم نكروما الذي حُكم عليه بالسجن لمدة عام ، ثم جاءت الحكومة بعد ذلك إلى إجراء تعديلات دستورية جديدة وذلك بإشراك الأفارقة في الحكم عن طريق الانتخاب مع الاحتفاظ بالسُلطة العليا للحاكم العام ، وحاولت الحكومة هنا أن تستبعد حزب كوامي نكروما عن الانتخابات وذلك بمنع جريدته عن الصدور واعتقال قيادته مرة أخرى مع عدد من أعضاء حزبه البارزين – إلا أن الشعب الغاني التف حول نكروما وحزبه فازدادت شعبيته علي عكس ما توقعته السلطة الحاكمة ، فاضطرت لإطلاق سراحه لخوض المعركة الانتخابية لأول مرة في تاريخ بلاده ، وبالفعل فاز حزبه بـــ 34 مقعداً من مجموعة مقاعد المجلس التشريعي فبراير 1951م ، فدخل البرلمان في 5 مارس رئيساً للمجلس التنفيذي (رئيس مجلس الوزراء) بأغلبية 45 صوتاً ، فاستثمر نكروما منصبه في الوصول ببلاده إلى الحكم الذاتي في16أكتوبر 1952م(نكروما،2013م)

رابعاً: الاستقلال :

على الرغم مما حققه نكروما سياسياً في بلاده كان يعتقد بأنه أقل من الطموح وذلك لأن البريطانيون لا زالوا يُهيمنون على قضايا الدفاع والخارجية والقضاء والمالية ، وهنا برزت مُشكلة إدارة البلاد التي لا زالت في أيدي البريطانيين ويؤيدهم الزعماء القبليون ، لذا ظهر الانقسام الواضح بين صفوف الحركة الوطنية الغانية في هذه المرحلة ما بين المُحدثين السياسيين والطبقة التقليدية ، إلا أن حكمة نكروما ودهاءه السياسي كانا عاملين أساسين لمسك العصا من وسطها ، خاصةً بعد ظهور أحزاب معارضة ممثلة للزعماء المحليين مثل حزب (حركة التحرر الوطني) في الأشانتي وحزب الشعب الشمإلى(جاسم،2007م) وهؤلاء يهدفون إلى إنشاء نظام فدرإلى داخل البلاد ، إلا أن حزب نكروما قد حصل على 7./. من مقاعد الانتخابات التي أجريت في يوليو 1956م وهي عبارة عن 72 مقعداً من مجموعة 154مقعداً ، فعقد البرلمان جلسته الأولي في 3 أغسطس فقرر استقلال البلاد ضمن إطار دول الكومنولث البريطاني ثم أخذت البلاد اسم غانا بدلاً من ساحل الذهب – فوافقت بريطانيا مضطرة ، فأعلن استقلال غانا بتاريخ 6 مارس 1957م ووافقت بريطانيا في الوقت ذاته على قبول غانا عضواً في منظمة الكومنولث البريطانية ، فكان ميلاد أول دولة إفريقية جنوب الصحراء وأنتخب كوامي نكروما أول رئيس للجمهورية الغانية والذي أعلن النظام الجمهوري ثم أعد دستوراً جديداً لحكم البلاد ، وخلال فترة حكمه أصبحت مدينة أكرا عاصمة للبلاد ومركزاً من مراكز التحرر الوطني في إفريقيا جنباً إلى جنب مع القاهرة(حمدي،1994م)

لا شك أن المناضل كوامي نكروما أدي دوراً مهماً في استقلال بلاده من نير الاستعمار البغيض بعد أن وهب نفسه لخدمة شعبه ، فلم يبهاب السجون وممارسات الاحتلال من بطش

وقهر واضطهاد حتى أصبح أسطورة ومثال يحتذى في تاريخ غانا ... فضلاً عن ذلك كانت له جهود مقدرة في تكوين منظمة الوحدة الإفريقية من أجل العمل على مكافحة الاستعمار ومساندة حركات التحرر في البلاد الإفريقية وتحقيق الوحدة الإفريقية وذلك من خلال إنشاء اتحاد يضم الدول الإفريقية المستقلة(إلهام،1964م)

خامساً: مؤلفاته وشهاداته :

كتابه (إفريقيا يجب أن تتحد)

إني أتحدث عن الحرية والذي أهداه لروح المناضل الكنغولي باتريس لومبا .

كتاب الاستعمار الجديد الذي نشرته مجلة الأهرام المصرية عام 1966م .

كتاب الوعي بالذات .

تبني نكروما كذلك إصدار الموسوعة الإفريقية وذلك لأجل إعادة كتابة تاريخ إفريقيا Engel .Clupeid African(الجمل وعبدالرازق،2002م)

الجوائز والشهادات التقديرية :

حصوله على قلادة الجمهورية من جمهورية مصر العربية .

حصوله على الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة .

منحه الميدالية الذهبية في مؤتمر القمة الإفريقية ضمن إجراءات تخليد ذكرى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية(قنصوي،2008م)

سادساً: وفاته :

توفي نكروما 27مارس 1972م برومانيا متأثراً بمرض السرطان ولم يطلب شيء سوي أن يدفن في إفريقيا بعد أن عاش 63عاماً على أرضها مكافحاً(نكروما،2013م) وتشير بعض الروايات أنه مات مسموماً من قبل المخابرات الأمريكية ، حيث تدهورت حالته الصحية بالتدرج ، فبدأ معه العلاج طبيب روسي وقد نجح سيكتوري الزعيم الغيني وعدد من أصدقائه الأفارقة إقناعه بالسفر للعلاج بالخارج ولكنه لم يكن متحمساً ، وبعد وفاته نقل جثمانه إلى إفريقيا فدفن بغينيا ثم أعيد دفنه في غانا وشيع في موكب مهيب نكست فيه الأعلام من جميع البلدان الإفريقية ، وحضر تشييعه العديد من رؤساء الدول ووفود من 25 دولة من العالم ثم دوت مكبرات الصوت بتسجيلات من أقواله عن الحرية والوحدة الإفريقية(بكر،2004م)

هذا هو الزعيم الإفريقي كوامي نكروما ولد مكافحاً عملاقاً في غرب إفريقيا ، وبعد موته أصبح نبراساً يُهتدى في بلاده ورمزاً إفريقياً قومياً للقارة السمراء ، تردد شعاراته وأقواله دائماً عندما يكون الحديث عن الحرية والاستقلال في القارة السمراء(دوس وفؤاد2002م)

الخاتمة :

خلصت الدراسة إلى أن كوامي نكروما يُعد واحداً من أبرز رموز الحركة الوطنية والتحرر الإفريقي في القرن العشرين ، إذ ارتبط اسمه بالكفاح السياسي ضد الاستعمار البريطاني في غانا وبالدعوة إلى الوحدة الإفريقية وقد أظهرت الدراسة أن نكروما استطاع بوعيه السياسي وتنظيمه

الجماهيري أن يُحول الحركة الوطنية الغانية من نشاط محدود إلى مشروع تحرري واسع قاد البلاد نحو الاستقلال – كما كشفت الدراسة عن الدور الكبير الذي لعبه في تعبئة الجماهير متبني وسائل نضالية سلمية أسهمت في ترسيخ فكرة المُقاومة السياسية داخل المجتمع الغاني . كذلك بينت الدراسة أن جهوده لم تقتصر على الإطار المحلي ، بل امتدت إلى دعم قضايا التحرر الإفريقي والسعي إلى تعزيز التضامن بين الشعوب الإفريقية . وأسهمت كتاباته ومواقفه الفكرية في تكوين وعي قومي إفريقي رافض للهيمنة الاستعمارية بأشكالها المختلفة . ومن خلال تتبع مسيرته السياسية يتضح أن نكروما مثل نموذج للقائد الإفريقي الذي جمع بين الفكر والممارسة السياسية ، وظل مؤمناً بحق الشعوب الإفريقية في الحرية والوحدة حتى وفاته ، الأمر الذي جعله يحتفظ بمكانة بارزة في الذاكرة التاريخية والسياسية للقارة الإفريقية .

النتائج:

- تخرج كوامي نكروما في دار المعلمين بأكرا عام 0391م وعمل معلماً حتى عام 4391م .
- بدأ كوامي نكروما عمله السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية بتكوينه لاتحاد الطلبة الأفارقة ، ثم انتخابه رئيساً لمنظمة الأفارقة بأمريكا .
- قاد كوامي نكروما أول تظاهرة شعبية سلمية ضد الاحتلال البريطاني بغانا عام 5491م، مطالباً بتخفيض أسعار البضائع الأوربية .
- انفصل كوامي نكروما عن حزب ساحل الذهب وكون حزبه الجديد الذي سماه بحزب (مؤتمر الشعب) عام 9491م .
- في عام 1591م ابتدع نكروما أسلوب عمل سياسي جديد سماه (بسياسة العمل الايجابي) رافعاً شعار (أسلحة الأحزاب والمقاطعة لا تقهر)
- بعد خروج نكروما من السجن خاض حزبه الانتخابات في فبراير 1591م والتي فاز فيها فأصبح رئيساً لمجلس الوزراء ثم وصل بغانا للحكم الذاتي في أكتوبر 2591م .
- في انتخابات يوليو في غانا 6591م والتي فاز فيها أيضاً كوامي نكروما ثم أعلن برلمانه إعلان استقلال غانا داخل دول الكومنولث البريطاني في 6 مارس 7591م ، وبالتإلى أصبح نكروما أول رئيس لدولة غانا بعد الاحتلال .
- كان لكوامي نكروما جهوداً مقدرة في تكوين منظمة الوحدة الإفريقية من أجل العمل علي تحقيق الوحدة الإفريقية ومساندة حركات التحرر في البلدان الإفريقية .
- لكوامي نكروما العديد من المؤلفات والكتابات التي تكشف مساوئ الاستعمار وتتحدث عن الحرية والوحدة للأفارقة – كما أنه حصل على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية .

التوصيات:

أوصي بعقد العديد من المنتديات والسمنارات التي تقيم جهود المناضلين الأفارقة في استقلال بلدانهم أمثال كوامي نكروما وجومو كينياتا وباتريس لومبا وغيرهم لأخذ العبر والدروس من تجاربهم السياسية وأدوارهم الوطنية .

إجراء المزيد من الدراسات حول الجهود التي بذلها كوامي نكروما في تكوين منظمة الوحدة الإفريقية ومساندته لحركات التحرر في البلدان الإفريقية.

المصادر والمراجع :

(1) حميدي، جعفر عباس(2002). تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار
(2) الفكر للطباعة والنشر، عمان،ص128.
(3) بوعينة، سلمى(1945م). مملكة غانا من الاستعمار الأوربي إلى التحرر النكرومي(1874-1957م). ط5، مكتبة مانا للنشر، غانا، ص(20ـــــــــــــــ27)
(4) نكروما، كوامي(2014م). مجلة دراسات إفريقية، العدد الثاني، ص4.
(5) جاسم، ظاهر محمد(2007م). التاريخ المعاصر للدول الإفريقية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ص59.
(6) حميدي، جعفر عباس(2002). تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار
(7) الفكر للطباعة والنشر، عمان،ص129.
(8) نكروما، كوامي(20013م). مجلة إفريقيا قارتنا، العدد الثاني، ص9.
(9) حمدي، الطاهر(1994م). إفريقيا من الاستعمار إلى الاستقلال، ج1،ط5، مكتبة الآداب، ميدان الإبرة، القاهرة، ص139.
(10) إلهام، محمد علي(1964م). بحوث ودراسات وثائقية في تاريخ إفريقيا الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص119.
(11) بكر، محمد إبراهيم(2004م). أخطر عشرة قادة في العالم، مركز الراية للنشر والإعلام، ص208م.
(12) دوس وفؤاد(2002م). جذور الثورة الإفريقية، الهيئة العامة للتإليف والترجمة والنشر، ص95.
(13) الجمل وعبدالله عبدالرازق(2002م). تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار الزهراء للنشر والتوزيع/الرياض، ص433.
(14) قنصوي، حسن صبحي(2008م). فكرة الوحدة الإفريقية بين اختلاف الرؤى الفكرية والمؤلفات العلمية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ص6.
(15) نكروما ، كوامي نكروما(1963م) الاستعمار الجديد ، دار النشر/بيروت ، ص22.
(16) نكروما ، كوامي نكروما (1964م) الضميرانية (فلسفة وأيدولوجية) من أجل تحري إفريقيا دار النشر/بيروت ، ص222.
(17) أنيس ، محمد عمر(1998م) إفريقيا في العصر الحديث مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة ، ص76.
(18) حسن ، أحمد محمد(2005م) حركات التحرر الوطني في إفريقيا ، دار النهضة العربية/القاهرة ، ص113.

الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء
(ملامح عن مملكة وداي الاسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي)

د. حنان عبدالرحمن عبدالله التجاني

أستاذ التاريخ الاسلامي المشارك -قسم التاريخ
كلية التربية – جامعة نيالا

مستخلص :

هدفت الدراسة الى التعرف على مملكة وداي الإسلامية في السودان الأوسط، وهي دولة تشاد (حالياً)، أو منطقة حوض بحيرة تشاد، أما عن أهمية الدراسة فإنها تكمن في المحاولة لاكتشاف الغموض الذي يتعلق بمجتمع وداي في القطر التشادي، وتسليط الضوء عليه لابراز بعض جوانبه التاريخية والحضارية، من خلال حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والقضائية.منهجية الدارسة: اتبعت الدراسة منهج السرد التاريخي الوصفي المستند على المصادر والمراجع الاصيلة ، فاستطاعت الدراسة الوصول لبعض النتائج والتوصيات مثل مساهمة القبائل في انشاء الممالك والسلطانات والمشيخات الإسلامية في منطقة السودان الأوسط، والتي اسهمت في نشر الثقافة العربية الإسلامية، كما ادخلت اللغة العربية إلى دواوينها ونظم حكمها ومعاملاتها.فتبلورت الثقافة العربية الإسلامية وتم الحفاظ عليها من خلال المؤسسات التربوية الإسلامية المتمثلة في المساجد والخلاوي القرآنية التي قامت بدور فعال في الحفاظ عليها . أوصت الدراسة بإجراء المزيد من البحوث والدراسات لإكمال الجوانب الناقصة في تاريخ الممالك في السودان الأوسط. وعلى الجهة المعنية (الدولة) أن تقف بجانب الباحثين ومساعدتهم وتهيئة الظروف المناسبة لهم في مجال البحث العلمي. احتوت الدراسة على مبحثين المبحث الاول نشأة وتأسيس مملكة وداي أما المبحث الثاني فهو الحضارة ونظم الحكم في سلطنة وداي ، شملت الدراسة المحورين الزماني والمكاني (الزمان القرن التاسع عشر الميلادي أما المكاني مملكة وداي بتشاد) خلصت الدراسة الى أن الممالك التي قامت حول بحيرة تشاد كانت ممالك إسلامية لأن الإسلام دخل إليها عبر الفاتحين الأوائل.

الكلمات المفتاحية: أفريقيا جنوب الصحراء، وداي، السودان الأوسط،

Islamic kingdoms in Sub-Saharan Africa
(Features of the Islamic Wadai kingdom 19th century CE)

Dr. Hanan Abdoalrahaman Abdullah Altijani

Abstract:

This study aimed to explore the Islamic Wadai Kingdom in Central Sudan, encompassing present-day Chad, or the Lake Chad Basin region. Its significance lies in its attempt to unravel the mysteries surrounding

Wadai society within Chad, shedding light on its historical and cultural aspects through its social, economic, cultural, and legal systems. Methodology: The study employed a descriptive historical approach, relying on primary sources and references. This approach enabled the study to arrive at several conclusions and recommendations, including the contribution of tribes to the establishment of Islamic kingdoms, sultanates, and sheikhdoms in Central Sudan. These entities played a vital role in disseminating Arab-Islamic culture, integrating the Arabic language into their administrative systems, governance structures, and transactions. This led to the development and preservation of Arab-Islamic culture through Islamic educational institutions such as mosques and Quranic schools, which were instrumental in its preservation. The study recommended further research and studies to complete the missing aspects in the history of the kingdoms in central Sudan, and that the concerned party (the state) should stand by the researchers, help them, and creates suitable conditions for them in the field of scientific research. The study contained two axes: the first axis was the emergence and establishment of the Wadai Kingdom, and the second axis was the civilization and systems of government in the Wadai Sultanate. The study included the two temporal and spatial axes (temporal: the nineteenth century AD, and spatial: the Wadai Kingdom in Chad). The study concluded that the kingdoms that were established around Lake Chad were Islamic kingdoms, and that they were entered by the early conquerors.

Keywords: Sub-Saharan, Wadai, Central Sudan

مقدمة:

تشكل منطقة إفريقيا جنوب الصحراء إحدى المحطات الحضارية المهمة في تاريخ القارة الافريقية ، فقد شهدت قيام ممالك مزدهرة حضاريا وقوية اقتصاديا ومتفتحة خارجياً على الأقطار الواقعة جنوب الصحراء نظراً لموقعها الذي هيأ لها أن تكون حلقة للتواصل الحضاري .

نشأت ببحيرة تشاد العديد من الحواضر والمراكز الثقافية و التجارية ، التي كان لها دوراً مهماً في الجانب الاقتصادي بالمنطقة ، وربطت فيما بينها ببقية الحواضر الأخرى ببلاد افريقيا جنوب الصحراء والسودان الأوسط والغربي والعالم الإسلامي، ومن بين هذه الحواضر والمراكز

التجارية مدينة وداي ، والتي تعتبر إحدى أهم مراكز الثقافة و التجارة ، فقد كانت منطقة حيوية يتم فيها تبادل البضائع والسلع التجارية.

دوافع اختيار الموضوع :

1ــ التعرف علي مملكة وداي الاسلامية .

2ــ الوقوف علي احوال المملكة من كافة النواحي (اجتماعيا ، ثقافيا ، اقتصاديا وقضائيا)

3 ــ ندرة البحوث والدراسات التي تناولت هذا الموضوع .

أهـــداف الـدراســـة

1ــ تسليط الضوء على مجتمع مملكة وداي وإبراز بعض الجوانب التاريخية والحضارية في حياتهم اجتماعياً، واقتصادياً، وثقافياً،

2ــ جمع المعلومات والوصول إلى دراسة موضوعية.موثقة

3 ــ تتبع المراحل التاريخية التي مرت بها تلك المملكة .

أهمية الدراسة:

تكمن الأهمية في سد الثغرات المعرفية وذلك من خلال دراسة تاريخ وحضارة هذه المملكة عبر معرفة أحوالها ونشأتها وتقدمها وتطورها،

منهجية الدراسة :

اتبعت الدراسة منهج السرد التاريخي الوصفي المستند إلى المصادر والمراجع لجمع المادة العلمية .

حـــدود الدراسة:

السودان الأوسط (الحدود السياسية لدولة تشاد الحديثة).أما الحدود الزمانية القرن التاسع عشر الميلادي .

المبحث الأول: نشأة وتأسيس مملكة وداي الاسلامية:

نشأت سلطنة وداي في الجزء الشرقي من بحيرة تشاد، واتفقت جميع الروايات على أن الشيخ عبد الكريم بن جامع هو مؤسس مملكة وداي على انقاض مملكة التنجر، أما عن تاريخ تأسيس السلطنة فهناك ثلاث روايات: الأولى تشير إلى أن السلطنة تم تأسيسها عام 1615م، بينما تذكر الثانية عام 1635م، مع بداية تأسيس العاصمة وارا، وتشيرالرواية الثالثة وهي الارجح إلى أن السلطنة تم تأسيسها في عام 1611م.([1])

كانت السلطنة مشيدة بطريقة معمارية رائعة، وتحيط بها منازل ومساكن اعوان السلطان و أنصاره ورفاقه من العلماء والوزراء والقادة، كما قام السلطان ببناء المسجد الذي اعتبر المنارة الإسلامية التي تشع منها نور الإسلام.([2])

تقع مملكة وداي في غرب سلطنة دارفور التي تعتبر في الوقت الحاضر إحدى أقاليم جمهورية السودان الشرقي أو سودان وادي النيل، وذلك بعد سقوط سلطنتها في عام 1335هـ/1916م، وتحدها من الغرب والجنوب الغربي لكانم، باقرمي، ومن الجنوب الشرقي دار رُنقة*، وقد اكتسبت

بفضل موقعها الإقليمي مركزا ممتازا جعل منها سلطنة مستقلة غير تابعة لسيطرة كانم أو باقرمي، لذا كانت هذه السلطنة واحدة من سلسلة الولايات التي امتدت من الشرق إلى الغرب على طول طريق السافانا الذي كان وما زال الطريق الوحيد للمسافرين بين مختلف الأقطار.

قدمت جماعات وافدة من الشمال الافريقي الى هذا الجزء فكان لهم كبير الأثر في تطوير نظم الحكم في المملكة ، كما قدمت جماعات أخرى من حوض وداي النيل، ومن منطقة البحيرات، فكانت العلاقة بين منطقة حوض بحيرة تشاد ومنطقة البحيرات أكثر قوة بسبب النشاط التجاري على طريق ساحل برالزنج، وإلى إقليم تشاد، ومنها إلى مختلف الممالك في شمال شرقي وشمال إفريقيا، ومنها إلى القارة الأوروبية بصفة عامة والأندلس بصفة خاصة.[3]

إمتدت مملكة وداي الى جنوب جبال تبستي و إلى الشرق من باقرمي، وقد دخلها الإسلام في فترة متأخرة مع زحف قبائل الزغاوة التي انتشرت في جنوب هذه المنطقة، بجانب مزيج من القبائل المتعددة، وقد اقتحم التُنجر مناطق وداي في مطلع القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي فأقاموا سلطانا بها.[4]

اختلف مدلول لفظ وداي، على أنها مشتقة من عبارة (الناس الوداي) أي جباة الضرائب الذين كانوا يحملون الأموال ويؤدونها إلى بيت المال، أو أنها اشتقت من الوضوء (أي الناس الوضاي) إشارة إلى المسلمين الأوائل الذين سكنوا الإقليم وكانوا يكثرون الوضوء لإقامة الصلاة ، أو أنها اشتقت من سلسلة جبال وداي التي تمتد بين دارفور وإقليم وداي ، فكانت تسمى ايضا دار صليح نسبة إلى صالح بن جامع مؤسس الأسرة العباسية الحاكمة في وداي .[5]

يبدأ تاريخ مملكة وداي الحديث من عام 1024هـ/1615م، حسبما ورد في بعض المصادر التاريخية أنها أنشئت في حوالي القرن الثالث الهجري العاشر الميلادي ، فقد استولى التنجر على بلاد الزوغاوة والمابا وأسسوا مملكة واسعة الإرجاء، كانت عاصمتها (كتم) وبسطت نفوذها على دارفور ، وفي عام 1024 – 1066هـ/1615 – 1655م ، استطاع الفقيه عبد الكريم بن جامع أن يستولى على السلطة بمساعدة قبائل (كدوي ، ومبا، ومالانقة) ومجموعة من الأنصار.

استمر النظام السياسي الذي أسسه عبد الكريم جامع حتى احتلت القوات الفرنسية مدينة "أبشة " عاصمة المملكة الحديثة التي كانت تدفع الجزية إلى سلطان دارفور، ولكن منذ بداية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) رفض السلطان يعقوب إدريس دفعها مما جعل سلطان دارفور يشن على مملكة وداي ويخلع سلطانها آدم و يجلس على العرش السلطان محمد شريف .[6]

بقيت مملكة وداي على الوثنية فترة طويلة من الزمن، وتأخر وصول الإسلام إليها بسبب وعورة المنطقة وبعدها، فاستطاعت المجموعات الوثنية الحاكمة الاعتصام فيها حتى دخلها الإسلام ، ورغم الإسهامات التي بذلتها الممالك الإسلامية في نشر الدعوة والحفاظ عليها، والوقوف في وجه الغزو العسكري الفرنسي إلا أنها لم تستطع الصمود أمامه ، لأسباب :

1ـ قوة العدو الفرنسي في عدده وعتاده التي لا مجال للمقارنة بينها .

2 ـــ ضعف الممالك الإسلامية الثلاث بسبب تفككها نتيجة للحروب والصراعات القائمة بينها.

3ـ استنجاد بعض الملوك بالقوات الفرنسية وإبرام اتفاقيات حماية معها، مما أتاح الفرصة لهذه الممالك أن تسهم بشكل فعال في نشر الدعوة الإسلامية في المنطقة، فاستطاعت الوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي لاحقاً أثناء احتلاله لمنطقة تشاد، وإن كانت الصراعات الداخلية بين الممالك هي التي أتاحت الفرص الثمينة لفرنسا لاحتلال تشاد.[7]

هناك رواية أخرى تقول : أن تاريخ إنشاء هذه المملكة ترجع إلى عام 1020هـ/1611م، ولكن عند المحاولة للجمع بين هذه التواريخ المتعارضة قد تكون التواريخ المبكرة هي تواريخ بداية وصول جامع والد عبد الكريم أو وصول أسرته التي قدمت من شندي (بالسودان الشرقي)، أوتعود إلى عودة عبد الكريم إلى المنطقة بعد أن غادرها لتلقي العلم والتزود بالمعرفة في الحجاز.[8]

اختلفت المصادر التاريخية في قيام هذه المملكة وتضاربت الروايات المكتوبة والشفهية المروية حول ضبط تاريخ تأسيسها ، وتحديده تحديدا دقيقا بحيث يكون التاريخ متفق عليه من قبل جمهور الباحثين في شؤون تاريخ وحضارة هذه المملكة العريقة التي تعد على رأس الممالك الإسلامية التي عملت على رفع راية الإسلام وترسيخ دعائم اللغة العربية وتمكين وتوطين الثقافة الإسلامية ونشرها في منطقة السودان الأوسط، تحدث في تأسيس هذه المملكة الكثير من الكتاب والرحالة والمؤرخين ، مواطنين وأجانب، مسلمين وغيرهم من المستطلعين الذين حاولوا أو حاول كل منهم ما بوسعه لضبط تاريخ قيام هذه المملكة الإسلامية العظيمة.[9]

على رأس المؤرخين الذين أرخوا لهذه المنطقة الرحالة الكبير الشيخ محمد بن عمر التونسي ت (1274هـ ـ 1857م) الذي يعتبر المؤرخ الأول لهذه المملكة ، وهو في الوقت نفسه يعد من المتخصصين في الشئون الاجتماعية والدينية والسياسية لسكان هذه المنطقة فها هو يؤكد بأن مملكة وداي الإسلامية تأسست فعلا عام(1020هـ/1611م) كما جاء في كتابه الأول الخاص بدارفور "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان".[10]

وتعتبر مملكة وداي آخر مملكة حافظت على الحضارة الإسلامية وأسهمت في انتشارها فيما يعرف بمنطقة وسط إفريقيا، وذلك بفضل الله عز وجل، ثم بجهود علمائها وسلاطينها الذين قدموا الغالي والنفيس في سبيل نشر هذا الدين واللغة العربية ، حيث كانت الشريعة الإسلامية هي المصدر الأول والوحيد للتشريع، واللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد كما كان في مملكتي كانم وباقرمي ، وعنداحتلالها من قبل الفرنسيين كانت الطامة الكبرى ليس بفقد الديار فحسب ، ولكن أيضا بإزاحة الشريعة واللغة العربية وإحلال القوانين الوضعية واللغة الفرنسية محلها.[11]

اثناء ذلك كانت دولة برنو تحت إمرة حكام مسلمين منذ عدة قرون تنعم بالازدهار والاستقرار .[12]

نشأت سلطنة وداي الإسلامية العباسية على قواعد أساسها القيم الروحية والغايات الأخلاقية العليا التي تقوم على الكمال الروحي والعاطفي، والتي فرضت نفسها على الإنسان بتحقيق الاندماج وتعزيز الشعور الجماعي وخلق روح الإبداع وترقية الحياة .[13]

عمل الشيخ عبد الكريم بن جامع مستشارا في بلاط ملك التنجر (داود المرين) وقائد جيش المملكة، وكانت المملكة تعاني في ذلك الوقت من الضعف والانحلال والفتن والصراعات السياسية بين الأمراء من أفراد الأسرة الحاكمة، فتمكن عبد الكريم من خلع السلطان والاستيلاء على السلطنة وتنصيب نفسه سلطانا عليها.[14]

تشير بعض الروايات أن هناك ممالك من قبل في منطقة وداي الحالية ، قبل التنجر، وهناك تسعة من الملوك من قبل التنجر فكان الحكم عند قبيلة المابا ثم أزاحهم فرع منها يقال له أبو شارب . من هنا يبدأ تاريخ سلطنة وداي الحديث عام(1640 – 1911م،) فامتدت السلطنة ووصلت الى قمة مجدها حيث جبال الأندي شمالا ودار كوتى جنوبا وبحيرة فتري غربا ، وكان نظام الحكم فيها لامركزي إذ انقسمت البلاد إلى مقاطعات يشرف على كل منها نائب السلطان يعرف بالعقيد الذي يتمتع بقدر واسع من النفوذ، وبذلك قامت مملكة وداي على أنقاض دولة التنجر الإسلامية على يد عبد الكريم بن جامع الذي اشتهر بلقب (مجدد الإسلام).[15]

تعاقبت عدة جماعات في حكم هذه المملكة قبل مجيء الفقيه عبد الكريم بن جامع سنة 102هـ/1615م من الجماعات التي حكمت هذه المنطقة الهلاليين ، وتلاهم العمالقة ، يقال أنهم هلكوا بمرض الطاعون ، ثم تلاهم الزغاوة، والمراريت، والسينار، والكوكا، ثم تلاهم التنجر، إلى أن انتزع حكمهم من قبل عبد الكريم بن جامع حتى اليوم يتوارثونه أبا عن أجداد.[16]

عاش السكان في منطقة دار وداي منذ قديم الزمان بوحدة وترابط تجمعهم الأرض التي يعيشون عليها دون أن يعكر صفو حياتهم طارف أو تليد ، ثم تعاقبت الممالك في حكم هذه الأرض ، المملكة تلو الأخرى إلى أن جاء عبد الكريم بن جامع حاملا لواء الإسلام ليوحد جميع السكان تحت لوائه مؤسسا بذلك مملكة امتزجت فيها الدماء العربية بالدماء الإفريقية مكونة تشكيلة اجتماعية رائعة .[17]

دخول الإسلام في مملكة وداي:

قامت ثلاث ممالك إسلامية في المنطقة، اعتنق ملوكها الإسلام وتبنوا عملية نشره، ودعوا الناس إليه منذ وقت مبكر؛ مما أدى في انتشار الثقافة الإسلامية بشكل واسع في جميع أرجاء البلاد.

ارتبط نشاط الدعوة الإسلامية في تشاد بجهود الجماعات الإسلامية ، أو الأفراد العاملين في حقل الدعوة .[18]

كما اسهمت مملكة وداي اسهاما كبيرا في نشر الإسلام كجارتيها كانم برنو وباقرمي ، فتطورت اللغة العربية والثقافة الإسلامية في حوض البحيرة، وذلك يعود لعدة عوامل إمتازت بها عن غيرها من المواقع مثل موقعها المتاخم للسودان ومصر وليبيا ، وأن الحكام فيها كانوا من المسلمين يستخدمون اللغة العربية في دواوينهم الرسمية و يطبقون الشريعة الإسلامية في محاكمهم المحلية .[19]

تسرب الإسلام على مر الزمن بين مختلف القبائل وشتى الأجناس خاصة بين الوثنيين في إفريقيا وعلى طول الساحل الغربي والساحل الشرقي، ويرجع ذلك إلى عاملين أساسين: العامل الأول

طبيعة الشعوب التي قامت بنشر الإسلام، فكانت شعوب بدوية رعوية أو شبه رعوية ، ولم تكن لها خبرة بركوب البحر أول الأمر،بل كانت تمتطى ظهور الإبل والخيل ولا يستطيع أهلها السير إلا في السهول المكشوفة.

العامل الثاني : طبيعة الأرض التي انتشر فيها الإسلام وتسريت إليها مجموع البدو ،فوكانت هذه البلاد الإسلامية تحيط بالصحراء الكبرى شمالا في المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية في المحيط الأطلسي وجنوبا عبر وداي النيل حتى حدود النوبة ، ومن مصب نهر السنغال حتى السودان الشرقي علاوة على أن الإسلام لم يستطع أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى كشلالات النيل ، وهضبة الحبشة ، ومنطقة البحيرات الكبرى وما يكتنفها من أدغال وغابات.[20]

المبحث الثاني: (الاحوال الاجتماعية ، الثقافية ، السياسية ، والقضائية):

أ ـ النظام الاجتماعي

ب ــ النظام الثقافي

ج ــ النظام السياسي

د ـ النظام القضائي

أ ــ النظام الاجتماعي:

كان المجتمع في وداي ينقسم إلى أربع فئات عمرية ، تشكل الفئة الأولى مجموعة أفراد معترف بها في المجتمع وعليها واجبات ومسؤوليات وهي تشمل فئة كبار السن ممن يبلغ الخمسين وما فوق وهم (الجماعة) لها شكلها الخاص في المملكة يجلسون في ناد لهم منذ الصباح حتى الغروب يناقشون ما تحتاج إليها المجموعة، ويعملون لإصلاح المجتمع من صلح وارشاد لفض النزاعات وغيرها من الأمور الاجتماعية المهمة وتعتبر هذه الفئة السلطة الشعبية في المنطقة.

هناك فئة أخرى هم البالغين من العمر ما بين (25 – 49) ويعرفون بالصبيان أو الفرافير في اصطلاح أهل المنطقة ومهمتهم تنحصر في القيام بالأعمال الجماعية وتوفير الحماية اللازمة للمنطقة أو القرى، وتتم عمليات التجنيد منهم إذا طلبت السلطة اعداد العسكر .

فئة ثالثة وهم الشباب الذين يتراوح أعمارهم ما بين (18 – 24) سنة يجلسون مع صغار السن في العادة ويقومون بتوجيههم إذا استدعى الأمر ذلك ، ويقدمون لهم النصائح ويساعد الكبار منهم الصغار في المهمات الجماعية. والفئة الأخيرة: وهي في سن ما بين (6 – 17) سنة ودورها ليس محدداً، فقط يشاركون في عملية الرعي والزراعة والالتقاط وجمع الحطب ويقومون بخدمة الكبار منهم عمراً. ولكل فئة من هذه الفئات رئيسها، كما كان للنساء تنظيمات مماثلة من كل فئة ولها أيضا رئيستها تقوم باتصالات بينهن وبين الذكور عند ما يتطلب الأمر القيام بأعمال جماعية.[21]

جاء الإسلام ووجد هذا التنظيم سائداً في وسط المجموعات في دار وداي، بما أن المجتمع المحلي كان مرنا فلم ير الدين الجديد ما يتعارض مع استمرار هذا التنظيم، بل اكتشف أن تعاليم الإسلام يؤمن على الجماعة في أداء الشعائر وفي السلوك الاجتماعي بشكل عام. وأكثر من ذلك رأت الجماعة أن مؤسسها يمكن أن يقوم بالإشراف على نشر الدعوة ومراقبة تنفيذ العبادات، الأمر الذي

يمكن أن يحمسها ويوسع من دائرة مسؤوليتها ويمنحها قوة دافعة فوق قوتها ، ظل هذا النظام الاجتماعي قائماً حتى الآن في وسط المجتمعات في دارودای[22].

استند البناء الاجتماعي في إفريقيا فترة العصور الوسطى على النظام القبلي، لكن عندما ظهرت حكومة مركزية قوية تلاشى التناحر بين القبائل الى حد ما ، كما أن الإسلام وتعاليمه كان أكبر عامل في إضعاف العصبية القبلية وإن لم تمحها بصورة كاملة ، لكن بفضل الإسلام والثقافة العربية الإسلامية اتصل الأفارقة بأرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة وهي الحضارة الإسلامية[23]

الملاحظ أن العرب المسلمون نقلوا معهم مظاهر حضاراتهم إلى ساحل إفريقيا فنقلوا فن النقوش والنحت وأدخلوا معهم الأصول الرئيسية لفنهم كعقود البناء العالية الجميلة ، كذلك نظام البناء بالحجارة واستعمال الأسمنت والرمل والخشب وكذلك التقويم السنوي الفارسي، وهناك نوعان من التقاليد نوع ناتج عن الديانة الإسلامية ، أو النوع الذي أقرها الإسلام حين لا يخالف مبادئه، والنوع الآخر ناتج عن حياة الوطنين البدوية ففي الأعياد ومختلف المناسبات تخرج القبائل في صفوف منتظمة تحت إمرة زعيمها ، وترقص الرقصات الوطنية.[24]

شوهد الاستقرار في تشاد منذ فترة طويلة خاصة بعد قيام الممالك الإسلامية الثلاث، حيث لاتزال الكثير من المدن التي أنشئت في تلك الفترة مكتظة بالسكان، وكان يتبع كل مدينة عدد من القرى، وتتبع هذه القرى عدد من الأحياء ليكون كل حي عدد من البيوت، وتتكامل في هذا المجتمع كل النظم الاجتماعية وتتشابك ، ففي كل وحدة يشترك أفرادها في كثير من أوجه النشاط الاجتماعي والاقتصادي والديني، ويوجد رئيس، وإمام، وقاضي وسوق، ومكان عام لإقامة صلاة العيدين والاحتفالات الموسمية.[25]

"العقيد" هو الحاكم المطلق في القرى التابعة له، ويخضع لأوامره كل من فيها، ويديرها عن طريق مشايخ القبائل، ورؤساء الأحياء وهو مسئول أمام السلطان،ويتوقف نجاح العقيد في مقاطعته على كل العوامل ذات المغزى السياسي والحربي وكذلك على رضا السلطان وحاشيته وغمرهم بالهدايا التي يعبروا بها التحية الودية)، وهي تختلف باختلاف المكانة التي يحتلها الفرد في " البلاط" الملكي، .[26]

أما الحياة السياسية في كل وحدة من الوحدات التي تتكون منها المملكة تكاد تكون قاصرة على أفراد أوعائلات معينة مهمتهم الفصل في القضايا وفرض الغرامات وجمع الإتاوات وتوزيع الأرض، وأهل الوحدة مطالبين بالطاعة والإذعان لأوامرهم ، كما يستطيع العقيد أن يعين ويعزل مشايخ القرى ورؤساء القبائل، فإنه يعين ويعزل بواسطة السلطان، فالسلطان أو العقيد ليس مجرد حاكم يفوض إدارته على شعبه أو أبناء قبيلته وإنما هو محور علاقاتهم ورمز وحدتهم وتضامنهم، وإليه تنتهي السلطة السياسية والدينية والقضائية في منطقته .[27]

ب ــ النظام السياسي:

نظام الحكم في السلطنة نظام وراثي ، تظل السلطة فيه متداولة بين أفراد البيت الواحد الذي حظي بالسيطرة على العرش ، وأن جميع السلطات التنفيذية في يد السلطان ، بينما السلطة التشريعية مستقلة وهي في يد القضاة الشرعيين.

تنقسم إدارة الدولة إلى أربع قيادات ، قيادة الشمال ، قيادة الغرب، قيادة الشرق و قيادة الجنوب

ويعين السلطان على كل قيادة من يديرها وهو الخليفة في الإقليم المعين ، وتنقسم كل قيادة إلى أربع دوائر تتجزأ بدورها إلى أربع نقاط صغيرة ، وهناك شروط وضعت لاختيار السلطان وهذه الشروط مستنبطة من الشريعة الإسلامية حددها علماء المسلمين ، وأهل وداي وضعوا شروطا عرفية إضافية إلى الشروط الشرعية في نظم وتقاليد تعيين السلطان وتنص شروط توليه العرش على الآتي :

– أن يكون ولي العهد الابن الأكبر من الذكور، أو من أقاربه الذكور.

– أن يكون ابنا شرعيا.

– أن تكون الخلافة عقب غياب السلطان مباشرة سواء كان بالوفاة أو العزل، وذلك تفاديا للفراغ.[28]

أما الشروط العرفية : أن يكون السلطان سليم البدن والحواس، وغير مصاب بمرض عضوي ظاهر ليس معرفة القراءة والكتابة شرط إلا أن الإلمام بها يرفع مكانته.[29]

نشأت مملكة وداي نشأة اسلامية و ما زال الإسلام هو عنوان وجودها الرئيسي ، لأن الإسلام هو الشريعة ، والإسلام هو المذهب ، والإسلام هو المنهج ،وهو القاعدة العامة التي يعود إليها المجتمع ،وهو النظام الذي المعمول به في المملكة ، وعليه صارت وبه ازدهرت وبواسطته عرفت في الداخل والخارج ، ويجمع كثير من المؤرخين في هذا الصدد على أن مملكة وداي بنت نظامها السياسي على مجموعة من الأركان والركائز والمنطلقات الإسلامية على رأسها ثلاث دعائم أساسية هي : الدين الإسلامي ، النظام العسكري ، التجارة الرابحة الدقيقة.[30]

إن النظام السياسي لهذه المملكة يقوم على قواعد الخلافة الإسلامية التي تعنى الولاية العامة على الأمة والقيام بتسيير أمورها المختلفة والنهوض بأعبائها الثقيلة، فهي رئاسة عامة لجميع الرعاية في أمور الدولة فالسلطان هو نائب عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، ويعتبر السلطان الحاكم الزمني والروحي ، فهو لا يستطيع مخالفة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

فلما كانت مملكة وداي عباسية الأصل أخذت بنظام حكم ولاية العهد الوراثي الذي كانت عليه الدولة العباسية الأم في بغداد ، وإن لم يذكر أصحاب الحل والعقد من أنصار عبد الكريم بن جامع وأعوانه الشروط والنظم التي تمت المبايعة على أساسها ، لذا فإن نظام الحكم في المملكة كان نظاماً وراثياً فالسلطان هو الحاكم ويخلفه ابنه وهو أمير المؤمنين، كما هو الحال في مملكة وداي، فبعد وفاة الداعية عبد الكريم بن جامع خلفه ابنه هارون (هاروت) (ت) 1089هـ/ 1678م في السلطة كما هو ثابت في جميع المصادر التاريخية التي تناولت قيام المملكة الإسلامية.

أما مجلس المستشارين، وهم يقومون بدور المستشارين في اختيار السلطان لحكام الولايات، وفض النزاعات التي تقع بين الفئة والأخرى وبين القبائل ولهم دور مهم في رضا العامة بحكم اختيارهم السلطان ومبايعته ، وتتويجه .

كانت عمليات التتويج في المرحلة الأولى تبدأ وتنتهي بانتهاء عملية البيعة من قبل الأعيان من كبار الدعاة أو المجلس الأعلى لإدارة شؤون الدولة ، وأهل الحل والعقد ، وهم أهل الشورى (العلماء)كان ذلك في عهد مؤسس المملكة الإسلامية الشيخ عبد الكريم مجدد الإسلام لكن تغيرنظام التتويج عندما جاء أحفاده من السلاطين، فأصبح التتويج تتويجاً سلطانياً ملكياً محضاً.[31]

عند التتويج يجتمع أرباب الدولة في القصر حول منصة عالية مغطاة بالسجادة يجلس عليها السلطان الجديد ويقوم أكبر رجال الدين في المنطقة يوضع العمامة على رأسه ، وأمامه الشارات السلطانية والأسلحة إيذانا بتقلده للسلطة ، وتتكون الشارة من مظلة وريش النعام، وتحمل أمامه في المناسبات الطبول النحاسية الضخمة، ومنشة من ريش النعام (نفاضة) ومظلة من الحرير الملون المظلة تقتصرعلى السلطان وحده .[32]

ج ــ النظام الاقتصادي:

كانت سلطنة وداي قديما وحديثا تعتمد على الزراعة والضرائب والتجارة والرعي ، في اقتصادها فالمنتجات الزراعية ، هي المصدر الأول في الدخل الاقتصادي القومي وهذه المنتجات هي الغلال ،الذرة ،الأرز، الفواكه ،البقوليات بأنواعها والخضروات. أما الثروة الحيوانية مثل الضأن والمعز والبقر والإبل والخيل والحمير، فيستفاد منها في إنتاج اللبن والسمن واللحوم بجانب المواصلات والنقل، وكذلك يستفاد من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها في مجال الأواني والأقمشة والأثاثات المنزلية، وبالإضافة إلى وجود مصنوعات ومنتجات أخرى كالتمر وعسل النحل والصمغ العربي ، والملح والعطرون والحديد والذهب وريش النعام وسن الفيل والسمك والدجاج والجلود كل ذلك يستخرج من منطقة برنو ببحيرة تشاد وظلت البلاد طوال تطورها التاريخي تشتهر بهذه المنتجات والرخاء الاقتصادي نظراً لموقعها الجغرافي كمركز تجاري بين الدول ومحطة للقوافل التي تأتي من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب أو العكس.

كما أن الغنائم كانت مصدرا أساسيا في دعم الاقتصاد ، كما أن نظام الضرائب والعمل بالأجر في الزراعة والتجارة يعتبر مصدر دخل فردي مميز.

تم تصدير المنتجات والثروة الطبيعية إلى البلدان المجاورة ودول حوض البحر المتوسط فجذب إليها انتباه تجار مصر وطرابلس وبرقة وفزان وتونس ومراكش وغيرهم، فكان سلاطين وداي والأقاليم الإسلامية الأخرى ينزلون عند بعض التجار المصريين أثناء مرورهم بالقاهرة وهم في طريقهم إلى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج إذ كانت الغالبية العظمى من حجاج غرب ووسط إفريقيا يمرون عن طريق مصر والبعض الآخر يمر بوداي ودارفور وسنار فكان هؤلاء الحجاج يحملون معهم الكثير من المنتجات والثروات الطبيعية المحلية للتجارة وكهدايا.

كانت السلع والبضائع التي ترد إلى وداي من الخارج لها رواج كبير في الأسواق المحلية مثل : الخرز بأنواعها وألوانها المختلفة والياقوت والمرجان والودع والأساور والفضة والنحاس والأقمشة القطنية والحريرية والخيوط والإبر والأمواس والملح الأبيض والسيوف والكتب الإسلامية والورق والحبر والكبريت والكافور والزعفران والزئبق والطيب والمسك والعطر والبهار والتوابل والأحذية والشاي والسكر والسجاجيد والأسلحة النارية والعود والقرنفل والقوارير.[33]

كان المسلمون في هذه المناطق يهتمون بتنظيم الإدارة المالية على أن تطابق الشرع الإسلامي.مصادرها متعددة كالجزية السنوية التي تدفعها المدن ، والغنيمة و مكوس التجارة.[34]

كانت حرية الإنسان الشخصية مقيدة بالمجتمع ، كذلك حريته المالية. للمجتمع الحق في مال الفرد والتدخل تمليه الاعتبارات الدينية والمدنية التي يراها، فإطلاق الملكيات أو تقيدها، ووضع حد أعلى أو أدنى للضرائب على رأس المال أو على الدخل، وجعل المرافق العامة ملكا للدولة أو للأفراد، وهذه كلها أمور يخضعها الدين لحاجات الناس وتطور الزمن.[35]

لهذا شرعت الضرائب ووجب جمعها، و على الدولة أن ترتب اولويات ميزانيتها لخدمة الشعب والنهوض بها ورفع مستواها.[36]

فرضت ضرائب على البضائع التي تصل إلى البلاد عبر الصحراء من مصر والحجاز عن طريق دارفور ومن شرق إفريقيا عن هضبة البحيرات (الكونغو) و (أبأنقى) شاري ونادرا ما تأتي البضائع من الغرب عن طريق بلاد الهوسا ، وعلى الرغم من وجود عملة سائدة في البلاد في ذلك الوقت فقد كان السكان يبايعون بالذهب والفضة والنحاس والحديد والزنك والخرز والياقوت والمرجان والمقايضة مثلهم في ذلك مثل بقية الشعوب في بلدان العالم، عند القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، دخلت البلاد العملة (الاسبانية) (تالري) عن طريق التجار العرب والبربر الوافدين إلى بحيرة تشاد، ويساوي التالرى الواحد خمسة فرنكات وقد عرف فيما بعد باسم (ريال) وظلت هذه التسمية سارية المفعول حتى أطلقت على الفرنك الفرنسي بعد الاحتلال ولا تزال التسمية متداولة بين العامة والمثقفين.[37]

قام الإنسان بمجموعة هائلة من التجارب وعمليات التصنيع مما تنتجه البيئة المحيطة به، كما قام بإستئناس الحيوانات والاستفادة القصوى منها، .

مارس الإنسان الصيد، وقام بجمع الثمار، وتربية الماشية كماتعرف على انواع النبات وصنع الفخار والمعادن، وغير ذلك من أنواع الصناعات.[38]

تميزت أراضي إقليم وداي بتنوع التربة والخصوبة العالية ، وتوفر المياه ، كما أن اتساع مساحة السلطنة ساعد على تنوع المنتجات الزراعية كالحبوب بأنواعها،كما تعتبر تربية الماشية المصدر الثاني للنشاط السكاني بعد الزراعة، حيث يقوم الأهالي بتربية الماشية.

كما كانت السلطنة تتمتع بعلاقات تجارية جيدة مع كل من مصر، وليبيا، ودارفور، وكانم، وبرنو، وتركيا ، وكانت تصدر الصمغ العربي والتمر وريش النعام والجلود، والعاج ، وتستورد الأقمشة والخرز والحرير والكتان والأواني المنزلية ، والبُنْ والصابون والكبريت والملح والأمواس والسكاكين والسروج والورق والآلات الكتابية والعملة الاسبانية (الريال).[39]

وجه الملوك الإهالي إلى أهمية الزرع والغرس، لأن الإسلام عمل على توجيه المسلمين الوجهة المثالية في استغلال خيرات الأرض وتسخيرها فيما يصلح الإنسانية جمعاء.[40]

لتنظيم الاقتصاد والتجارة، اسست المملكة بيتاً للمال، كما تم تعيين من يقوم بشؤون الاقتصاد والتجارة في المملكة ، ولعل تأسيس مدينة (نمرو) غرب مدينة وارا الشاهدعلى ذلك إذ

قصد منها أن تكون مدينة اقتصادية، فيغذى بيت المال من الضرائب المفروضة على منتوجات الأرض والماشية إضافة إلى الصدقات والغرامات والتجارة، فكانت التجارة في السلطنة تتم عن طريق المقايضة، كما كان الصدف والودع والريال ضمن العملات التي كانت تستخدم في المملكة.[41]

النظام القضائي :

يعتبر القضاء الإسلامي أساساً لبناء المجتمع المسلم في السلطة، وقد استمد القضاة أحكامهم من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إضافة إلى اجتهادات علماء المذاهب الإسلامية.

فكان من أهم الشروط التي يجب أن تنطبق على القاضي أن يكون عالما فقيها متصفا بالنزاهة والورع، لذا كان العلماء هم أصلح من يتولى القضاء في السلطنة، وتقديرا لدورهم الكبير في توفير مساحة كبيرة من العدالة والأمن في السلطنة، وكان السلاطين يولون اهتماما خاصا بالقضاة، ويخولون لهم السلطة المطلقة في أداء مهمتهم، وتؤكل إلى القضاة بجانب مهمة القضاة مسؤولية الإشراف على النواحي التعليمية والثقافية في المنطقة التي يمارس فيها عمله، ولأهمية القضاء ودوره في تسيير شؤون مجتمع السلطنة كان السلطان نفسه باعتبار أنه الرجل الأول في السلطنة وأمير المؤمنين، لابد أن يحتفظ وحده بحق الحكم في أمور أفراد الأسرة الحاكمة وعائلته.[42]

من أهم شروط القضاء : الإسلام، الذكورية، وتشمل صفة البلوغ ، العقل، الحرية، سلامة الحواس، والعلم بأصول الأحكام الشرعية، وهذا ما اتفق عليها معظم الفقهاء ورجال المذاهب الإسلامية الكبرى، ويساعد القاضي مجموعة من المساعدين حتى يسهل عليه تأدية عمله وتنفيذ المهام أي الأحكام بسرعة وهؤلاء هم:

ـ الكاتب الذي يقوم بتحرير ما يدور في جلسات القضاء.

الخازن هو الذي يقوم على حفظ مضابط الدعاوي والسجلات .

الحاجب وعليه حفظ وترتيب المتقدمين .

الشرطي هو الذي يقوم على الأمن وتهذيب المجلس .

الترجمان ويقوم على الترجمة عند مقاضاة من لا يجيد اللغة العربية.

- الشهود العدول وعليهم يعتمد القاضي في إصدار حكمه .

الشهود الذين يشهدون أن هذه الأحكام التي يصدرها القاضي تطابق الشريعة الإسلامية.

أما وظيفة القاضي فإنه ينظر في الآتي :

الدعاوي الحقوقية التي يتقدم بها الأفراد في النزاعات التي تقع بينهم، والفصل فيها .

النظر في الدعاوي الجزئية كدعاوي القذف والجرح

النظر في الحدود التي تعد من حقوق الله ، ولو لم تقدم بذلك دعاوي من رجل يتخذ لنفسه صفة المدعي.

– تنفيذ الأحكام واستيفاء الحدود.

– الحجر على السفهاء .

– تنصيب الأولياء والأوصياء.

– النظر في الأوقاف والوصايا .
– تزويج ألأيامي إذا جاءهن من يخطبهن.
– فحص الشهود للتأكد من نزاهتهم.

ضمت إلى وظيفة القاضي أعمال دينية لا علاقة لها بالقضاء وأصبحت مقررة في سلطته بالعرف، والأعمال الإضافية هي: الصلاة والخطابة في المساجد الجامعة، والإشراف على الأماكن الدينية، والإشراف على أموال الغائبين والمفقودين، والتأكد من المعايير الذهبية والفضية، والمكاييل الموازين، وولاية الحج، وأخذ البيعة للخليفة، ومصاحبة الجيش في الحروب ، وقد كان تضخم أعمال القاضي سببا في اتخاذ الأعوان والنواب والمساعدين له في وظيفته الأصلية، في القضاء، أو ما يضاف إليها، وقد يكون هؤلاء في العاصمة التي هي المقر الرئيسي أو يقوم بتوزيعهم في بقية الأمصار والأقاليم، حيث يعرفون هناك بنواب الحكم .[43]

فالقاضي شخصية مهمة يلي السلطان مباشرة في المكانة الرفيعة ويشتهر القضاء في هذه البلاد بالدقة والتبحر في العلم وفهم القوانين التي يطبقونها ، ولديهم مكتبات حافلة بالمؤلفات الفقهية، كان القضاء أول الأمر مستقلا عن السلطة التنفيذية ، يتمتع القاضي بمرتبة سامية، وكان منصبه في الممالك الإسلامية الإفريقية وراثيا في بعض البلدان،

كان القضاة في إفريقيا يعملون بمقتضى نصوص المذاهب الإسلامية الأربعة وتعاليمها، فكان المذهب السائد في وسط إفريقية المذهب المالكي، القضاة يطبقون الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك، كما كانوا يطبقون النظم الإسلامية إذا لم تتعارض مع نصوص القرآن والسنة، ويوجد في كانم وبرنو بعض الشافعية مما يؤكد النبع المصري في إسلام كانم، كما أنهم أسسوا مدرسة للمالكية في فسطاط(في مصر) زمن الأيوبيين 570 ــ 647هـ/ 1174ــ 1249م، وهي المشهورة باسم مدرسة ابن الرشيق.[44]

تعتبر السلطة القضائية من أهم السلطات في مملكة وداي الإسلامية ،وأن كانت قراراتها جزءا من السلطة التنفيذية إلا أن قراراتها تبقى مستقلة، بالإضافة إلى وجود شبه استقلال لها في الأقاليم إلى درجة أن الإمام أو القاضي في بعض الولايات وفي بعض المناطق الإدارية يعينهم في تحديد دور حكام الولايات في المنطقة لذلك تم تحديد صلاحيات القضاة في الولايات المختلفة .[45]

الجانب الثقافي :

كانت الأوضاع الثقافية والتعليمية في مملكة وداي، تمتد جذورها إلى أعماق بعيدة في التاريخ الإسلامي، حيث اتخذ عبد الكريم بن جامع منهج السلف الصالح في الدعوة التي تتطلب منه الإعداد الكامل للتأهيل التربوي والتعليمي في جميع نواحي الحياة وفرض نماذج إسلامية في الأوضاع الثقافية على الساحة وتعددت أماكن التعليم، وقد انتشرت المدارس والخلاوي القرآنية، والمساجد التي كانت تؤدي أدواراً كبيرة، بالإضافة إلى كونها أماكن تعليمية، ودورا للعبادة فإنها كانت مكانا لتلقي العلوم والمعارف، حتى ارتبط المسجد في تاريخ دار وداي بالتعليم والثقافة العربية ولهذا فإن المسجد كان منشغل طول الوقت ففي الصباح يتلقى التلاميذ دروسهم اليومية، وبعد صلاة الظهر

يدرس فيه حفاظ القرآن الكريم ما كتبوه من واجب في فترة الصباح ، وفي العصر تدرس فيها العلوم الشرعية مثل الفقه والحديث والسيرة النبوية واللغة العربية بكل فروعها المختلفة على أيدي رجال يتقنون هذه العلوم غاية الإتقـــــان.[46]

إن الحديث عن الثقافة العربية الإسلامية في مملكة وداي يعني الحديث عن جذورها التاريخية القديمة، ومدى أصالتها في المنطقة ، فقد شهدت أراضي إفريقيا جنوب الصحراء التي تعرف بالسودان الأوسط هجرات عربية قبل ظهور الإسلام ، ودخل العرب المنطقة عبر منافذها الشرقية، عن طريق البحر الأحمر والصحراء الكبرى، بحثا عن أماكن أفضل للعيش يستقرون فيها هم وماشيتهم، وقد كان لهم معرفة سابقة بها إما عن طريق التجارة، وإما عن طريق الهجرات القسرية بسبب الكوارث الطبيعية، كالقحط والمجاعة أو الصراعات السياسية، وكانت القبائل العربية تقر إلى هذه المنطقة كلما دعت الحاجة إلى ذلك.[47]

فالتعليم في مملكة وداي على نمطين "تعليم القرآن يتمثل في الخلاوي، وتعليم العلوم الأخرى يتمثل في حلقات الدروس، لقد سلك سلاطين دار وداي المنهج الذي وضعه مؤسس المملكة، والذي يعتمد على أسس تعليمية جيدة على تعليم كافة أرجاء المملكة حيث أسسوا في كل قرية خلوة ومسجد وجعلوا للقرى أئمة كممثلين للسلطان ويتولون جميع المهام والشؤون الإدارية والدينية والقضائية[48].

عرفت دار وداي بالدولة المسلمة كما عرفت بدار الإسلام وهي مملكة وداي الإسلامية نفسها لقيامها على أسس وقواعد شرائع الإسلام الظاهرة ونظمه السامية.[49]

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى أن مجتمع مملكة وداي التي نشأت في حوض بحيرة تشاد اسهمت اسهاماً كبيراً في نقل الحضارة الاسلامية ، مما جعلت المملكة تتميز بمميزات متفردة لم تشهدها حوض البحيرة من قبل. وذلك نظراً لموقعها الاستراتيجي وغناها بثرواتها الطبيعية وخصوبة أراضيها الصالحة للزراعة والرعي بجانب الثروات الطبيعية الأخرى، فاصبحت ذات حياة اقتصادية منتعشة مما ادي الى استقرار السكان وازدهار المنطقة بصورة كبيرة.

النتائج:

1ـ اسهمت القبائل الوافدةالى وداي اسهاما كبيراً في إنشاء الممالك والسلطانات والمشيخات الإسلامية في منطقة السودان الأوسط، كما كان لها دوراً مهماً في نشر الثقافة العربية والإسلامية، كما أدخلت اللغة العربية إلى دواوينها ونظم حكمها ومعاملاتها.

2 ـ شكلت مجتمعات وداي عنصراً أساساً مهما من عناصر المجتمع منذ الفتح الإسلامي للبلاد، مما جعل كل قبيلة تستقر في بيئة تناسب مع طبيعة حياتها.

3ـ قيام المؤسسات التعليمية والثقافية والتربوية بدور هام في الحفاظ على الهوية الإسلامية لشعوب المنطقة.

التوصيات:

1ـ ضرورة إجراءالمزيد من البحوث والدراسات لإكمال الجوانب الناقصة في تاريخ الممالك في السودان الأوسط.

2ـ على الجهات المعنية (الدولة) أن تقف بجانب الباحثين ومساعدتهم وتهيئة الظروف المناسبة لهم في مجال البحث العلمي.

الهوامش:

(1) إسحاق، عزالدين مكي: سلطنة وداي الإسلامية العباسية منذ عهد السلطان عبد الكريم بن جامع حتى عهد السلطان عراضة الثاني --1611 2005م، مصر القاهرة، دار الفضيلة، ط1، 2016م، ص: 10

(2) زايد، أحمد بركة الله، الصراع الثقافي واثاره في تشاد ،ط1 ،(ب ت) ص: 44

(3) الشاطر بصيلي ، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط (القرن السابع ـــ للقرن التاسع عشر الميلادي) ط1 مصر، الهيئة العامة ، ص 424.

(4) أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي ،(1990م) ، ط10، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص 303.

(5) الحنديري ، عبد الرحمن : تطور الحياة السياسية منذ الاحتلال الفرنسي حتى نهاية حكم تمبلباي (1988م) بنغازي ،المكتبة الوطنية ، ص 37 38

(6) الماحي "تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال منشورات كلية الدعوة الاسلامية (1999م) ، ص 18.

(7) موسى عيسى يوسف إدريس ، جمهورية تشاد (الماضي ، الحاضر ، المستقبل) قراءات افريقيا، العدد1 ،(2004م)، ص 199.

(8) أحمد بركة الله زايد ،مصدر سبق ذكره، ص 24 – 25.

(9) حامد عبد الله حامد ، الحضارة الاسلامية في مملكة وداي (2016م) القاهرة ، دار الفضيلة ، ص 22.

(10) المصدر نفسه ،والصفحة 22. أنظر ، التونسي ، تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان

(11) محمد البشير أحمد موسى ، تشاد مقاربة لنباء دولة حديثة ط1،ص 22 – 23. أنظر محمد البشير ، بناء دولة القانون والمؤسسات في جمهورية تشاد(1440هـ) ، ص127 .

(12) غوستاف ناختقال ، رحلة إلى دار وداي ودار فور ، تعريب ، سيد على محمد ديدان ،ط(2) 1435هـ/2013م، الخرطوم ، ص 167

(13) عز الدين مكي إسحاق ، مختصر تاريخ سلطنة وداي الإسلامية العباسية ، ط(1) 1438هـ/2016م، دار الفضيلة القاهرة ، ص 15.

(14) المرجع نفسه و الصفحة.

(15) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق ايهاب محمد إبراهيم (2006م) ، القاهرة ، مكتبة القران 254

(16) آدم كردي شمس ، تشاد والاسلام معركة التحديات (1997م) ط1 (ب ت) ، ص 68.

(17) مدني حسين إسحاق ، سكان دار وداي ، مجلة دار وداي ، العدد السادس (6) ممثلية سلطنة دار وداي العباسية ، الرياض – السعودية ، 2007/03/09م/1427/02/19هـ.

(18) موسى عيسى يوسف إدريس ، مصدر سبق ذكره ، ص 208 – 209.

(19) تنغـو: اضـواء عـلى تاريـخ السـودان ،ج2 ، ط1 ، السـودان ، شركـة مطابـع العملـة (ب ت) ، ص257

(20) حسـن عابديـن والـسر سـيد أحمـد العراقـي: معـالم التاريـخ الإفريقـي،ط9 ، 1415هــ/1994م، شركـة دار الأنقـاذ للطباعـة والنـشر، ص 21 ــ22.

(21) .

(22) إبراهيـم برمـة أحمـد، اثـر الاسـتعمار الفرنـسي في الـصراع الثقـافي في تشـاد ،ط1 ، الخرطـوم ، دار المصـورات ،ص 40.أنظـر إبراهيـم طرخـان امبراطوريـة برنـو الاسـلامية (1975م) ط1، القاهـرة ، الهيئـة المصريـة ، ص102 .

(23) المصدر السابق، ص 41.

(24) حسن عابدين ، مصدر سبق ذكره ، ص62 .

(25) المصدر نفسه ، ص 63.

(26) عبد الرحمن عمر الماحي " تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال ، ص 70 .

(27) عبـد الرحمـن عمـر الماحـي ، ص 71. أنظـر ادم محمـد أحمـد مصطفـى ، دار اسـنقور ودار ارنقـا ودورهـما الاجتماعـي والسـياسي في شرق تشـاد و غـرب دارفـور ، السـودان ، امكتبـة الوطنيـة ص68 .

(28) المرجع نفسه ، ص 71.

(29) عز الدين مكي إسحاق ، مصدر سبق ذكره ، ص69.

(30) غوستاف ناختفال ، مصدر سبق ذكره ، ص 349.

(31) المصدرالسـابق، ص 349.أنظـر ابـن طوطـة تحفـة النظـار في غرائـب الامصـار ، (رحلـة بـن بطوطـة) (1987م) ، دار الكتـب العلميـة ص345 .

(32) حامد عبدالله أحمد: مصدر سابق ، ص58 ـ 66.

(33) غوسـتاف ناختفـال، ص 141. أنظـر حسـن إراهيـم حسـن ،انتشـار الاسـلام في القـارة الفريقيـة ، ط1 ، مـصر ،مكتبـة النهضـة المصريـة (1979م) ص207. وأنـظ محمـد البشـير أحمـد مـوسى ، مرجـع سـبق ذكـره ص138 .

(34) إبراهيم برمة أحمد ، مصدر سابق ،ص 42.

(35) حسن عابدين: مصدر سابق، ص-- 61.

(36) الغزالي ، " الإسلام والاوضاع الاقتصادية (1987م) مصر الجديدة ، دار الريان للنشر ، ص 179.

(37) الغزالي: المصدر نفسه ،ص 179 – 180.

(38) إبراهيم برمة أحمد ، مصدر سابق ، ص 42 – 43.

(39) حامد عبدالله أحمد: الحضارة الإسلامية في مملكة وداي ، مصدر سابق ، ص 103.

(40) عزالديـن مـكي إسـحاق: ، مصـدر سـابق ، ص 76 – 77. أنظـر شـكيب ارسـلان ، حلـضر العـالم الاسـلامي ، (1973م) ، المجلـد 2 ،ج3 ط4 ، ص175 .

(41) فضل كلود: الثقافة الإسلامية في تشاد ، العصر الذهبي لامبراطورية كانم برنو ، (1998م) ط1، منشوراتكلية الدعوة الاسلامية ، ص 263.

(42) عز الدين مكي إسحاق ، المصدر السابق ، ص 77.

(43) عز الدين مكي إسحاق ، المصدر السابق ، ص 81 . أنظر جلال يحى ، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر (1999 ــ 2020م) مص ، الاسكندرية المكتب الجامعي الحديث .ص 136ــ 144.

(44) حامد عبد الله ، مصدر سبق ذكره ، ص 82 – 83.

(45) حسن عابدين: مصدر سبق ذكره، ص 60 – 61.

(46) محمد البشير بن أحمد موسى " مرجع سبق ذكره، ص 40.

(47) إبراهيم برمة أحمد ، مصدر سبق ذكره ،ص 43.

(48) التونسي ، رحلة الى وداي، تحقيق ودراسة عبدالباقي كبير ،(ب ت) ص 201 . و أنظر حسين مؤنس ، اطلس تاريخ الاسلام ، القاهرة الزهراء للاعلام العربي (ب ت) ص 78 .

(49) إبراهيم برمة أحمد ، المصدر السابق ، ص 44.

(50) حامد عبد الله أحمد ، مصدر سبق ذكره ، ص 84 – 86.

المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

القرآن الكريم

(1) ابـن بطوطـة، محمـد بـن عبداللـه: تحفـة النظـار في غرائـب الأمصـار (رحلـة ابـن بطوطـة) ط1، 1407هـ/ 1987م، دار الكتـب العلميـة.

(2) ابـن خلـدون عبدالرحمـن بـن محمـد: مقدمـة بـن خلـدون، تحقيـق: إيهـاب محمـد بـن إبراهيـم، مكتبـة القـرآن، القاهـرة – مـصر 1427/ 2006م، (ب ط)

(3) إبراهيـم عـلي طرخـان: إمبراطوريـة برنـو الإسـلامية، الهيئـة المصريـة للكتـاب، ط1، 1975م (ب ط). ـ إبراهيـم برمـة أحمـد: اثـر الاسـتعمار الفرنـسي في الـصراع الثقـافي في تشـاد،ط1، دار المصـورات الخرطـوم 5 ـ أحمـد شـلبي موسـوعة التاريـخ الإسـلامي (1990م) ، ط10،القاهـرة ، مكتبـة النهضـة المصريـة

(4) اسـحق عـز الديـن مـكي ،مختـصر تاريـخ سـلطنة وداي الاسـلامية (2015م) ،ط1 ،القاهـرة ، دار النهضـة.

(5) ادم محمـد أحمـد مصطفـى ، دار اسـنقور ودار ارنقـا ودورهـما الاجتماعـي والسـياسي في شرق تشـاد و غـرب دارفـور ، السـودان ، امكتبـة الوطنيـة .

(6) آدم كردي شمس ، تشاد والاسلام معركة التحديات (1997م) ط1 (ب ت) .

(7) تنغو: اضواء على تاريخ السودان ،ج2 ، ط1 ، السودان ، شركة مطابع العملة (ب ت) ، ص257.

(8) التونسي، محمد عمر: رحلة إلى وداي ، تحقيق ودراسة عبد الباقي محمد دار منكوب ، ب ط.

(9) جـلال يحـى ، تاريـخ أفريقيـا الحديـث والمعـاصر (1999 ــ 2020م) مـصر ، الاسـكندرية المكتـب الجامعـي الحديـث .

(10) حامد عبد الله حامد ، الحضارة الاسلامية في مملكة وداي (2016م) القاهرة ، دار الفضيلة ،

(11) حسين مؤنس ، اطلس تاريخ الاسلام ، القاهرة الزهراء للاعلام العربي (ب ت) .

(12) حسـن عابديـن والـسر سـيد أحمـد العراقـي: معـالم التاريـخ الإفريقـي،ط9 ، 1415هــ/1994م، شركـة دار الأنقـاذ للطباعـة والنـشر .

(13) حسـن إبراهيـم حسـن ،انتشـار الاسـلام في القـارة الفريقيـة ، ط1 ، مـصر ،مكتبـة النهضـة المصريـة،1979م

(14) حسـن إبراهيـم حسـن ، تاريـخ الاسـلام السـياسي والدينـي والثقـافي والاجتماعـي (1965م)، القاهـرة، مكتبـة النهضـة المصريـة .

(15) الحنديـري ، عبـد الرحمـن : تطـور الحيـاة السياسـية منـذ الاحتـلال الفرنـسي حتـى نهايـة حكـم تمبلبـاي (1988م) بنغـازي ،المكتبـة الوطنيـة.

(16) شكيب ارسلان ، حلضر العالم الاسلامي ، (1973م) ، المجلد 2 ،ج3 ط4 .

(17) الشـاطر بصيـلي ، تاريـخ وحضـارات السـودان الشرقـي والاوسـط (القـرن السـابع ـــ للقـرن التاسـع عـشر الميـلادي) ط1 مـصر، الهيئـة العامـة

(18) عبد ارحمن عمر الماحي ، الدعوة الاسلامية في افريقيا الواقع المستقبل (1999م) ،منشورات كلية الدعوة الاسلامية .

(19) غوستاف ناختيغال: رحلة إلى دار وداي ،ودار فور تعريب سيد علي محمد ديدان ،ط1، 1435هـ/2013 م الخرطوم.

(20) الغزالي ، " الإسلام والاوضاع الاقتصادية (1987م) مصر الجديدة ، دار الريان للنشر .

(21) 23 ـــ فضل كلود: الثقافة الإسلامية في تشاد ، العصر الذهبي لامبراطورية كانم برنو ، (1998م) ط1 ، منشوراتكلية الدعوة الاسلامية ،

(22) الماحي "تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال منشورات كلية الدعوة الاسلامية (1999م) .

(23) محمد البشير أحمد موسى ، تشاد مقاربة لنباء دولة حديثة ط1،ص 22 – 23. أنظر محمد البشير ، بناء دولة القانون والمؤسسات في جمهورية تشاد(1440هـ

(24) موسى عيسى يوسف إدريس ، جمهورية تشاد (الماضي ، الحاضر ، المستقبل) قراءات افريقيا، العدد1 ،(2004م)، ص 199.

(25) فضل كلود: الثقافة الإسلامية في تشاد ، العصر الذهبي لامبراطورية كانم برنو ، (1998م) ط1، منشوراتكلية الدعوة الاسلامية ،

(26) مدني حسين إسحاق ، سكان دار وداي ، مجلة دار وداي ، العدد السادس (6) ممثلية سلطنة دار وداي العباسية ، الرياض – السعودية ، 2007/03/09م/1427/02/19هـ

(27) موسى عيسى يوسف إدريس ، جمهورية تشاد الماضي الحاضر والمستقبل(2004م) ،قراءات افريقيا (العدد 1)

الظواهر السالبة الجديدة في المجتمع وأثرها في تهديد السلم الاجتماعي (دراسة ظاهرة المتفلتين في ولاية غرب كردفان) (2015 – 2022م)

د. حامد إبراهيم الإحيدب قادم

قسم التاريخ – كلية التربية - جامعة الدلنج

مستخلص:

تناولت الدراسة الظواهر السالبة الجديدة في المجتمع وأثرها في تهديد السلم الاجتماعي بالتركيز على (دراسة ظاهرة المتفلتين في ولاية غرب كردفان). تتمثل أهمية الدراسة في تسليط الضوء على ظاهرة جديدة من الظواهر السالبة التي تهدد أمن المجتمع وسِلمِه في ولاية غرب كردفان، وهي ظاهرة المتفلتين الذين بدأوا نشاطهم في الغابات والوديان في شكل معارضة مسلحة ضد الحكومة، ثم تحولوا إلى قطّاع طُرق وقتلة، فكثر عددهم، مما أعجز المجتمعات المحلية في محاربتهم مع تساهل واضح من قبل الحكومة تجاههم. تكمن مشكلة الدراسة في وجود ظاهرة جديدة مهددة للأمن والسلم الاجتماعي، حتى أصبحت ظاهرة التفلت معروفة اكتوى بنيرانها قطاع عريض من سكان ولاية غرب كردفان، لذلك وضعت الدراسة سؤالاً عريضاً للبحث عن إجابة عنه وهو: ما أسباب ظهور المتفلتين وما هو موقف الحكومة والمجتمع المحلي من الحد من خطورتهم؟ اضافة إلى عدد من الأسئلة الأخرى. هدفت الدراسة إلى معرفة أسباب ودواعي ظهور المتفلتين، وكذلك معرفة أماكن تواجدهم وأوقات تحركاتهم، وموقف الحكومة والمجتمع المحلي ممثلاً في الإدارات الأهلية للحد من خطورتهم وتزايد نشاطهم. اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي. وتوصلت إلى عدة نتائج أهمها : أن ظهور المتفلتين بدأ تدريجياً بالسرقات ثم تطوروا حتى أصبحوا قوة مهددة للأمن والسلم، كما أن التساهل الواضح من قبل أجهزة الحكومة قد ساعد على انتشار هذه الظاهرة. توصي الدراسة بضرورة تفعيل كل قطاعات المجتمع الرسمية والشعبية لمحاربة هذه الظاهرة.

الكلمات المفتاحية: السلم الاجتماعي، النزاعات ، الإدارات الأهلية ، المواطنين ، الدولة

Emerging Negative Social Phenomena and Their Impact on Social Peace (A Study of The Outlaws Phenomenon in West Kordofan State) (2015–2022)

Dr.Hamid Ibrahim Elehadib

Abstract:

This study examines emerging negative phenomena in society and their impact on threatening social peace, with a focus on the phenomenon

of outlaws in West Kordofan State. The importance of the study lies in shedding light on a new negative phenomenon that threatens the security and stability of society in West Kordofan—namely, the outlaws who initially began their activities in forests and valleys as an armed opposition against the government, then evolved into highway robbers and killers. Their numbers have increased significantly, overwhelming local communities and rendering them unable to combat them, especially in light of the apparent leniency shown by the government. The problem of the study is the existence of a new phenomenon that threatens security and social peace, to the extent that the issue of lawlessness has become widely recognized, affecting a large segment of the population in West Kordofan State. Accordingly, the study raises a broad research question: What are the causes behind the emergence of outlaws, and what are the roles of the government and local communities in limiting their danger? This is in addition to several other related questions. The study aims to identify the causes and motivations behind the emergence of outlaws, as well as to determine their locations and patterns of movement, and to examine the roles of the government and local communities—represented by traditional administrations—in reducing their threat and curbing their growing activities. The study adopts the descriptive historical method and arrives at several key findings, most notably that the emergence of outlaws began gradually with theft and then developed into a force that poses a serious threat to security and social peace. Furthermore, the evident leniency of government authorities has contributed to the spread of this phenomenon. The study recommends the need to activate all sectors of society, both official and popular, to combat this phenomenon.

Social peace, conflicts, traditional administrations, citizens, the state.

أهمية الدراسة:

تـأتي أهميـة الدراسـة في أنهـا تتنـاول قضيـة حديثـة مـن القضايـا التـي تهـدد الأمـن والسـلم الإجتماعـي، حيـث أنهـا سـلطت الضـوء عـلى ظاهـرة التفلـت، ووضحـت مـدى خطورتهـا عـلى المجتمـع والأمـن في المنطقـة إذا لم يتـم التعامـل مـع تلـك الفئـة بالجديـة والقـوة.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة الدراسة في وجود ظاهرة جديدة من الظواهر السالبة في مجتمع ولاية غرب كردفان وهي ظاهرة مهددة للأمن والسلم الاجتماعي، حيث أصبحت ظاهرة التفلت معروفة اكتوى بنيرانها قطاع عريض من سكان ولاية غرب كردفان، لذلك وضعت الدراسة سؤالاً عريضاً للبحث عن إجابة عنه وهو : ما أسباب ظهور المتفلتين وما هو موقف الحكومة والمجتمع المحلي من الحد من خطورتهم؟ وما الطرق التي يمكن أن تنتهجها الجهات المسؤولة للقضاء على هذه الظاهرة.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى الآتي:

- معرفة أسباب ودواعي ظهور المتفلتين ومدى خطورتهم على السلم الإجتماعي.
- الوقوف على الخطر الأكبر الذي يهدد السلم الإجتماعي منذ بداية ظهور المتفلتين وإلى اليوم وذلك عبر تتبع حركة المتفلتين ومراحل ازدياد نشاطهم.
- تناول جهود المجتمع المحلي في غرب كردفان وأجهزة الدولة المختلفة للقضاء على هذه الظاهرة.
- تقديم المقترحات التي تسهم في وضع حد لانتشار هذه الظاهرة.
- منهج الدراسة: اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي للوصول ، وتعتمد على المقابلات واللقاءات الشخصية للوصول إلى المعلومات.

حدود الدراسة :

- الحدود الزمانية: في الفترة من (2015 – 2022م).
- الحدود المكانية: ولاية غرب كردفان.

مقدمة:

ظلت قضايا التعايش السلمي من القضايا المهمة التي شغلت المجتمعات السودانية، حيث كانت المجتمعات السودانية تعيش في سلام وأمان وتداخل وتصاهر حتى نهاية القرن العشرين، أما في مطلع الألفية الجديدة فقد بدأت تظهر ملامح نزاعات واضطرابات لأسباب مختلفة، وبمرور الوقت أصبحت مهددة بشكل واضح للسلم الإجتماعي. تعتبر ولاية غرب كردفان من الولايات الغنية جداً بمواردها الزراعية والحيوانية إضافة إلى البترول والمعادن الأخرى، ورغم ذلك ظلت تعاني من نقص كبير في خدمات التنمية، حتى شعر مواطنها بالتهميش الخدمي من قِبل المسؤولين، لذلك كان غياب التنمية هو أحد أهم أسباب الصراعات التي نشبت في المنطقة، كنتيجة للغبن والشعور بالظلم والتهميش، لأن غياب العدالة في التنمية يولد الكراهية والحقد على الآخرين.[1] كما أن قضايا الأرض أصبحت إحدى مهددات الأمن والسلام الاجتماعي، وقد حدثت نزاعات عديدة بين القبائل حول الأرض، سواء كانت أرضاً زراعية أو رعوية. كما أن استمرار النزاعات بين المزارعين والرعاة ظلت باستمرار تمثل حلقة مهمة من حلقات تهديد السلم الاجتماعي، حيث أزعجت

هـذه النزاعـات المجتمـع المحـلي ممثـلاً في الإدارات الأهليـة والأجاويـد إضافـة إلى أجهـزة الدولـة الرسـمية، وقـد بُذلـت جهـوداً كثـيرة للحـد مـن خطـورة هـذه النزاعـات. ورغـم أن المواطـن في غـرب كردفـان ظـل يحلـم باسـتمرار بولايـة آمنـة مـن الحـرب والنزاعـات، إذا بـه يشـعر بصدمـة كبـيرة عقـب تفـشي ظاهـرة السرقـات والنهـب والسـلب في مناطـق عديـدة مـن الولايـة، والتـي قادتهـا مجموعـة مـن المجرمـين عُرفـوا وسـط المجتمـع المحـلي بالمتفلتـين.

ظهـرت ملامـح التفلـت في إقليـم دارفـور بعـد ظهـور الحـركات المسـلحة ومعارضتهـا المسـلحة للحكومـة، فقـد حمـل أفرادهـا السـلاح وأعلنـوا خروجهـم عـلى الحكومـة، فقامـت الحكومـة بمطاردتهـم في الغابـات والجبـال، وفي تلـك الظـروف بـدأ بعضهـم يهاجـم بعـض المواطنـين بحجـة مسـاندتهم للحكومة فينهبـون ويقتلـون. أمـا في غـرب كردفـان فقـد بـدأت ظاهـرة التفلـت بصـورة تدريجيـة، حيـث خرجـت مجموعـات صغـيرة ضـد سياسـية الدولـة وحملـت السـلاح وأعلنـت العصيـان والتمـرد عـلى الدولـة، ودخلـت الغابـات والوديـان الوعـرة، وظلـت تهاجـم المركبـات الحكوميـة في الطـرق الوعـرة، ونهبـوا عـدد منهـا، فظـل العامـة تُطلـق عليهـم لقـب المتفلتـين باعتبـار أنهـم فلتـوا عـن سـيطرة الحكومـة، وظلـت القـوات النظاميـة تطاردهـم في فـترات متقطعـة دون الظفـر منهـم بـشيء، غـير أن الدولـة غـيرت نهجهـا معهـم وتعاملـت بنـوع مـن الحكمـة مـع هـذه الفئـة عـبر التفـاوض والوسـاطات، فرجعـت هـذه المجموعـة إلى مناطقهـا، واسـتقرت ولكـن تغـير سـلوك هـذه الفئـة بصـورة أكـثر سـوءً، كـما أن هـذه الفئـة إلتقـت وتحالفـت مـع فئـة أخـرى هـم اللصـوص المعروفـين بسرقـات المـواشي والمحاصيـل الزراعيـة وغيرهـا، فـكان نتـاج ذلـك أن بـدأت تظهـر في الولايـة ملامـح ظاهـرة جديـدة تعتـبر مـن أكـبر مهـددات السـلم الإجتماعـي، فقـد ظلـت هـذه الفئـة تمـارس السرقـات والنهـب (قطـع الطرقـات)، وظلـت أنشـطتها تتوسـع حتـى أصبحـت شـبكة إجراميـة تهـدد أمـن المواطـن وممتلكاتـه في الولايـة، ومـا يزيـد مـن خطـورة هـذه الشـبكة أنهـا توسـعت وتمـددت وسـط قبائـل ومكونـات الولايـة، وأصبحـت تتحـرك بصـورة مرتبـة، وتخطيـط دقيـق يصعـب السـيطرة عليـه، فقـد أوجـدت هـذه الشـبكة حلقـة تواصـل فيـما بينهـا في مناطـق مختلفـة، فكانـت هـذه الشـبكة تتشـكل مـن كل مكونـات الولايـة الكبـيرة (الحَمَـر، المسـيرية، النوبـة، الداجـو، وبنـي فضـل، وغيرهـا). والتفلـت يختلـف عـن التمـرد، فالتمـرد هـو عصيـان لمؤسسـات الدولـة السياسـية والعسـكرية، والمواطـن وممتلكاتـه ليسـت هدفـاً للتمـرد، إضافـة الى ان التمـرد يحمـل فكـرة محـددة للإصـلاح والمطالـب. امـا التفلـت فهـو ضـد الدولـة والمواطـن ولا يميـز بينهـما، فهـو ظاهـرة أشـبه بالنهـب والسرقـات ولكنهـا بصـورة منظمـة ومرتبـة، حيـث يتـم اسـتخدام السـلاح في كل الأحـوال وخاصـة في فـترة التراخـي مـن الدولـة.

أسباب ظهور وانتشار ظاهرة التفلت:

ظاهـرة المتفلتـين بـدأت تدريجيـاً بنـاءً عـلى أحـداث وأوقـات مختلفـة حدثـت فيهـا الكثـير مـن التغيـرات في طبيعـة الحيـاة في ولايـة غـرب كردفـان، فـكان لظهورهـم عـدة أسـباب منهـا:

1/ الفـراغ والبطالـة: عـدم توفـر فـرص عمـل حقيقيـة تسـتوعب طاقـات الشـباب بصـورة ثابتـة جعـل النشـاط الاقتصـادي يـكاد ينحـصر في الزراعـة والرعـي في عـدد كبـير مـن المحليـات، ومهنـة الرعـي

تحديداً هي مهنة شاقة ودخلها محدود جداً، تتخللها معاناة كثيرة بسبب عدم الإهتمام من قِبل صاحب المواشي، فالراعي يحتاج إلى مبالغ بصورة دورية لتلبية احتياجاته (صابون، ملابس، رصيد هاتف، مبلغ نقدي ....) وهذا ما لا يتوفر له، إذ جرت العادة والعُرف إن صاحب المواشي يتفق مع الراعي على دفع عدد (01 من الغنم) للراعي مثلاً في السنة لا يتبعها أي إلتزام آخر غير الأكل والشرب والملبس المحدود للراعي، وبعد إكماله السنة المتفق عليها يأتي والده ويأخذ الغنم دون ان يمنح إبنه الراعي شيء منها، وذلك حدث وظل يحدث باستمرار، لذلك ترك الشباب في سن الخامسة عشر وما فوقها هذه المهنة، وأصبح يمتهنها الأطفال دون ذلك وبصورة محدودة. أما الزراعة فهي المهنة الأولى في الولاية من حيث الإعتماد عليها، غير أنها ما زالت تقليدية في الغالب، بسبب أن الزراعة بالآليات تحتاج إلى رأس مال كبير، وأغلب المواطنين يزرعون مساحات محدودة وفقاً لإمكانياتهم، لذلك يكون الحصاد محدوداً، وبعد موسم الحصاد يظهر فراغ كبير يملأه بعض الشباب بالسفر إلى المدن للبحث عن عمل، والبعض الآخر يظل موجود طوال فترة الصيف في منطقته، مما يجعله يشعر بالملل، ويفكر في الحصول على ما يحتاجه من مال عبر وسائل أخرى غير مشروعة مثل السرقات والنهب والاحتيال وغيرها.

2/ معظم الأطفال الذين إمتهنوا مهنة الرعي لم يُحظوا بالتعليم الكافي الذي يجعل منهم طبقة يُعتمد عليها في حل ومعالجة قضايا الولاية، فبعض الأطفال تركوا الدراسة في سن مبكرة قبل إكمالهم لمرحلة الأساس، والبعض الآخر لم يُحظَ بدخول المدرسة إطلاقاً، فمثل هذه الحالات ينقصها الوعي بمختلف أنواعه، مما يجعلهم عُرضة للإستقطاب من قِبل مرتادي الإجرام.

3/ عدم المتباعة الدقيقة واللصيقة من قِبل أولياء الأمور لأبنائهم، فالواجب يحتم على ولي الأمر متابعة ومراقبة تحركات وأنشطة إبنه بصورة مستمرة، خاصة في ظل الهشاشة الأمنية وظهور الأطماع في حياة الناس، فعندما يهمس الناس سراً في منطقةٍ ما عن ظهور لصوص في منطقتهم، كان الأولى لكل أولياء الأمور أن يتابعوا أبناءهم، ويتأكدوا من عدم صلتهم بالمشتبه به، حتى لا يؤثر عليهم، ولكن أن ترى إبنك يجالس شخص معروف أو مشتبه به في السرقات والنهب والاحتيال وتتركه يرافقه في الأسواق والمناسبات والطرقات، فإنه بلا شك سوف يؤثر عليه ويستقطبه إلى الطريق الخطأ.

4/ ضعف أجهزة الدولة الرسمية وغياب هيبة الدولة هو أحد الأسباب المسؤولة عن حالة الإنفراط الأمني والإقتتال بين المجتمعات. وقد إستغل المتفلتون هذا الجانب بتوسيع شبكتهم الإجرامية، وتنويع الخطط في تحركاتهم.

5/ انتشار السلاح وسط المواطنين: لقد لجأ العديد من أفراد القبائل إلى الدخول في سباق التسليح عندما شعروا بغياب هيبة الدولة، وعدم مقدرتها على توفير الأمن وحماية ممتلكاتهم. يُعد انتشار السلاح الناري بكميات كبيرة خلال العقود الأربعة الأخيرة نتيجة لظروف داخلية وخارجية عامل مساهم في ظهور حالة الإنفلات، فكان السلاح الناري في السابق ملكاً لرؤساء

الإدارات الأهلية والأثرياء وفقاً للقانون، ولكن إنتشاره بأنواعه المختلفة أدى إلى ذهنية حل أصغر المشكلات بالقوة والعنف، فأصبحت لدى عصابات النهب المسلح أسلحة أكثر تطوراً مما في أيدي الشرطة والقوات النظامية الأخرى من أسلحة، وقد وجدت هذه الأسلحة طريقها إلى أيدي المواطنين من تجار الأسلحة من تشاد وليبيا وجنوب السودان وغيرها، كذلك تسربت أسلحة الوحدات الحكومية إلى بعض القبائل.[2] وقد ظهرت أسلحة حديثة في أيدي المواطنين في فترة النزاعات القبلية مثل(الأسلحة الرشاشة، ومدافع الهاون، والآر بي جي وغيرها) وهو ما ينزر بخطر كبير يهدد حياة المجتمع في الولاية.

6/ رغم أن هذا العصر هو عصر الوعي والتقدم التكنولوجي إلا أن التمسك بالأخلاق والقيم الدينية ظل يتناقص بصورة واضحة، الشيء الذي يجعل من قتل النفس وسرقة أموال الغير أمراً عادياً، فضعف الإيمان هو أحد أهم أسباب حالة التدني الأخلاقي.

7/ تراجع سلطة وهيبة الإدارات الأهلية والتي كانت في حقب سابقة تتمتع بصلاحيات واسعة عبر المحاكم الريفية، وكانت تتحكم بقوة في رعاياها، غير أنها لم تجد تلك المكانة التي كانت تتمع بها في السابق لأسباب عديدة.

الخطر الأكبر:

يتمثل الخطر الأكبر في تهديد السلام الاجتماعي بين مكونات الولاية في طبيعة تحركات وأوقات أنشطة المتفلتين، حيث أنهم ينشطوا في فترة الحرب بين القبائل، وذلك بدخولهم الحرب من أجل السرقات والنهب، فيدخلوا فيها بوسائلهم لحمل ما يستطيعون من مواد وأموال من الطرف الآخر في الحرب. وبعد عقد الهدنة بين طرفي النزاع يبدأ نشاط المتفلتين بصورة أخرى، حيث يقوم المتلفتون بسرقة أموال (مواشي) أهلهم والدخول بها في أرض غيرهم من منافسيهم وتسليمها لعناصر الشبكة في قبيلة أخرى بحيث عندما يتحرك الفزع لن يستطيع الدخول في أرض غيره بسبب العداء بينهما، فمثلاً في فترة النزاع بين قبائل الحَمَر والمسيرية وبعد هدوء الأحوال، يقوم المتفلتون من قبيلة المسيرية بسرقة أموال من المسيرية وتسليمها لعناصر الشبكة في قبيلة الحَمَر ويرجع المتفلتون إلى مناطقهم ويدخل أثر البهائم إلى مناطق الحَمَر، وعندما يصل الفزع منطقة الحدود توقفه القوات العازلة بين الطرفين، أو إذا دخل الفزع مناطق الحَمَر فإنه لا محالة سيدخل في حرب. ويحدث الأمر بصورة عكسية، حيث يقوم المتفلتون من قبيلة الحَمَر بسرقة أموال من الحَمَر وفي الحدود مع المسيرية يتم تسليمها إلى المتفلتون من قبيلة المسيرية، فيدخلوا بها إلى داخل أراضي المسيرية، ولن يستطيع الفزع تجاوز الحدود بين الطرفين، وإلا سيدخل في حرب، وقد أدى هذا الأسلوب إلى وقوع قتال بين فزع من قبيلة الحَمَر والمسيرية شمال شرق منطقة المحفورة أدى إلى مقتل أكثر من عشرين شخصاً. وكذلك يشنط المتفلتون في الشريط الحدودي بين جبال النوبة الغربية وديار المسيرية، مما أدى إلى إنعدام الأمن بصورة دائمة في ذلك الشريط، حيث تتم سرقة اموال المسيرية والدخول بها إلى الجبال، كما تتم سرقة أموال النوبة من الجبال الغربية والدخول بها إلى ديار المسيرية، وفي كلا الحالتين يتم تنظيم محكم في عملية التسليم والتسلم بين المتفلين في المنطقتين، الشيء الذي يؤدي إلى وقوع القتال بين المسيرية والنوبة في الجبال الغربية.

الدور الرسمي والشعبي في التصدي لظاهرة المتفلتين:

تطور أنشطة المتفلتين وتزايد أعدادهم، جعلهم معروفين وسط كل المكونات بالولاية، وقد أحدث نشاطهم خللاً أمنياً كبيراً في محليات الولاية المحتلفة، غير أننا نسمع عن كثرة الشكاوى والتضجر منهم دون أن نرى أي تحرك واضح لمحاربتهم، وفي لقاء مع أحد الأعيان في محلية السنوط[3] ذكر أن محاربة هذه الظاهرة أصبحت شبه مستحيلة، لأن كل مكون من مكونات ولاية غرب كردفان يحمي المتفلتين الذين يتبعون له، باعتبار أنهم الذين يحمون القبيلة ويدافعون عنها في حالة النزاعات مع قبيلة أخرى، لأنهم أهل حرب و(ناس حارة) كما يزعمون، مما يجعل تسليمهم للشرطة وتقديمهم للعدالة شيء مرفوض من قِبل الكثيرين. وفي السابق كانت الإدارة الأهلية هي أهم مرتكزات النظام الإداري القاعدي، وكانت تحكم قبضتها على كل أفراد القبيلة في الخارج والداخل، كما كانت مهابة الجانب ومحل فخر وإعتزاز من الجمهور، ومحل تقدير واحترام من قِبل الدولة لدورها الفاعل في تحقيق الضبط الاجتماعي. ولكن في وقتنا الحالي فقد فقدت الإدارة الإهلية هيبتها بصورة كبيرة، حيث برزت أصوات شبابية من المتعلمين تعارض بصورة واضحة سياسات الإدارات الأهلية، باعتبارها لا تواكب العصر الحالي، خاصة في السنوات الأخيرة من حكم الإنقاذ، والفترة الإنتقالية الحالية، إضافة إلى أن نظم الحكم الحديثة سحبت البساط من الإدارات الأهلية وجعلت المعتمد هو الذي يتصدى لمشكلات الجمهور التي كانت من صميم مسؤوليات رجل الإدارة الأهلية. لذلك ظلت الإدارات الأهلية عاجزة عن التصدي لمرتادي الإجرام. ومن الملاحظ أيضاً أن بعض المجرمين ظلوا يخفون جريمتهم في الثوب القبلي ليفلتوا بذكاء من العقوبة الفردية المتوقعة، لتتحمل قبيلتهم دفع الديات والخسارات نيابة عنهم، وهذا ما يشجع هذه الفئة على المضي قدماً في إرتكاب الجرائم دون أن ينالوا العقاب، ولذلك تظل هذه القبائل في صراعات مستمرة، إذا لم تتبرأ من أولئك المجرمين وتقدمهم للعدالة.(4) وقد أستغلت هذه الفئة النزاعات القبلية في الولاية لتحقيق أهدافها من السلب والنهب والقتل، فقد كانت فترة النزاعات القبلية هي أخصب فترة لتحركاتهم، فإذا ظهرت حرب قبلية في الولاية يجدها المتفلتون فرصة لتحقيق أهدافهم من السلب والنهب والحرق والقتل في بعض الأحيان، وذلك لأنه يتم إخفاء الجرائم تحت ستار الحرب القبلية. وبما إنه ليس هناك من يلم بالعرف القبلي أكثر من زعماء الإدارة الأهلية أنفسهم الذين ورثوا هذه الخبرة كابراً عن كابر، فإنه يرجى من حكومة الولاية أن تقوي وتمكن الإدارة الأهلية لتقوم بدورها في حل المشكلات العرفية، لأنه ليس هناك بديلاً للإدارات الأهلية في كثير من أرياف السودان في وقتنا الراهن، وعليها أن تتجنب كل ما يؤدي إلى إضعاف دور دور الإدارة الأهلية والتقليل من شأنهم. وفي الجانب الآخر ينبغي على زعماء الإدارات الأهلية القيام بواجبهم الملقى على عاتقهم، وهو ضبط سلوك أفراد قبائلهم، وعدم التستر على تجاوزاتهم في حالة انتهاك الأعراف، وإرتكاب الجرائم كالنهب المسلح والسرقات، وحرق القرى وقتل الأبرياء، والكف عن محاولات توفير الحماية للمجرمين على أمل الإستفادة منهم في اليوم الأسود. وليعلموا هم أيضاً أن إستمرار إحترام وتقدير المجتمع لهم يتوقف على قيامهم بدورهم

التقليدي المرتجى ك(كبير البيت) وفعاليتهم في المجتمع المتجدد الذي يزداد فيه الوعي يوماً بعد يوم. وعليهم أن يواكبوا عصرهم ويملكوا زمام الأمر في ديارهم حتى لا يكونوا طوع بنان (الأفندية) وأنصاف المتعلمين الذين يدقون طبول الحرب في مجتماعاتهم المحلية بدلاً من البحث عن السلام والتعايش السلمي بين قبائل المنطقة.[5]

أما دور أجهزة الدولة الرسمية فكان ضعيفاً ومحدوداً، يظهر فقط بعد وقوع الجريمة، بظهور بلاغ من أحد المواطنين أو مجموعة من المواطنين بعد تعرضهم للنهب أو السرقات، فتأتي قوة نظامية تتبع الأثر لمسافة ثم ترجع دون القبض على المجرمين، ومن ثم لن يتم تتبع المجرمين بصورة مستمرة عبر البحث عن أي معلومات تسهل معرفة الجناة والقبض عليهم، فالواجب يحتم على أجهزة الدولة الرسمية أن تطور وسائلها المضادة لمتابعة وملاحقة المتفلتين، ففي محلية السنوط حدثت أحداث في الطريق الرئيسي الرابط بين الفولة والأبيض شمال منطقة السنوط بالقرب من قرية أبوعريس، فأصبح المتفلتون ينفذون أهدافهم باستمرار في هذا الطريق، وعليه يجب وضع قوة مرابطة بالقرب من المنطقة تراقب الطريق وحركة المتفلتين باستمرار، وذلك عن طريق جمع المعلومات عنهم، فالمتفلتين أصبحوا معروفين بأسمائهم ومناطقهم وقبائلهم، ولكن لن يتجرأ أحد أن يقول لأحدهم: (أنت متفلت) لأن معرفتهم كانت بمرور الزمن وتتالي الأحداث عبر الإتهام فقط. وقد أفلحت القوات النظامية في القبض على بعض المتهمين منهم وقدمتهم للعدالة فخرجوا بالبراءة لأن الدليل لم يكن كافياً لإدانتهم.

الخاتمة:

وختاماً يمكن القول أن ظاهرة المتفلتين أصبحت من أكبر مهددات السلم الإجتماعي، وذلك لأن المواطن في ولاية غرب كردفان أصبح لا يشعر بالأمان في حلّه وترحاله، وأجهزة الدولة الرسمية ما زالت عاجزة عن القضاء عليها أو الحد منها، مما أفقد ثقة المواطن في الدولة. وللقضاء على هذه الشبكة يجب تفعيل كل القطاعات الرسمية والشعبية بالولاية، وتكامل أدوارها جميعاً لمحاربة هذه الظاهرة. فالتهرب من مواجهة هذه الظاهرة يساعد أكثر في انتشارها وتمددها، وقد عانى الباحث كثيراً في الحصول على معلومات من الجهات ذات الصلة بقضية المتفلتين، مثل الإدارات الأهلية والأعيان، فقد تهرب الكثيرون من المقابلة وذلك حرصاً منهم على أموالهم وأسرهم وأنفسهم من انتقام المتفلتين إذا علموا أن شخصاً ما أدلى بمعلومات عنهم، لأن الانتقام هو أحد وسائلهم لتخويف ملاحقيهم. لذلك تم جمع المعلومات من خلال معايشة الباحث للأحداث.

النتائج:

1/ بدأ المتفلتون أنشطتهم وتكوين شبكتهم بصورة تدريجية، حيث مرت بمرحلة السرقات، ثم التمرد على الحكومة، ثم تحولت إلى نهب مسلح، وعصابات منظمة، هددت أمن المجتمع في أماكن عديدة من الولاية.

2/ كان موقف الحكومة والمجتمع المحلي ممثلاً في الإدارات الأهلية ضعيفاً في الحد من خطورة المتفلتين وتزايد نشاطهم. مما ساعدهم على التمادي في السرقات والقتل والنهب.

3/ تبدأ محاربة هذه الظاهرة بأولياء الأمور، ولا شك أنهم على علم بتحركات أبنائهم، فالواجب عليهم ردع أبناءهم إذا ثبت لهم أنهم سلكوا طريق التفلت، وإذا لم يستجبوا لهم يجب تسليمهم للعدالة. ومن أولياء الأمور تنتقل المهمة إلى الإدارات الأهلية، ثم أجهزة الدولة الرسمية.

4/ انتشار السلاح بصورة مكثفة عند المواطنين دون متابعة من السلطات يشكل عاملاً رئيسياً في تشجيع التفلت.

التوصيات:

توصي الدراسة بالآتي:

1/ ضرورة تكاتف عناصر المجتمع المحلي وتجردها من الذات بالابتعاد عن حماية منسوبيهم، إذا ثبت إنهم ينتمون إلى المتفلتين، وتقديمهم للعدالة.

2/ على الإدارات الأهلية التصدي لهذه الظاهرة بكل قوة، وعدم استخدام العُرف في محاسبتهم، بل يجب تقديمهم للقضاء لينالوا العقاب اللازم.

3/ ضرورة تفعيل كل قطاعات المجتمع الرسمية والشعبية لمحاربة هذه الظاهرة. على أن تتبنى الإدارات الأهلية بالتنسيق مع حكومة الولاية قيام مؤتمر عام توضع فيه خطة متكاملة يتبعها عهد وميثاق لمحاربة ظاهرة التفلت.

المصادر والمراجع:

(1) آدم الزين محمد، والطيب إبراهيم أحمد وادي، النزاعات القبلية في السودان، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، الخرطوم، 1998م، ص124).

(2) سمير محمد علي حسين الرديسي، وأخرون، النزاعات القبلية في السودان وأثرها على السلم الإجتماعي والأمن القومي، مركز بحوث دراسات دول حوض البحر الأحمر، الخرطوم، 2021م، ص69).

(3) لقاء بين الباحث وأحد أعيان محلية السنوط، وهو أحد المهتمين جداً بقضايا السلام والتعايش السلمي، تم اللقاء في منطقة السنوط، في 2023/1/9م.

(4) آدم الزين محمد، والطيب إبراهيم أحمد وادي، مصدر سابق، ص127.

(5) آدم الزين محمد، والطيب إبراهيم أحمد وادي، المصدر السابق، ص135.

النشاط البحري لليونانيين والرومان في البحر الأحمر
(دراسة تحليلية لمقومات الاقتصاد الأزرق في ضوء الكتابات القديمة)

أ.عائشة عالم
باحثة دكتواره - جامعة الملك عبدالعزيز - المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الكتابات اليونانية والرومانية التي تناولت تاريخ الملاحة في البحر الأحمر، بوصفها مصادر أساسية لفهم طبيعة النشاط البحري في العصور الكلاسيكية. وتسعى إلى دراسة الأبعاد الاقتصادية لهذا النشاط من خلال قراءة تاريخية نقدية تعيد تفسيره في ضوء مرتكزات الاقتصاد الأزرق، باعتباره إطارًا تحليليًا يُعنى باستثمار الموارد البحرية وتنظيم الشبكات التجارية وضمان استمراريتها. وتبرز أهمية الدراسة في إبراز البحر الأحمر فضاءً اقتصاديًا حيويًا أسهم في تشكيل شبكة تبادل بحري اتسمت بدرجة من التنظيم وتطور البنية التحتية للموانئ والملاحة. وقد اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي من خلال فحص النصوص الكلاسيكية في سياقها الاقتصادي والسياسي. وتوصلت إلى أن الحضور اليوناني في الملاحة كان محدودًا نسبيًا، في حين برز الدور العربي خلال الفترة الرومانية، رغم القيود المفروضة، مع ضرورة قراءة الروايات الرومانية قراءة نقدية نظرًا لطبيعة منظورها.

الكلمات المفتاحية: النشاط البحري، الكتابات الكلاسيكية، اليونانيون، الرومان، الاقتصاد الأزرق، البحر الأحمر.

Maritime Activity of the Greeks and Romans in the Red Sea (An Analytical Study of the Components of the Blue Economy in Light of Ancient Writings)

A.Aiesha Ismail Alem

Abstract :

This study examines Greek and Roman writings on navigation in the Red Sea as primary sources for understanding maritime activity in classical antiquity. It explores the economic dimensions of this activity through a critical historical reading that reinterprets it in light of the principles of the blue economy, understood here as an analytical framework concerned with the utilization of marine resources, the organization of commercial networks, and the sustainability of maritime

exchange. The study highlights the Red Sea as a vital economic space that contributed to the formation of a structured maritime network supported by port infrastructure and navigational systems. Adopting a historical descriptive–analytical approach, the research analyzes classical texts within their economic and political contexts. The findings indicate that Greek involvement in Red Sea navigation was relatively limited, whereas the Arab role became more prominent during the Roman period, despite existing constraints. The study also emphasizes the need for a critical reading of Roman accounts.

Keywords: Maritime Activity, Classical Sources, Greeks, Romans, Blue Economy, Red Sea.

المقدمة :

شهد العقد الماضي اهتمامًا متزايدًا من قِبل الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة بتطوير منظومات الاقتصاد البحري، فيما عُرف بمفهوم "الاقتصاد الأزرق"، الذي يهدف إلى استدامة الموارد البحرية، وتعزيز الإدارة الإقليمية للموانئ، وتنظيم حركة الملاحة الدولية في الممرات المائية، إلى جانب حماية البيئة البحرية. ويُعد البحر الأحمر أحد أبرز هذه الممرات الحيوية، نظرًا لموقعه الاستراتيجي الذي ربط منذ القدم بين البحر المتوسط والمحيط الهندي، وأسهم في تشكيل شبكات التجارة الدولية عبر العصور.

غير أن أهمية البحر الأحمر لا تقتصر على الرؤية المعاصرة، بل تمتد جذورها إلى العصور التاريخية المبكرة؛ حيث شهد نشاطًا اقتصاديًا مكثفًا، وتنافسًا حضاريًا للسيطرة على طرق الملاحة فيه. ويُشير تاريخ النشاط البحري إلى أن العرب والمصريين كانوا من أوائل الشعوب التي أسهمت في وضع أسس الملاحة والتجارة في هذا الممر المائي منذ عصور سحيقة. فقد اتسعت شبكة التجارة العربية لتصل إلى مناطق بعيدة، ويُستدل على ذلك بالاكتشافات الأثرية، ومنها العثور على فخاريات عربية جنوبية على السواحل اليونانية 1 ، مما يعكس اتساع نطاق التبادل التجاري البحري وتداخله مع فضاءات المتوسط.

وفي العهد الهلنستي ثم الروماني، تعزز هذا النشاط البحري في ظل توسع النفوذ السياسي لليونانيين والرومان في الأقاليم المطلة على الساحل الغربي للبحر الأحمر، ولا سيما مصر. وقد سعت هذه القوى إلى تنظيم حركة الملاحة والتجارة من خلال تطوير الموانئ والبنية التحتية، وعقد تحالفات تجارية وسياسية مع القوى الساحلية، وإنشاء منظومة بحرية لحماية السفن من القرصنة. وازدادت الصرامة الإدارية في العهد الروماني، حيث عزز الرومان وجودهم العسكري حول الموانئ، وفرضوا رسومًا جمركية على السفن التجارية المارة عبر مناطق سيطرتهم. وفي المقابل، لم يكن العرب في الجزيرة العربية بمنأى عن هذه التحولات، إذ واجهوا محاولات الهيمنة بأساليب

تجارية مكّنتهم من الحفاظ على حضورهم الفاعل في شبكات التبادل البحري. ومن خلال تتبع هذه المعطيات، يمكن قراءة إدارة البحر الأحمر في تلك العصور بوصفها تجربة تاريخية مبكرة لتنظيم النشاط البحري واستثمار موارده بصورة منظمة، وهو ما يتيح مقاربة تاريخية لمفهوم الاقتصاد الأزرق في سياقه المعاصر.

أما المصريون، فقد ساهموا في رسم خرائط ملاحية وجيولوجية2للبحر الأحمر وحددوا أهم الموانئ البحرية على طول الساحل الغربي له. ومن أهم هذه الخرائط الخريطة الجيولوجية الإرشادية والمحفوظة اليوم في المتحف الإيطالي 3، ويُعد نقل المعادن من أهم الأنشطة البحرية التي اهتم بها المصريون القدماء منذ عصر نقادة الأولى 3500)ق.م – 4000ق.م 4 . وقد استفاد اليونانيين من هذه الجهود العربية والمصرية فقاموا بتطوير المنظومة البحرية الدولية أثناء حكمهم لمصر والذي سعوا من خلاله إلى بسط نفوذهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر5فمنذ عهد الإسكندر الأكبر (336 ق.م – 323 ق.م) حرصوا على استيعاب المعارف والعلوم البحرية وتدوين الملاحظات الأنثربولوجية للمناطق التي استولوا عليها 6 ، فقد اصطحب الإسكندر معه مجموعة كبيرة من المؤرخين والجغرافيين لهذا الغرض ، والذي يعدُ من أهمهم أونيكسريستوس 360) ق.م – 290 ق.م (، والذي دون بعض الملاحظات عن الملاحة في البحر الأحمر 7.

ثم تابع البطالمة) 323 ق.م – 30 م (جهود الإسكندر، فقاموا بإرسال بعثات استكشافية إلى السواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر .ومن أهم رحلاتهم الاستكشافية رحلة فيلون عام 280 ق.م إلى سواحل النوبة، حيث وثّق فيها ملاحظاته الجغرافية والتاريخية، ووصف عادات شعوب النوبة، ممهّداً الطريق أمام البطالمة لتحديد كيفية التعامل معهم، سواء من خلال التحالف السياسي والتجاري أو الاكتفاء بالتبادل التجاري دون عقد اتفاقيات سياسية رسمية 8يظهر أيضاً جلياً في تحالفاتهم مع المعينيين 750)ق.م -100 ق.م(واللحيانيين 600)ق.م – 100 ق.م(لحماية أمن الملاحة في البحر الأحمر، ومقاومتهم احتكار الأنباط 169) ق.م -106 م(للتجارة فيه 9.

ثم اكتملت أركان فرض السيطرة على النظام البحري وإدارة موارد البحر الأحمر خلال العهد الروماني، حيث بسط الرومان هيمنتهم العسكرية على معظم الموانئ، فحصلوا على امتياز تشغيلها ، ونشطوا التجارة الحرة في البحر الأحمر 10، ولكن بالمقابل قاموا بجباية الضرائب، وذلك بفرض رسوم جمركية على السفن التجارية ، كما عملوا على دعم العلماء المختصين بعلوم البحار، فازدهرت الأبحاث العلمية والمؤلفات المختصة بهذا الشأن ، وهذا ما مكنهم من القدرة على تطوير دفاعاتهم البحرية وعزز من وجودهم الإقليمي في البحر الأحمر ، وذلك من خلال تأسيس جيش بحريّ قويّ بهدف تأمين طرق الملاحة وحماية السفن والموانئ من القراصنة11.

وأحد أهم المصادر لدراسة التاريخ البحري اليوناني والروماني في البحر الأحمر هي الكتابات الكلاسيكية والرومانية ، وذلك لشموليتها في تناول جانب التاريخ الاقتصادي والسياسي لليونانيين والرومانين أثناء تواجدهم في المنطقة خلال تلك الفترة ، وهذا ما سيشكل أساساً تاريخياً لمفهوم الاقتصاد الأزرق في الوقت الحالي ، فمن أهم هولاء الكُتاب : هيرودت 484) ق.م – 425 ق.م (،

وسترابون الجغرافي 64) ق.م – 24 م (، وكاسيوس ديوس 155) م – 235 م (وغيرهم . وتهدف هذه الدراسة بدورها إلى تحليل هذه الكتابات للوصول إلى تاريخ النشاط البحري الدولي في البحر الأحمر في تلك الفترة تحديداً منذ بداية التوسع اليوناني خلال القرن الرابع قبل الميلاد ووصولًا حتى نهاية الحكم الروماني في القرن الخامس الميلادي ،والتي يعد من أبرز مظاهرها : سعيهم للحفاظ على أمن الملاحة ، ومحاولتهم لتوحيد نظم التجارة الدولية ، وتطوير العلاقات السياسية بينهم وبين الدول التي لها نفوذٌ بحري على البحر الأحمر ، وستقوم هذه الدراسة كذلك بتسليط الضوء على أهم الأساليب اليونانية والرومانية للاستدامة البحرية بغرض الاستفادة منها في تطوير استراتيجيات جديدة للاقتصاد الأزرق خلال الوقت الحاضر .

1.1 تاريخ النشاط البحري في البحر الأحمر قبل العهد اليوناني والروماني :

اكتسب البحر الأحمر مكانته التاريخية من موقعه الجغرافي المتوسط بين قارات العالم القديم، حيث كان يُعتبر نقطة الوصل بين المراكز التجارية الواقعة في قارة آسيا وأفريقيا12. وكان المصريون من أوائل من أدركوا أهمية البحر الأحمر، فاستفادوا من خبرتهم الملاحية في نهر النيل لتسيير رحلات استكشافية إلى مناطق جديدة في البحر الأحمر13 ومن أبرز هذه الرحلات التاريخية رحلتهم إلى بلاد بونت ، التي يُعتقد أن وصولهم إليها كان أقدم من عهد الملكة حتشبسوت 14، التي اشتهرت بإرسال بعثة مصرية إليها بهدف الاستكشاف والتبادل التجاري 15. وقد نتج عن هذه الرحلات تطورٌ في المفهوم الجغرافي البحريّ لدى لمصريين ، حيث قاموا برسم العديد من الخرائط الجولوجية والبحرية ولعل من أبرزها تلك الخريطة المكتشفة مع بردية تورين والتي تصور المناجم الواقعة ي المنطقة الصحروايةالقريبة من ميناء القصير16 ، بالإضافة إلى دقتهم في اختيار مواقع إنشاء الموانئ التجارية ، حيث كانوا يقومون بدراسة السمات الجغرافية للمنطقة أولاً، لمعرفة ما إذا كانت هذه مناسبة لرسو السفن والأساطيل التجارية فيها أم لا 17.

أدت هذه الجهود المصرية إلى ازدهار النشاط التجاري في البحر الأحمر ونشوء تعاون إقليمي بين شعوب المنطقة. وعلى الرغم من ذلك، اقتصر النشاط البحري المصري في البداية على الساحل الغربي للبحر الأحمر 18 ، لكنه توسع لاحقًا ليشمل الساحل الشرقي أيضًا19، هذا التوسع أسهم في نشوء وعي جماعي لدى الأمم الأخرى بأهمية مصر الاستراتيجية والاقتصادية، مما جعلها عرضة لمطامع الغزو الخارجي، حيث كان الهدف من هذه الغزوات السيطرة على مصر والوصول إلى منافذها البحرية ، من أبرز هذه المحاولات كان غزو "شعوب البحر"20، الذين هزموا على يد الفرعون رمسيس الثالث 21 . وبعد ضعف النشاط البحري المصري في البحر الأحمر، برز الدور الفينيقي بشكل كبير 22 ،فقد قام الفينيقيون بعقد صفقات تجارية مع العرب في جنوب الجزيرة العربية لنقل بضائعهم إلى المراكز التجارية في شمال أفريقيا وجنوب أوروبا ، وساهمت مهاراتهم المتقدمة في صناعة السفن التجارية23، بالإضافة إلى امتلاكهم العديد من الموانئ التجارية والبحرية، في تعزيز دورهم كوسطاء تجاريين بارعين. كما كانت معرفتهم العميقة بطبيعة الشعوب وأساليب التجارة البحرية عاملاً مهماً في نجاحهم في هذا المجال.24

لكن على الرغم من ذلك تفوق العرب في التجارة البحرية في البحر الأحمر ، حيث كانت لهم مراكز تجارية وموانئ مخصصة لاستقبال السفن التجارية الدولية ، والتي يعد من أهمها : ميناء عدن والموزع 25 ، حتى إن النقوش المسندية المكتشفة في جنوب الجزيرة العربية أظهرت الاهتمام العربي بالتجارة وفنونها ، فقد تكرر في النقوش كلمة التجارة ( ) إلى جانب أسماء بعض التجار 26 .

إضافة إلى ذلك برع العرب في جنوب الجزيرة العربية في صناعة السفن التجارية والعسكرية كما تظهر الرسومات الصخرية المكتشفة في كهوف ظفار27 ، واعتنوا كذلك بأمان النقل البحري لبضائعهم وذلك عن طريق تخصيص مسارات نقل بحرية تتوفر بها نقاط توقف ومراكز تزودها بالماء والغذاء28 ، ثم اتسعت شبكة التجارة العربية الدولية بفضل اكتشافهم نظام الرياح الموسمية ، والتي استطاعوا من خلالها الوصول إلى الموانئ الهندية ومنها إلى مصر وجنوب أروبا ، وهذا التفوق العربي التجارة أدى إلى شدة التنافس التجاري بين الحضارات والدول الناشئة في تلك الفترة29 .

2.2 النَّشاط البحريّ لليونانيِّين قبل انخراطهم في الأنشطة البحريَّة في البحر الأحمر:

اكتسب اليونانيين الخبرة البحرية منذ فترة مبكرة ، إذ كانوا على اتصال تجاري مع الشعوب العربية والفنيقية باعتبارهم أهم الموردين للسلع الاستهلاكية الدولية ، فعلى سبيل المثال كان الطلب على الثياب الأرجوانية الفنيقية مرتفعاً في الأسواق اليونانية ، وهذا ما دفع التجار اليونانيين إلى إبرام علاقات وصفقات تجارية مع الفنيقيين والتي كانت نواة للعلاقات السياسية والتحالفات الدولية معهم فيما بعد[1] ،لكن لم تتطور الفنون الملاحية عند اليونانيين إلا بعد الغزو الفارسي الإخمينيي لبلادهم ، و هذا أدى بدوره إلى نشوءٍ وعيٍ جمعيّ لديهم بضرورة التحالف وتكوين قوة بحرية للتغلب على الفرس ، وبالفعل انتصروا عليهم – أي الفرس - في معركة سلاميس البحرية عام 480ق.م30. ، ثم أعقب هذا الانتصار رغبتهم في العمل على تطوير منظومة النقل البحري المدنيّ والعسكري ، فقاموا بابتكار نماذج جديدة للسفن من أهمها السفن الثلاثية المجاديف والتي مكنتهم من الوصول إلى مناطق جغرافية جديدة مثل : قبرص ومصر31.

وتزامن ذلك مع تطور المفاهيم الاقتصادية لدى اليونانيين ، فقد نشأت مدارس فلسفية اقتصادية وسياسية ، والتي يعد من أهم روادها أفلاطون 428) ق.م -348 ق.م (،الذي ناقش في كتابه " الجمهورية " مفهوم الثروة وأحقية توزيعها ورجح فكرة الملكية العامة لممتلكات الدولة -بما في ذلك مواردها البحرية -، لكن اختلف معه أرسطو 384) ق.م -322 ق.م (الذي زعم بأنه لا يمكن محاربة النزعة الفردية في الثروة وطرق امتلاكها32 ،وهذا يدل على تقدم وتطور الفكر الاقتصادي اليوناني خصوصاً في تلك الفترة التي كانوا يقاومون فيها الاستعمار الفارسي ، ويظهر أن كلا من أفلاطون وأرسطو قد أثروا بشكل غير مباشر على المنهجية الاقتصادية الفكرية لإسكندر الأكبر ، وهذا ما يظهر من خلال خططه للاستيلاء على المنافذ والمناطق البحرية المهمة لضمها إلى الملكية العامة لإمبراطورية اليونانية34.

لكن انقسمت الأنظمة البحرية الاقتصادية اليونانية قبيل وفاة الاسكندر الأكبر عام 323 ق.م إلى نظامين إحداهما كانت تحت الإدارة البطلمية في مصر والأخرى كان يديرها السلوقيين في لإقليم السوري ، لكن التفوق في الريادة البحرية كان من نصيب البطالمة ، الذين أحسنوا استغلال الموارد المائية التي غنموها نتيجة للموقع الجغرافي لمصر ، والتي كانت تمتلك حدوداً بحرية مطلة على البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ،فقاموا بإنشاء الأرصفة البحرية المتطورة إضافة إلى بنائهم العديد من الموانئ على طول الساحل الغربي للبحر الأحمر 35 ، وساهموا في تطوير قطاع صناعة السفن وصيانتها فقد تم مؤخراً اكتشاف ورشة لإصلاح وصيانة السفن في تل أبو صيفي شمال سيناء والذي من المرجح أنها تعود إلى زمن الحكم البطلمي لمصر36. وأثمرت جهودهم في بناء الموانئ إلى تسهيل التبادل التجاري بين الموانئ المصرية البطلمية مثل : ميناء ميروس ، وبيرنفيوس والإسكندرية 37 ،و الموانئ الواقعة في الساحل الشرقي للبحر الأحمر مثل : ميناء العقبة والجار ولوكي كومي [2]، ، كما بذلوا جهودهم لتطوير العلاقات السياسية التجارية مع القوى الإقليمية في المنطقة آنذاك ، خصوصاً مع العرب الذين كانوا يتملكون قطاع تصدير منتجات البخور ومشتقاته وسعى البطالمة إلى توطيد علاقتهم بهم38 ، وقد بلغت هذه العلاقات أوجها خلال عهد بطليموس الثاني284) ق.م -246ق.م 39 .

كذلك حرصوا على أمن الملاحة في مياه البحر الأحمر بغية المحافظة على شبكة التجارة الدولية البحرية ، وبالفعل ازدهرت التجارة البحرية في عهدهم حتى وصلت سفنهم إلى الهند وإلى آسيا الصغرى وذلك استناداً إلى نتائج التحليل الأثري ل ,كسر الفخار والأختام المكتشفة40 ، وقد كانت السفن البطلمية التجارية التي تحمل البضائع لها طابعٌ تصميمي خاص يمكنها من تحمل الإبحار عبر المسافات الطويلة ، ويمكن الإطلاع على نماذج منها من خلال النظر إلى السفن الغارقة والمكتشفة في موقع مدينة هيرقلون ، حيث كانت تتميز هذه السفن بالحوض الطويل إضافة إلى وجود العديد من المجاديف التي مكنت البحارة من تقصير مدة السفر ، كما كانت تمتلك شراعاً لاعتماد هذه السفن على الرياح أثناء التنقل41.

3.1 النَّشاط البحريِّ الرُّومانيِّ قبل إدارتهم للأنشطة البحريَّة في البحر الأحمر:

اختلفت طبيعة الرومانيين عن اليونانيين في امتلاك الخبرة البحرية ، إذ كان الرومان أمة زراعية لم يهتموا بالحياة البحرية وتطويرها إلا بعد تصاعد النفوذ القرطاجي في البحر الأبيض المتوسط وتمكنهم من حكم مناطق واسعة حتى وصلوا إلى شبه الجزيرة الإيبرية ، حيث بدأ الرومان على إثر ذلك استشعار الخطر القرطاجي الذي قد يهدد الأراضي الرومانية، فقاوموا بخوض معارك بحرية وبرية ضدهم في عدة مواجهات ، والتي سميت فيما بعد بالحروب البونيقية 264) ق.م – 146 ق.م (،والتي انتهت بانتصار الرومان على القرطاجيين، لكن بعد قيام الرومان بتدمير مدينة قرطاج عام 146 ق.م42 ، ،قاموا بالتوسع الجغرافي حتى بسطوا سيطرتهم على كافة الممتلكات اليونانية حتى وصلوا إلى مصر ،وبذلك أصبح الرومان قوة إمبراطورية مهيمنة في المنطقة43.

ثم سيطر الرومان على مصر في عام 30م ، بعدما تخلصوا من الحكم البطلمي فيها ، وأصبحوا بذلك يتملكون نفوذاً وتأثيراً على التجارة والملاحة في البحر الأحمر ، كما قاموا بتعيين والي

روماني عليها ، لكن اختلف الحال في العهد الروماني عن اليوناني فيما يخص التشريعات والقوانين والاتفاقيات التجارية إذ كانت تصدر الموافقة من روما ويقوم الوالي بتنفيذها 44 ،خلاف ماكان عليه الحال في عهد البطالمة الذين كانوا يملكون الحرية تقرير القوانين التجارية البحرية ، لكن على الرغم من ذلك كان الرومان مدركين لأهمية التحالف مع الدول المحورية في البحر الأحمر لتعزيز نفوذهم ومكانتهم ، فقد كانت أولى اتفاقياتهم التجارية مع الانباط 169) ق.م – 106 م (، الذين كانوا يتحكمون في تجارة شمال شرقيّ البحر الأحمر45.

وبعدما استتب الأمر للرومان في المنطقة قاموا بالتحالف مع حكام جنوب الجزيرة العربية بهدف تأمين طرق الملاحة البحرية لهم من جنوب البحر الأحمر إلى شماله 46 ،وهدفوا بذلك إلى توسيع نطاق السوق التجارية الرومانية في البحر الأحمر ، لكن بالمقابل واجهوا تحديات أمنية وفترات من الركود الاقتصادي في تجارتهم في البحر الأحمر بسب الاضطرابات السياسية والعسكرية47 ، وبسب ذلك تبنى الرومان مجموعة من القوانين لإدارة الملاحة وحماية أمن أساطيلهم العسكرية والتجارية في البحر الأحمر ، فقاموا بتأسيس قوة بحرية مهمتها مراقبة حركة الملاحة وسير السفن ، وكانت هذه القوات تتخذ من بعض الجزر في البحر الأحمر قاعدة عسكرية مؤقتة لها ، وذلك وفقاً لأحد النقوش الرومانية المكتشفة في جزيرة فرسان 48 .

و يعتبر الإمبراطور ترجان 91)م – 117م (هو المؤسس للقوات الرومانية البحرية في البحر الأحمر ، إذ قام بتجهيز سفن الأساطيل العسكرية بمعدات وأسلحة مثل : المدافع والمنجنيق بغية حماية السفن التجارية من هجوم القراصنة عليها 49، وبمقابل توفير الرومان هذه الحماية البحرية للسفن فرضوا عليها رسوماً جمركية خصوصاً لتلك السفن التي تمر عبر الموانئ المصرية 50، وكانت الضرائب تؤخذ وفقاً لحجم السفينة ووزن الحمولة وذلك بالاستناد على ما ورد في بردية تم اكتشافها في ميناء موزيريس الهندية والتي تحتوي على قائمة بالتكاليف الجمركية لسفينة تجارية متوسطة مرت عبر إحدى الموانئ المصرية الرومانية . 50 .

لكن الإدارة الرومانية للنشاط البحري في البحر الأحمر واجهت العديد من العقبات من بينها : رفض العرب الذين كانوا يسيطرون على التجارة الدولية في الفترات السابق هيمنة الرومان ،وقاوموا بتطوير منظومات تجارية مكنتهم من الاستمرار في تصدير منتجاتهم فلم يستطع الرومان مقاومتهم ، كما واجه الرومان كذلك الاضطرابات السياسية والاجتماعية نتيجة اتساع رقعة بلادهم وصعوبة إدارة كل أقاليمها دون مواجهة مشكلات أو مخاطر ،وهذا بدوره أدى إلى إضعاف الدور المحوري الروماني ، وظهر على إثر ذلك قوى موازية شاركت في إدارة الشؤون التجارية والأنشطة البحرية في البحر الأحمر51 .

4.1 النشاط البحري لليونانيين والرومان في البحر الأحمر في ضوء الكتابات الكلاسيكية والرومانية:

أدرك اليونانيين أهمية البحر الأحمر منذ العصور التاريخية المبكرة ، إذ وصفوا الأثيوبيين في إلياذتهم بالمخلصين للآلهة وأن لهم احتفالاتهم التي يشاركون بها 52، لكن معارفهم البحرية بدأت

تتشكل وتتطور بعد نشأة حركة التدوين والتوثيق العلمي الشامل للعلوم ، فمن أهم رواد هذه المرحلة العلمية هيرودت 484) ق.م - 425 ق.م(، الذي قام بتوثيق المرويات الشعبية والأخبار والأساطير ، إضافة إلى تسجيله ملاحظاته الخاصة عما رآه أثناء رحلاته إلى مصر وجنوب الجزيرة العربية ، ثم قام بجمع هذه الكتابات في موسوعةٍ تاريخية مكونة من تسعة أجزاء 53، وأشار فيها إلى أن أصول المعرفة اليونانية المبكرة بأهمية النشاط البحري في البحر الأحمر يعودُ إلى عهد التجار الفنيقين الذين كانوا يجلبون البضائع إلى اليونان .54 .

لكنه قدم كذلك وصفاً لبعض الموانئ في البحر الأحمر واختص بالذكر بعض الموانئ العربية ، ويبدو من خلال وصفه المقدم بأن هذه الموانئ كانت تمتلك بنية تحتية وقدرة على تقديم خدمات لوجستية للسفن التجارية 55، ومن المنطقي أن هذا التطور كان نتاجاً لأرباح والإيرادات التي كانت تعود على العرب من قطاع إنتاج البخور ، لكنهم كانوا يحتكرون خطوات الإنتاج ويحتفظون بها لأنفسهم 56 ،وليست هذه الأوصاف عن حال الموانئ والسواحل في البحر الأحمر إلا نتاجاً لتقارير البعثات الإستطلاعية اليونانية التي قدمت إلى البحر الأحمر لجمع المعلومات المباشرة عن المنطقة ومقارنتها بالتصور الأوليّ الذي امتلكوه من نظرائهم الفنيقيين57، لتساهم نتائج -هذه البعثات- في تطوير الاستراتيجيات العسكرية والسياسية اليونانية للاستيلاء على النشاط التجاري في المنطقة فيما بعد .

وقد قام اليونانين بالاستفادة من نتائج البعثات الاستشكافية لمناطق الساحلية في البحر الأحمر ، فقد تمكنوا من حكم مصر وأصبحوا جزءاً من الشبكة التجارية الدولية في البحر الأحمر58،خصوصاً في عهد البطالمة وهذا ما يظهر جلياً من خلال كتابات ثيوفراستوس 371) ق.م –287 ق.م (، الذي استطاع دراسة الحياة الفطرية في جنوب شبه الجزيرة العربية ، و تمكن من البحث في طبيعة النباتات التي كانت سبباً في ثراء العرب كما يبدو ،فمن أهم هذه النباتات التي وصفها نبات الكاسيا ، والتي قال في وصفها ":وحتى هذا النباتُ فإنه نادرٌ بس , بسب الحرارة وقلة الماء ، إذ إنها لا تُمطرُ إلا على أزمنةٍ متباعدة ربما تصل إلى أربع, سنوات أوخمس ".. 59، إذ كان ثمن الكاسيا مرتفعاً وباهظاً نتيجة لندرته ،غير أن الدقة في الوصف – عند ثيوفراستوس - ،يُظهر أن البطالمة نجحوا في إقامة علاقات سياسية وتجارية مع العرب ، أتاحت لهم فرصة دراسة طبيعة المنتجات العربية والتعرف على ماهيتها .

وتزامن التطور السياسي للبطالمة مع نشوء نهضة علمية في تصنيف المعارف الاقتصادية ،خاصة التأليف في الجغرافية التجارية ، والذي يعتبر أجاثار خيديس 120) ق.م - 160 ق.م(أبرز مؤسسيه 60،حيث ذكر في مقدمة كتاب ,ه النظريات العلمية حول تسمية البحر الأحمر ، واتبع منهج الحياد في ترجيح النظرية الأقرب إليه كما يرى 61 ، إضافة إلى استعراضه لأهم الموانئ التي تقع على الجانب الشرقي والغربي للبحر الأحمر ، مع تقديمه تقريراً تحليلياً عن حال كل ميناء وما يجاورها من المناطق الساحلية ، ومثال ذلك وصفه لسواحل الثمودية بأنها لا تملك بنية تحتية ولا تصلح لتوقف السفن 62، كما قام بدراسة معمقة لبعض الأنشطة البحرية في البحر الأحمر

فقد ذكر التعدين ،وصيد الأسماك 63، وتابع جهود من سبقه من المؤلفين والمؤرخين فقام بدراسة المنهج الفكري الاقتصادي للسبئيين وسماهم بأمة الإنتاج الذين يرفضون الاستهلاك المجرد دون تخطيط كما كان يفعل اليونانيين 64، ويبدو أن الفترة التي عاش فيها أجاثار كانت فترة اضطرابات سياسية حيث ذكر بأن البطالمة أسسوا قوات بحرية دفاعية مهمتها محاربة القراصنة الذين كانوا يستهدفون السفن و المصالح التجارية البطلمية في البحر الأحمر 65 .

ثم تبع ذلك فترة اضطراب سياسي وصعود قوى إقليمية منافسة للبطالمة كما يذكر ديدورس الصقلي 90) ق.م - 30م(، حيث كانت السياسة البطلمية الداخلية تعاني من اضطرابات وصراعات أثرت على سياستها التجارية الخارجية ، إذ برز الأنباط كقوة تجارية جديدة في المنطقة ، وقدم ديدورس وصفاً لهوية أهم منتجاتهم وهو" القار " ، الذي كان متعدد الاستخدامات حيث كان يستخدم للأغراض اليومية والطبية إضافة إلى استعماله في تحنيط الجنائز66، وأشار إلى أن المنتجات العربية مثل : المر والبخور ، أصبحت شائعة الاستخدام بين مختلف الطبقات الاجتماعية بما في ذلك الطبقة الفقيرة ، إذ ذكر : "ويوجد لدى الشعوب بكمياتٍ صغيرة 67 "...،إضافة إلى تنوع الأنشطة التجارية في البحر الأحمر كما يذكر ، فمن أهم هذه الأنشطة : نقل العمالة بين السواحل الشرقية والغربية للعمل 68، وتوسع السوق الصناعية العربية الجنوبية وتصديرها لمنتجات جديدة مثل : الحلي المصنعة من الأحجار الكريمة69.

لكن اختلفت السياسية الاقتصادية التجارية في البحر الأحمر بعد سقوط مصر في يد الرومان ، بالرغم من أن الرومانيين تابعوا في مواصلة الجهود البطلمية اليونانية في دراسة أنثربولوجية الشعوب والسكان في منطقة البحر الأحمر ، وعلى إثر ذلك ظهرت حركة علمية جديدة اهتمت بنقد المنهج اليوناني الجغرافي والتاريخي ، وتميزت المؤلفات الرومانية التي صُنفت في هذه المرحلة بأن منهجها في التأليف أكثر مصداقية نتيجة لتوافر المصادر والمعلومات الكافية التي مكنتهم من التحليل والنقد العلمي ، وهذا ما يظهر في جغرافية سترابون 64) ق.م - 24م(2 70، الذي أشار إلى أن الرومان اعتبروا العرب الذين يتملكون قطاع الإنتاج في البحر الأحمر على أنهم موردٌ مالي محتمل للثروة ، فقاموا بفرض الضرائب عليهم وجعلوا من إيراداتها مصدر دخل مهم لروما 71، كما أنهم قاموا بدراسة الفكر السلوكي العربي في مجال التجارة وتوصلوا إلى أن العرب كانوا يعلمون أبنائهم مهنة التجارة وعلومها منذ سنٍ مبكرة بهدف توريث الخبرة والحفاظ على استمرارية المكانة التجارية العربية 72، وفي سياق هذا التحول تبنى الرومان سياسية التحكم في النشاط البحري في البحر الأحمر وتوحيد نظم التجارة والملاحة فيها ، واعتبار عوائدها المالية جزءاً من ميزانية الإمبراطورية الرومانية 73 .

ولإحكام السيطرة على النشاط التجاري في البحر الأحمر اهتم الرومان بدراسة الاستراتيجيات العسكرية اليونانية والتي مكنت الاسكندر الأكبر من ضم مناطق واسعة إلى إمبراطوريته74،إذ يذكر أريانوس 86) - 160م(سيرة الإسكندر ضمن إطارٍ تذكيري للرومان بأن الفضل في حكمهم لبحر الأحمر والمواقع الاستراتيجية الهامة يعود إليه – أي الإسكندر- ، ولا بد لهم من اتباع نهجه

في السياسية الاقتصادية التي خطط لها من خلال محاولت ,ه ضم شبه الجزيرة العربية إلى حكمه 75 ،ولخدمة هذه الأهداف طور الرومان من نظم المعلومات الجغرافية ، والذي برع فيه بطليموس كلاديوس 100)م -180م (76، إضافة إلى مساهماته الأخرى في تطوير علم الفلك البحري عبر مصنفه "المجسطي 77"، كما سعى الرومان إلى دراسة الخبرات الملاحية البحرية العربية ومحاولة الاستفادة منها ، متبعين بذلك نهج الاسكندر الأكبر وفقاً لبلوتارخس 46) م - 120 م(780 .

أما حال الأسواق الساحلية التجارية في البحر الأحمر خلال العهد الروماني فقد شهدت تحولًا جذرياً مقارنة بالفترة البطلمية ، حيث قدم مؤلف كتاب " الطواف حول البحر الإريثري " تقريراً عن نشأة العديد من مراكز التجارة البحرية في البحر الأحمر والتي كانت تملك موانئ تابعة لها ، وطبيعة هذه الموانئ تختلف إذ كان يحتوي بعضها على مراسي طبيعية للسفن ، وأخرى موانئ تم تشييدها من قبل الحكام لتلك المناطق79 ،لكن بعض هذه الموانئ دمرت نتيجة للصراعات العسكرية الرومانية مثل : ميناء عدن 'الذي ظل مدمراً لفترة طويلة ثم قام العرب بإعادة بنائه وتشغيله80.

كما تميزت هذه المراكز بكثرة السلع المتوفرة، والتي من أهمها : الآواني والحلي والأسلحة إضافة إلى وجود وكلاء لتجارة الرقيق فيها 80، كذلك انتشرت ظاهرة بيع المنتجات المقلدة فيبعض الأسواق وظهر مفهوم الغش التجاري بسب احتكار السلع من قبل بعض التجار وفقاً لبلينيوس الأكبر 24)م - 79م(81، كما أن ازدهار الحركة التجارية ونشوء العديد من الأسواق التجارية مكنت روما من فرض الضرائب على جميع هذه الأسواق ، وكانت كل دولة تعطي حصتها من الضرائب إلى روما في شكل منتجات وليس بمقابل قيمة نقدية 82، وكان الرومان يقومون بتخزين هذه المنتجات في مخازن مخصصة وفقا لديوكاسيوس 155)م – 235م(، والذي ذكر بأن أحد هذه المخازن قد احترق في عام 192م 83

4. العلاقة بين النشاط البحري اليوناني والروماني في البحر الأحمر ومفهوم الاقتصاد الأزرق:

تسعى كثير من الدول اليوم، خصوصًا تلك التي تُطل على البحار والمحيطات، إلى الاهتمام بمفهوم الاقتصاد الأزرق، الذي يُعتبر نهجًا اقتصاديًا يهدف إلى تحقيق الاستدامة البيئية من خلال استغلال الموارد البحرية لتحقيق العائد الاقتصادي والاجتماعي، مع حماية الثروات وحفظها للأجيال القادمة84،ويُعتبر النشاط البحري اليوناني منهجًا تأسيسيًا لهذا المفهوم، حيث أظهر اليونانيين معرفةً كبيرةً بالاقتصاد البحري، بسب خلفيتهم التاريخية المبكرة عنها ، والتي انطلقوا منها إلى تأسيس تجارتهم الدولية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر85 .

وقد تعمقت معارفهم بعد سيطرتهم على مصر والإقليم السوري وبلاد ما بين النهرين ، حيث استطاعوا الوصول إلى الأرشيف الإقليمي لعلوم البحرية والتجارية ، واستفادوا منها منذ عهد الإسكندر الأكبر ، الذي خطط لإنشاء خطٍ ملاحة دولي يبدأ من الهند ويمر بالبحر الأحمر وينتهي في البحر الأبيض المتوسط ، إضافة إلى تأسيسيه لسلسلة من الموانئ الإقليمية التي كان يتوقع بأنها ستكون المنطلق الأساسي القوافل التجارية ، إضافة إلى كونها مقراً للأسواق العالمية ، كما حرص على

إيجاد نقاط اتفاق يستطيع من خلالها الانطلاق إلى تنفيذ رؤيته الدولية في المنطقة86 .

ويمكن معرفة هذا من خلال السياسية الاقتصادية البطلمية ، التي ارتكزت على العمل الإقليمي المشترك مع الدول المجاورة ، عبر عقد الاتفاقيات والتعاون من أجل التبادل التجاري، لكن الاضطرابات السياسية والحروب الأهلية والإقليمية ، هددت من أمن الملاحة في البحرالأحمر ،وتسببت في استنزاف الموارد البحرية للإمبراطورية البطلمية 87، لكن على الرغم من ذلك بذل البطالمة جهودهم من أجل استدامة الموارد وتعزيز الاستثمار الاقتصادي في الموانئ العربية عن طريق إرسال بعثاتٍ تجارية إليها ومنحهم الإذن بالإقامة الشبه دائمة في موقع الميناء لتيسير الشؤون التجارية البطلمية فيها، مثل البعثة التي أقامت في ميناء الموزع في جنوب الجزيرة العربية88، إضافة إلى عملهم في متابعة تنفيذ الاتفاقيات التجارية الدولية.89 .

لكن النظم البحرية الدولية في البحر الأحمر تطورت خلال العهد الروماني ، إذ أسسوا نظاماً عالمياً موحداً امتاز بوحدة القوانين الدولية التشريعية بما في ذلك القوانين التي تتعلق بالملاحة والتجارة الدولية ، على الرغم من كثرة المخاطر الأمنية والسياسية التي واجهها الرومان أثناء إدارتهم لنشاط البحري في البحر الأحمر ، لكنهم سعوا إلى الاستثمار في الصناعات المستخلصة من الكائنات البحرية في البحر الأحمر مثل : استخدام قواقع البحر في علاج بعض الأمراض 91، كما أنهم حرصوا على دراسة البيئة البحرية ودونوا ملاحظاتهم حولها ،وسعوا كذلك لتطوير الجغرافيا البحرية والفنون الملاحية كما يظهر هذا من خلال كتاباتهم 92 ، كما أنهم كانوا يقومون بتأهيل وتدريب الشباب الروماني للعمل في مجال الاقتصاد البحري في البحر الأحمر وتمكينهم من إدارة موارده 93 .

إضافة إلى جهودهم في تطوير المرافق والموانئ التي كانت تحت سيطرتهم المباشرة ، حيث كانوا يقومون بتعبيد وتأهيل الطرق التي تربط بين المدن التجارية والموانئ ، لتسهيل حركة نقل البضائع ، إضافة إلى قيامهم بإنشاء مستودعات ومخازن لحفظ البضائع في الموانئ ومراقبة سير العملية التجارية وضبط الجمارك 94، كما قاموا بتشجيع القوى الإقليمية والولايات الرومانية في البحر الأحمر بالتركيز على تطوير منتجاتهم المحلية وتصديرها ، ويمكن من خلال استعراض التاريخ البحري الروماني واليوناني ثم دراسة أهم أنشطتهم البحرية في البحر الأحمر الخلاص إلى أن مفهوم الاقتصاد الأزرق ليس حديث النشأة ، وأن أصوله تعود إلى العهد اليوناني والروماني بل ربما أقدم96.

الخاتمة:

تُخلص هذه الدراسة - المعتمدة على المنهج الوصفي التحليلي في مقاربة النصوص اليونانية والرومانية القديمة - إلى أن التنافس الإغريقي تلاه الروماني على حوض البحر الأحمر قد ارتبط عضوياً بكونه ممراً استراتيجياً للتجارة الدولية منذ الحقبة الكلاسيكية. إذ سعى الإغريق إلى تعزيز نفوذهم عبر مجابهة القوى الإقليمية وضبط النشاط الملاحي، في مسار تكوّن ملامحه منذ عهد الإسكندر الأكبر، ثم تطور لاحقاً عبر استحداث أطر تنظيمية هدفت إلى تدبير حركة الملاحة والتبادل التجاري.

كما بينت النتائج أن الإغريق والرومان عملوا على تأمين الملاحة البحرية عبر استحداث تشكيلات عسكرية متخصصة لحماية الأساطيل التجارية والمرافئ، إلى جانب تطوير البنية التحتية للموانئ وتعزيز أنماط التعاون الإقليمي من خلال المعاهدات التجارية والبعثات القنصلية الدائمة. وقد ارتبط ذلك بتطور العلوم المساندة للملاحة، لا سيما الجغرافيا وعلم الفلك، على نحو ما تثبته المصادر المدروسة.

في المقابل، اتسمت العلاقة الرومانية مع العرب بمنطق تنافسي، إذ نظر الرومان إلى العرب بوصفهم فاعلاً تجارياً مؤثراً، مما استدعى محاولات احتواء نفوذهم عبر آليات عسكرية أو مالية. بيد أن هذه السياسات لم تؤدِّ إلى تهميشهم أو إقصائهم من شبكة التجارة البحرية، بل واصل العرب الحفاظ على موقعهم وتطوير أنشطتهم التجارية، وهو ما ترصده بعض المدونات الكلاسيكية.

وعليه، فإن دراسة النشاط البحري في البحر الأحمر تكشف عن أنماط مبكرة من تنظيم الملاحة والتجارة وإدارة الفضاء البحري، بما يتيح مقاربة تاريخية لمقومات الاقتصاد البحري في المنطقة، ويسهم في فهم الإشكاليات الراهنة المرتبطة بتنظيم الممرات الملاحية في حوض البحر الأحمر.

الهوامش»

(1) 1شيره، إبراهيم مفتاح ، تجارة المواد العطرية بممالك جنوب شبه الجزيرة العربية 1100 ق. م.525- م ،المجلة العلمية لكلية التربية، ع16 ،2020م ، ص 86 .

(2) لخرائط الجيولوجية المصرية القديمة : أظهرت بعض المكتشفات للمقابر بأن المصريين قاموا برسم العديد من الخرائط للمناطق المناجم لإرشاد العمال ، إضافة إلى خرائط تصور العالم الآخر والحياة الأخرى بعد الموت ، وأقدم الخرائط المصرية المكتشفة حالياً الخريطة المكتشفة إلى جانب بردية تورين والمحفوظة اليوم في المتحف الإيطالي ، للمزيد انظر : هيئة التحرير. (2015). أقدم خرائط العالم. المدينة العربية، ع169 ، 84 - 85.

(3) المغازي، أحمد فؤاد إبراهيم ،.بعض ملامح الجهد الجغرافي عند المصريين القدماء.،رسائل جغرافية، الرسالة524 ، الكويت ، 2024م ، ص 17 .

(4) 4محفوظي، بلعباس. ، الرحلات البحرية المصرية من عصور ما قبل التاريخ إلى نهاية مرحلة الدولة الوسطى. مجلة مدارات تاريخية، س2, ع4 ، 2021م ، ص 431 - 452.

(5) حسين ، علية ، عهد الإسكندر الأكبر في مصر من دخوله إليها عام 332ق.م وحتى وفاته عام 323 ق.م والأوضاع التي ترتبت عليها ، مجلة العلوم والدراسات الإنسانية ، جامعة بنغازي ، بنغازي ، ليبيا 2014،م ، ص 5 .

(6) وبيرن ، فوكس ،الاسكندر الأكبر ، دار مطابع المستقبل ، لبنان ، د.ت ، ص 57 .

(7) Strabo. (1917). Geography (H.L. Jones, Trans.). (Vol. 7). Heinemann.

(8) العبادى، أحمد صالح محمد ، النشاط الكشفي والتجاري للبطالمة على سواحل البحر الأحمر وأثره على تجارب عرب الحجاز وجنوب الجزيرة العربية خلال الفترة من 305 ق. م. إلى 221 ق. م. الوثيقة، مج33, ع66 ، 2016م ، ص 159 .

(9) أمين، سعد عمر محمد، جانب من السياسة الاقتصادية لدولة البطالمة: التجارة الخارجية ‘323-222 ق. م. ’. مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية, مج19, ع1, 2023م ، ص 524 .

(10) الناصري، سيد احمد على . الرومان و البحر الأحمر، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، مج 6, ع 2، 1981م ، ص 11 .

(11) هلال، علي الدين ،الأمن العربي و الصراع الاستراتيجي في منطقة البحر الأحمر ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، مج 6, ع 2 ، ص 51 .

(12) برج، محمد عبدالرحمن ، البحر الأحمر عبر التاريخ ، ندوة البحر الأحمر: إدارة البحوث ، معهد الدراسات الدبلوماسية ، وزارة الخارجية، الرياض ، 1985م ، ص 59 .

(13) محفوظي، بلعباس. ، الرحلات البحرية المصرية من عصور ما قبل التاريخ إلى نهاية مرحلة الدولة الوسطى. مجلة مدارات تاريخية، س2, ع4 ، 2021م ، ص 431 - 452.

(14) الجرو، أسمهان ، بزوغ وأفول الملاحة والمراكز الملاحية عند العرب قبل الإسلام ، مجلة الادب والعلوم الاجتماعية ، جامعة السلطان قابوس ، ع 3 ، 2017م ، ص 81 .

(15) الجعـراني ، سـميرة ، رحلـة حتشبسـوت إلى بـلاد بونـت 1496 ق. م. مجلـة القلعـة، ع9 ، 2018م ، ص 302 .

(16) 16arnard, H. (2012). Maps and mapmaking in ancient Egypt. In H. Selin (Ed.), Encyclopaedia of the history of science, technology, and medicine in non-western cultures .Springer-Verlag Berlin Heidelberg.p;1.

(17) الشـناوى، منـى حسـنى محمـد وآخـرون ، التقييـم الجيومورفولوجـى المعـاصر لمواقـع لموانـئ القديمـة ،مجلـة القـراءة والمعرفـة ، ع 232 ، 2020م ، ص 232 .

(18) عبدالمطلـب ، هشـام ، نشـاط ووظائـف البحـارة في مـصر القديمـة حتـى نهايـة الدولـة الحديثـة ، مجلـة البحـث العلمـي في الآداب ، جامعـة عيـش شـمس ، ع 2 ، 2018م ، ص 2 .

(19) الذيبـي، محمـد بـن عائـل ، التواصـل الحضـاري مـن خـلال نقـش أثـري للملـك رمسـيس الثالـث المكتشـف بواحـة تيـماء في شـمال غـربي المملكـة العربيـة السـعودية.، مجلـة أدوماتـو ، ع26 ، 2012م ، ص 15 .

(20) شـعوب البحـر : مجموعـة مـن الشـعوب التـي غـزت الإقليـم السـوري ودمـرت العديـد مـن المـدن والحضـارات ، ووصلـوا إلى حـدود مـصر لكـن هزمهـم المصريـون عـلى يـد الفرعـون رمسـيس الثالـث، للمزيـد انظـر : لهـواش، تمـام خالـد، و عبـود، جهـاد. (2020). الـصراع المـصري مـع شـعوب البحـر في نهايـة القـرن (13 ق.م) وبدايـة القـرن (12 ق.م). مجلـة جامعـة البعـث - سلسـلة الآداب والعلـوم الانسـانية، مـج42, ع10 ، 81 – 103 .

(21) نوبلكـور ، كريسـتيان ،رمسـيس الثالـث قاهـر شـعوب البحـر ، ترجمـة : فاطمـة محمـود ، مراجعـة: محمـود طـه ، الهيئـة المصريـة للكتـاب ، مـصر ، 2003م ، ص 162 .

(22) عبدالغنـي ، محمـد : العلاقـات المصريـة الفنيقيـة حتـى أوائـل العـصر البطلمـي ، حوليـة الآثاريـين العـرب دراسـات في آثـار الوطـن العـربي دوريـة علميـة محكمـة ، مـج 2 ، ع 1 ، 1999م ، ص 222 .

(23) ابراهيـم ، إبتهـال ، صناعـة السـفن الفنيقيـة في ضـوء منحوتـات العـصر الآشـوري الحديـث (911–612 ق.م) ، مجلـة الدراسـات التاريخيـة والحضاريـة ، جامعـة تكريـت ، مـج 3 ، ع 8 ، 2011م ، ص28 .

(24) الهـذال ، حصـة ، المراكـز والمسـتوطنات التجاريـة الفنيقيـة في غـرب البحـر المتوسـط قبـل تأسـيس قرطاجـة ، مجلـة العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة ، جامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسـلامية ، ع 41 ، 2017م ، ص 140 .

(25) شـيره، إبراهيـم مفتـاح ، تجـارة المـواد العطريـة بممالـك جنـوب شـبه الجزيـرة العربيـة 1100 ق.م.-525 م ،المجلـة العلميـة لكليـة التربيـة، ع16 ،2020م ، ص 86 .

(26) سـيد، أشرف صالـح محمـد، و محمـد، الحسـين عـادل أبـو زيـد. (2015). الحيـاة الإقتصاديـة عنـد العـرب في الجاهليـة والإسـلام: التجـارة والأسـواق في اليمـن نموذجـا. مجلـة الدراسـات التاريخيـة والاجتماعيـة، ع4 ، ص 79 .

(27) نادية ، ماجي ، التجارة البحرية العربية الجنوبية (اليمنية) من القرن 5 ق.م إلى القرن 2 ق.م ، إشراف : العقون أم الخير ، أطروحة دكتوارة غير منشورة ، جامعة وهران ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية ، قسم التاريخ وعلم الاثار ، الجزائر ، 2023م ، ص 286 .

(28) عبدالمولى ، أسامة ، تجارة البخور في جنوب الجزيرة العربية في الفترة من القرن العاشر حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، إشراف :محمد حافظ ، رسالة مجاستير غير منشورة ، جامعة الزقازيق ، المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم ، قسم شبه الجزيرة العربية ، مصر ، 2023م ، ص 56 .

(29) كليب ، مهيوب ، الصلات التجارية بين جنوب شبه الجزيرة العربية ومناطق الهلال الخصيب ومصر قبل الألف الأول قبل الميلاد ، مجلة جامعة دمشق ، مج 27 ، ع 2 ، 2011م ، ص 344 .

(30) زيمرن ، ألفرد ، الحياة العامة اليونانية السياسة والاقتصاد في أثينا القرن الخامس ، ترجمة : عبدالمحسن الخشاب ، المركز القومي للترجمة ، الطبعة الثانية ، 2009 ، ص 28 .

(31) Zerefos, C. (2020). The role of weather during the Greek–Persian "Naval Battle of Salamis" in 480 B.C. Atmosphere, 11(8), 838 ,P, 2 .

(32) ,p,3 NIC FIELDS , Ancient Greek Warship

(33) العوضي ، رفعت ، تاريخ الفكر الاقتصادي ، الإسكندرية ، مصر ، دار الفكر الجامعي ، 2019م،ص 15 ، 33 ، 38 .

(34) Parpas, A. P. (2016). The Hellenistic Gulf: Greek Naval Presence in South Mesopotamia and the Gulf (32464- B.C.). CreateSpace Independent Publishing Platform,P, 56.

(35) 35العبادى، أحمد صالح محمد . النشاط الكشفي والتجاري للبطالمة على سواحل البحر الأحمر وأثره على تجارب عرب الحجاز وجنوب الجزيرة العربية خلال الفترة من 305 ق. م. إلى 221 ق. م. الوثيقة, مج33, ع66, ، ص 151–176.

(36) 36 عمران، رجب سلامة.علاقة مملكة لحيان بالبطالمة في عهد بطليموس الثاني " فيلادلفوس " 285 - 246 ق. م. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج36, ع143 ، 2018م ، ص 134 .

(37) FRANCK GODDIO, PTOLEMAIC GALLEY,p, 2 .

(38) شعيب ، مروان ، موانئ شرقي البحر الأحمر قبل الإسلام دراسة تاريخية حضارية ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،ع 2 ، ابريل ، 2022م ، ص 24 ، 30 .

(39) الموسوي ، جواد و قيس الجنابي ، تاريخ الاقتصاد العربي القديم ، ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، الأردن ، عمان ،ط1 ، 2017م ، ص 160.

(40) سعيد ، السعيد ، مملكة لحيان بين النشأة والانهيار قراءة في آراء متباينة ،مجلة الجمعية السعودية للدراسات الأثرية ، جامعة الملك سعود ، كلية السياحة والاثار ، 2023م، ص 75 ،.

(41) El Sayed Roshdy, M. (2008). Ptolemaic foreign trade from the reality of printing seals of pottery handles newly discovered in Egypt. Annual Conference of General Union of Archaeologists, 1(1,p.60 ..

(42) Helmy, A. M. (2021). Shipyards in Egypt between antiquity, the present, and the future. [Short report]. Maritime Archaeology Graduate Symposium 2021,p, 2..

(43) عالم ، عائشة ، الحياة العسكرية في إمبراطورية قرطاجة وروما القديمة 480) – 146 ق.م (دراسة تاريخية مقارنة ، رسالة مجاستير غير منشورة، كلية الاداب والعلوم الإنسانية ، جامعة طيبة ، المملكة العربية السعودية ، المدينة المنورة ، 2021م ، ص32

(44) عبدالغني ، محمد ، لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، المكتب الجامعي الحديث ، مصر ، الإسكندرية ، 2001م ، ص 65

(45) العلوي، محمد: أهمية القانون الروماني ومراحل تطوره ، مجلة تهامة ، جامعة الحديدة، ع 10، اليمن ، 2016م ، ص 145 .

(46) القحطاني، سميرة بنت سعيد بن محمد ، الصراع النبطي الروماني وتأثيراته السياسية والحضارية. مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، ع25 ، 2015م ، ص 11 .

(47) العزعزي ، نعمان : الأساليب الرومانية للسيطرة على جنوب الجزيرة العربية)اليمن القديم (، مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية ، ع 40 ، 2024م ، ص 605 .

(48) القحطاني ، الصراع النبطي الروماني وتأثيراته السياسية والحضارية ، ص 11 .

(49) Bukharin, M. D. (20052006-). Romans in the Southern Red Sea. Arabia, 3,p, 135.

(50) De Romanis, F., & Maiuro, M. (Eds.). (2015). Across the Ocean: Nine Essays on Indo-Mediterranean Trade, P; 20..

(51) الناصري، الرومان و البحر الأحمر، ص 12 .

(52) Cobb, M. A., & Wilkinson, T. The Roman state and Red Sea trade revenue ,pp. 213226-.

(53) الشتلة، إبراهيم يوسف أحمد. حملات الرومان على الجزيرة العربية. الدارة، مج 9, ع 3،1984م، ص 140 .

(54) 54Beardsley, G. H. (1932). The Ethiopian in Greek and Roman civilization [Doctoral dissertation, Johns Hopkins University], p 8 ..

(55) 55Dahlmann, F. C. (1845). The life of Herodotus, drawn out from his book (G. V. Cox, Trans.). London: Parker,pp3..

(56) هيرودتس والجزيرة العربية ،إشراف وتحرير : د.عبدالله بن عبدالرحمن العبد الجبار ، ترجمة : إبراهيم السايح ، تعليق : رحمة السناني ،)سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية رقم 1 (، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439هجري / 2017م ، ص 40 .

(57) هيرودتس والجزيرة العربية : ص 46 .

(58) هيرودتس والجزيرة العربية : ص 75 .

(59) مهران، محمد بيومي ، دراسة حول العرب و علاقاتهم الدولية في العصور القديمة ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية،ع 6 ، 1976 م ، ص 413 .

(60) الشهراني ، محمد ، تطور مفهوم الدبلوماسية في بلاد اليونان والشرق الأدنى خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، مجلة الشرق الأوسط ، ع 48 ، 2019م ، ص 9 .

(61) ثيوفراستوس والجزيرة العربية ، إشراف وتحرير : د. عبدالل بن عبدالرحمن العبد الجبار ، ترجمة : د. الحسين عبدالله ،

(62) تعليق : د. عبدالمعطي سمسم ،) سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية (2 ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض، ص 51 .

(63) Burstain, S. M. (1989). Agatharchides of Cnidus: On the Erythraean Sea. (S. M. Burstein, Trans. & Ed.). The Hakluyt Society,p. 9..

(64) أجاثار خيديس الكيندي والجزيرة العربية ، إشراف وتحرير : عبدالله بن عبدالعزيز العبدالجبار، ترجمة : د. الحسين عبدالل ،تعليق : د.عبدالمعطي سمسم ،)سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، 5 (، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439 هجري / 2017م ، ص 36 .

(65) أجاثار خيديس الكيندي والجزيرة العربية : ص 45 .

(66) أجاثار خيديس الكينيدي والجزيرة العربية : ص 56 .

(67) أجاثار خيديس الكيندي والجزيرة العربية : ص 53

(68) أجاثار خيديس الكيندي والجزيرة العربية : ص 56

(69) ديدوررس الصقلي والجزيرة العربية ، إشراف وتحرير : د .عبدالل بن عبد الرحمن العبدالجبار، ترجمة : أحمد غانم ، تعليق :

(70) د.رحمة بنت عواد السناني ،)سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية (5 ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض، 1439هجري / 2017م . ، ص 133.

(71) ديدورس الصقليّ والجزيرة العربية : ص 63 .

(72) ديدورس الصقلي والجزيرة العربية: ص 78.

(73) ديدورس الصقليّ والجزيرة العربية : ص 69 .

(74) استرابون والجزيرة العربية ، إشراف وتحرير : عبدالل بن عبدالرحمن العبدالجبار ، ترجمة : د. السيد جاد ، تعليق : د. مسفر بن سعد الخثعمي ،)سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، (6 ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439 هجري / 2017م ، ص 47 .

(75) استرابون والجزيرة العربية : ص 133.

(76) استرابون والجزيرة العربية : ص 34 .-73

(77) Jongman, W. M. (2017). Afterword: Taxes and trade in the Roman Empire (200 BC-AD 400). In C. Kelly (Ed.), Sociological Studies in Roman History, . Cambridge University Press, pp. 213268-

(78) آريانوس والجزيرة العربية ، إشراف وتحرير : عبدالل بن عبد الرحمن العبدالجبار ترجمة : السيد جاد ، تعليق : حمد بن

(79) محمد بن صراي)سلسلة دراسات الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، (3 ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439هجري2017/م ،ص 36 .

(80) آريانوس والجزيرة العربية : ص 73 .

(81) بطليموس والجزيرة العربية ، إشراف وتحرير : عبدالل بن عبدالرحمن العبد الجبار ، ترجمة : د. السيد جاد ، تعليق : عبدالل العبدالجبار)سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية 11 (،دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439 هجري / 2017م ، ص 118 .

(82) الحسين ، محجوب ،مبادئ علم الفلك ،جامعة أفريقيا العالمية ، لجنة النشر والبحوث ، الطبعة الثانية ، ب . ت ، ص 9 .

(83) بلوتارخوس والجزيرة العربية ، تحرير وإشراف : د. عبدالل بن عبدالرحمن العبد الجبار ، ترجمة : د. رضا عبدالجواد ، تعليق :د. زياد السلامين ،)سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، 10 (، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439 هجري / 2017م ، ص 38 .

(84) الطواف حول البحر الإريثري ، إشراف وتحرير : د.عبدالل بن عبدالرحمن العبدالجبار ، ترجمة: د. السيد جاد ، تعليق : حمد بن محمد صراي ،) سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، (9 ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439 هجري / 2017م ، ص 47 .

(85) الطواف حول البحر الاريثري : ص 62 .

(86) الطواف حول البحر الاريثري : ص 42 .

(87) بلينيوس والجزيرة العربية ، إشراف وتحرير : عبدالل بن عبدالرحمن العبدالجبار ، ترجمة : د. علي عبدالمجيد ، تعليق : د. زياد السلامين ،) سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ،7 (، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439 هجري / 2017م: ص 169 .

(88) بلينيوس والجزيرة العربية : ص 175 .

(89) ديو كاسيوس والجزيرة العربية ،إشراف وتحرير : د. عبدالل بن عبدالرحمن العبد الجبار ، ترجمة :د.مجدي الكيلاني ، تعليق : د. جيهان بنت شاه بهاي ،) سلسلة الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ،12 (، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1439 هجري / 2017م ، ص 98 .

(90) Morgan, P. J., Huang, M. C., Voyer, M., Benzaken, D., & Watanabe, A. (Eds.). (2022). Blue economy and blue finance: Toward sustainable development and ocean governance. Asian Development Bank Institute,p, 1 ..

(91) خليل ، عماد ، السفن والموانئ في البحر المتوسط من العصر الكلاسيكي إلى العصر الروماني،حولية دراسات في آثار الوطن العربي ، مج 15 ، ع 1 ، 2012م ، ص .683

(92) 69 Parpas, A. P.(2012). The Hellenistic Gulf: Greek naval presence in South Mesopotamia and the Gulf (32464- B.C lv, vo,p,56..

(93) زايد، عادل عمران محمد. .(2019) العلاقات البطلمية السلوقية وتداعياتها 323 - 64 ق.م ، مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، ع8 ، 47 - .64

(94) شعيب ، مروان ، موانئ شرقي البحر الأحمر قبل الإسلام دراسة تاريخية وحضارية ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، ع 2 ، س 48 ، ابريل 2022م ، ص 41 .

(95) Cotula, L., & Berger, T. (2020). 'Blue economy': Why we should talk about investment law. International Institute for Environment and Development, P.2.

(96) عباس، علياء عاطف عطية علي. .(2021) النشاط البحري علي لوحات الفسيفساء الرومانية في منطقة شمال أفريقيا. حولية اتحاد الآثاريين العرب: دراسات في آثار الوطن العربي، ع24 ، 15 - 38.

(97) ustomjee, C. (2017). Operationalizing the blue economy in small states: Lessons from the early movers. Centre for International Governance Innovation,p,6.

(98) زيادة، نقولا. تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، س ,1 ع 4 1975م ،ص 69 - 94.

(99) بوعجيمى، آسيا مسعودى ،إنشاء وتطور المرافق الأساسية للتجارة الرومانية فى المغرب خلال العهد الأمبراطورى الأول. حوليات

(100) جامعة الجزائر 1، ع8 ، 1994م ، ص 157 -166 .

(101) بلينيوس والجزيرة العربية :ص 150 .

(102) بوعجيمى، آسيا مسعودى ،إنشاء وتطور المرافق الأساسية للتجارة الرومانية فى المغرب خلال العهد الأمبراطورى الأول. حوليات جامعة الجزائر 1، ع8 ، 1994م ، ص 157 -166 .

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر العربية

(1) أمين، سعد عمر محمد، (2023). جانب من السياسة الاقتصادية لدولة البطالمة: التجارة الخارجية 323-222 ق.م، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج 19، ع 1.

(2) الحسين، علية، (2014). عهد الإسكندر الأكبر في مصر من دخوله إليها عام 332 ق.م وحتى وفاته عام 323 ق.م، مجلة العلوم والدراسات الإنسانية، جامعة بنغازي، ليبيا.

(3) الحسين، محجوب، (ب.ت). مبادئ علم الفلك، ط2، جامعة أفريقيا العالمية، لجنة النشر والبحوث.

(4) الزيد، عادل عمران محمد، (2019). العلاقات البطلمية السلوقية وتداعياتها 323-64 ق.م، مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، ع 8.

(5) الشتلة، إبراهيم يوسف أحمد، (1984). حملات الرومان على الجزيرة العربية، الدارة، مج 9، ع 3.

(6) الشهراني، محمد، (2019). تطور مفهوم الدبلوماسية في بلاد اليونان والشرق الأدنى خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، مجلة الشرق الأوسط، ع 48.

(7) العبادي، أحمد صالح محمد، (2018). النشاط الكشفي والتجاري للبطالمة على سواحل البحر الأحمر وأثره على عرب الحجاز، الوثيقة، مج 33، ع 66.

(8) العزعزي، نعمان، (2024). الأساليب الرومانية للسيطرة على جنوب الجزيرة العربية (اليمن القديم)، مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، ع 40.

(9) العلوي، محمد، (2016). أهمية القانون الروماني ومراحل تطوره، مجلة تهامة، ع 10، جامعة الحديدة، اليمن.

(10) العوضي، رفعت، (2019). تاريخ الفكر الاقتصادي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، مصر.

(11) القحطاني، سميرة بنت سعيد بن محمد، (2015). الصراع النبطي الروماني وتأثيراته السياسية والحضارية، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، ع 25.

(12) المغازي، أحمد فؤاد إبراهيم، (2024). بعض ملامح الجهد الجغرافي عند المصريين القدماء، رسائل جغرافية (524)، الكويت.

(13) الموسوي، جواد، والجنابي، قيس، (2017). تاريخ الاقتصاد العربي القديم، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

(14) الناصري، سيد أحمد علي، (1981). الرومان والبحر الأحمر، مجلة دارة الملك عبد العزيز، مج 6، ع 2.

(15) خليل، عماد، (2012). السفن والموانئ في البحر المتوسط من العصر الكلاسيكي إلى العصر الروماني، حولية دراسات في آثار الوطن العربي، مج 15، ع 1.

(16) زيادة، نقولا، (1975). تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، مج 1، ع 4.

(17) سعيد، السعيد، (2023). مملكة لحيان بين النشأة والانهيار: قراءة في آراء متباينة، مجلة الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، جامعة الملك سعود.

(18) شعيب، مروان، (2022). موانئ شرقي البحر الأحمر قبل الإسلام دراسة تاريخية حضارية، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، مج 48، ع 2.
(19) شيره، إبراهيم مفتاح، (2020). تجارة المواد العطرية بممالك جنوب شبه الجزيرة العربية 1100 ق.م525- م، المجلة العلمية لكلية التربية، ع 16.
(20) عباس، علياء عاطف عطية علي، (2021). النشاط البحري على لوحات الفسيفساء الرومانية في منطقة شمال أفريقيا، حولية اتحاد الآثاريين العرب، ع 24.
(21) عبد الغني، محمد، (2001). لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومان، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر.
(22) عمران، رجب سلامة، (2018). علاقة مملكة لحيان بالبطالمة في عهد بطليموس الثاني، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج 36، ع 143.
(23) محفوظي، بلعباس، (2021). الرحلات البحرية المصرية من عصور ما قبل التاريخ إلى نهاية الدولة الوسطى، مجلة مدارات تاريخية، مج 2، ع 4.
(24) مهران، محمد بيومي، (1976). دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، ع 6.

ثانياً: المصادر الإلكترونية

(25) Helmy, A. M. (2021). Shipyards in Egypt between antiquity, the present, and the future. [Short report]. Maritime Archaeology Graduate Symposium.

ثالثاً: المصادر المترجمة

(1) أجاثار خيديس، (2017). أجاثار خيديس الكيندي والجزيرة العربية، ترجمة: الحسين عبدالله، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
(2) آريانوس، (2017). آريانوس والجزيرة العربية، ترجمة: السيد جاد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
(3) استرابون، (2017). استرابون والجزيرة العربية، ترجمة: السيد جاد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
(4) بلينيوس، (2017). بلينيوس والجزيرة العربية، ترجمة: علي عبدالمجيد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
(5) بلوتارخوس، (2017). بلوتارخوس والجزيرة العربية، ترجمة: رضا عبدالجواد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
(6) بطليموس، (2017). بطليموس والجزيرة العربية، ترجمة: السيد جاد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
(7) ثيوفراستوس، (2017). ثيوفراستوس والجزيرة العربية، ترجمة: الحسين عبدالله، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
(8) داجنت، روجيه، (2017). تاريخ البحر الأحمر من موسى حتى بونابرت، ترجمة: حسن نصر الدين، المركز القومي للترجمة، مصر.
(9) ديدوررس الصقلي، (2017). ديدوررس الصقلي والجزيرة العربية، ترجمة: أحمد غانم، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.

(10) ديـو كاسـيوس، (2017). ديـو كاسـيوس والجزيـرة العربيـة، ترجمـة: مجـدي الكيـلاني، دارة الملـك عبدالعزيـز، الريـاض.
(11) زيمـرن، ألفـرد، (2009). الحيـاة العامـة اليونانيـة: السياسـة والاقتصـاد في أثينـا، ترجمـة: عبدالمحسـن الخشـاب، ط2، المركـز القومـي للترجمـة.
(12) فوكس، وبيرن، (ب.ت). الإسكندر الأكبر، دار مطابع المستقبل، لبنان.
(13) مجهول، (2017). الطواف حول البحر الإريثري، ترجمة: السيد جاد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.
(14) (39) هيرودتـس، (2017). هيرودتـس والجزيـرة العربيـة، ترجمـة: إبراهيـم السـايح، دارة الملـك عبدالعزيـز، الريـاض.

رابعاً: المصادر الأجنبية

(1) Beardsley, G. H. (1932). The Ethiopian in Greek and Roman civilization. Doctoral dissertation, Johns Hopkins University.
(2) Bukharin, M. D. (20052006-). Romans in the Southern Red Sea. Arabia, 3, 135.
(3) Burstain, S. M. (1989). Agatharchides of Cnidus: On the Erythraean Sea. The Hakluyt Society.
(4) Cobb, M. A., & Wilkinson, T. (2017). The Roman state and Red Sea trade revenue. Oxford University Press.
(5) Cotula, L., & Berger, T. (2020). Blue economy: Why we should talk about investment law. IIED.
(6) Dahlmann, F. C. (1845). The life of Herodotus, drawn out from his book. London: Parker.
(7) De Romanis, F., & Maiuro, M. (Eds.). (2015). Across the Ocean: Nine Essays on Indo-Mediterranean Trade.
(8) El Sayed Roshdy, M. (2008). Ptolemaic foreign trade from the reality of printing seals. Annual Conference of General Union of Archaeologists.
(9) Jongman, W. M. (2017). Afterword: Taxes and trade in the Roman Empire. Cambridge University Press.
(10) Morgan, P. J., et al. (Eds.). (2022). Blue economy and blue finance. Asian Development Bank Institute.
(11) NIC FIELDS. (2003). Ancient Greek Warship.
(12) Parpas, A. P. (2016). The Hellenistic Gulf: Greek Naval Presence. CreateSpace Independent Publishing.
(13) Strabo. (1917). Geography (Trans. H.L. Jones). Vol. 7. Heinemann.
(14) Ustomjee, C. (2017). Operationalizing the blue economy in small states. CIGI.
(15) Zerefos, C. (2020). The role of weather during the Greek–Persian "Naval Battle of Salamis". Atmosphere, 11(

النشاط التجاري في موانئ الحجاز
(1256 – 1337هـ/1840 – 1918م)

أ.سهى سعود محمد شعبان
باحثة دكتوراه- تاريخ حديث- جامعة الملك عبدالعزيز
جدة المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على الحركة التجارية في موانئ الحجاز خلال فترة (1256 – 1337هـ/1840 – 1918م) التي شهدت نشاطًا تجاريًا واسعاً؛ نتيجةً لتطور في حركة النقل البحري بعد عام (1256هـ/1840م) باستخدام السفن البخارية, وازدياد حركة نقل الحجاج والبضائع بحرًا إلى الموانئ؛ إضافةً إلى اهتمام السلطات العثمانية بالموانئ والتبادل التجاري عبر الجمارك؛ لما فيه من تدعيم نفوذها الإداري والسياسي في المنطقة؛ إلى جانب أثر افتتاح قناة السويس عام (1286هـ/1869م) على النشاط التجاري في الموانئ, وازدياد التنافس البريطاني والأوروبي حول مكاسب التجارة والنقل بواسطة السفن, وقد اعتمدت الدراسة على منهج البحث التحليلي التاريخي والاستقصائي القائم على استخراج المادة العلمية من الوثائق, والمصادر, والمراجع, والدوريات؛ بهدف الوصول إلى نتائج من أهمها: أن النشاط التجاري لموانئ الحجاز قد ارتبط بعدة عناصر أو مقومات مشتركة أثرّت في وجود هذا النشاط ونمّوه؛ ولعلّ من أبرزها الموقع الجغرافي وأثره على نشاط السكان التجاري, وكذلك من العناصر والمقوّمات: مواسم الحج, والأسواق التجارية والمخازن, والجمرك, وتنوع التجارة ما بين داخلية وخارجية.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية، التجارة البحرية، جدة، ينبع البحر، مواسم الحج.

Maritime Commercial Activity in the Ports of the Hijaz (1256–1337 AH / 1840–1918 CE)

A.Souha Sauod Shaban

Abstract:

This study examines commercial activity in the ports of the Hijaz during the period 1256–1337 AH / 1840–1918 CE, an era of pronounced expansion in maritime trade. Several factors drove this expansion: the development of maritime transport after 1256 AH / 1840 CE through the use of steamships; the growing seaborne movement of Muslim pilgrims and merchandise to the ports; the attention of the Ottoman authorities to the ports and to commercial exchange through customs, as a means of reinforcing their administrative and political influence in the region; the impact of the opening of the Suez Canal in 1286 AH / 1869 CE on

commercial activity at the ports; and the intensification of British and European competition over the gains of trade and maritime shipping. The study adopts an analytical-historical and investigative method, drawing on documents, primary sources, secondary references, and periodicals. Its principal finding is that commercial activity in the ports of the Hijaz rested on several interdependent foundations that shaped both its emergence and its growth. Geographical location was foremost, shaping the commercial activity of the inhabitants. Further foundations included the Muslim pilgrimage seasons, the commercial markets and warehouses, the customs regime, and the interplay between domestic and foreign trade.

Keywords: Ottoman state; maritime trade; Jeddah; Yanbu al-Bahr; Muslim pilgrimage seasons.

أولًا/ الحجاز : وضعه الإداري وتطور التجارة البحرية:

استعادت الدولة العثمانية الحجاز على إثر انسحاب قوات محمد علي باشا منه بموجب معاهدة لندن في (15 جمادى الأولى 1256هـ/15 يوليو 1840م)؛ مع إبقاء بعض المناطق في الشمال من الوجه إلى العقبة تابعة للسيادة المصرية انتظارًا للبت في أمرها[1]؛ لتبدأ بعدها فترة الحكم العثماني الثاني للحجاز الذي يمتد من عام (1256هـ/1840م) إلى عام (1334هـ/1916م) حيث انتهى بإعلان أمير مكة المكرمة الشريف حسين بن علي الثورة العربية الكبرى؛ سعيًا وراء استقلال الحجاز عن الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى[2]؛ ومع عودة الحجاز إلى سيطرة الدولة العثمانية مرة أخرى سعت الدولة إلى القضاء على كل المظاهر السلبية التي أوجدتها الأحداث السابقة والتغييرات التي قام بها محمد علي باشا في الحجاز من أوضاع أفقدت العثمانيين الشرعية الدينية والسياسية؛ ولهذا كان لابدّ من تغيير طبيعة الحكم العثماني للإقليم واتخاذه شكلا مغايرًا عن الفترة الأولى في مظاهر الحكم والإدارة[3], وبموجب قانون الولايات الصادر عام (1281هـ/1864م) أصبح الحجاز ولاية عثمانية كبقية الولايات التابعة للدولة[4]؛ حيث تأتي تلك القرارات والإجراءات بالتزامن مع حركة التنظيمات الخيرية التي شهدتها الدولة العثمانية في منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي؛ والتي كانت تقتضي إعادة وضع إدارة عصرية للولايات تعتمد على المبادئ المركزية والإدارة المباشرة[5].

ومع توّجه الدولة نحو المركزية في الولايات التابعة لها ازدادت أهمية التجارة البحرية والنقل والعبور بين الموانئ خلال تلك الفترة؛ نتيجة لتطور الملاحة ووسائل النقل البحري؛ كاستخدام السفن البخارية الكبيرة بعد عام (1256هـ/1840م)؛ والتي كانت تملكها الشركات الأوروبية؛ مما أدى إلى سرعة النقل, وانسياب حركة البضائع والسلع المختلفة بين الموانئ[6]؛ إلى

جانب ازدياد التنافس الأوروبي في البحر الأحمر للسيطرة على موانئه؛ حيث كانت التجارة ومكاسبها المحرك الأساسي للتنافس, وبالأخص بريطانيا التي فرضت عليها مصالحها الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية الاهتمام بالبحر الأحمر لتأمين وصول سفنها إلى الهند – جوهرة التاج البريطاني-[7]وقد زاد هذا الاهتمام بعد افتتاح قناة السويس عام (1286هـ/1869م)؛ حيث سهّل حركة انتقال السفن التجارية, ووفّر عاملي السرعة والوقت, وتقصير المسافات بين الشرق والغرب[8].

ولقد أدركت الحكومة العثمانية أهمية التجارة البحرية خلال تلك الفترة ركيزة أساسية في الموانئ بما تقوم به السفن من دور في نقل التجارة المحلية والدولية عبر البحار, وكما هو معروف فإن كفاءة الموانئ وحُسن تنظيمها وسلامة إدارتها يجعلها مركزًا مهمًّا للصادرات والواردات من البضائع؛ نظرًا لانخفاض تكلفة النقل بالسفن[9], فأصدرت في (6 ربيع الأول 1280هـ/ 21 أغسطس 1863م) قانون التجارة البحرية الذي يتناول مسؤوليات أصحاب السفن وملاّحيها وحقوقهم, وعمليات السفن التجارية من إيجار وشحن, ونقل وبيع عن طريق المحاكم التجارية؛ إضافة إلى أصول الإجراءات الخاصة بالعبور والتوقف في الموانئ , وتعرّض السفن للتلف والمخاطر وغيرها[10]؛ إلى جانب تمكّن الدول الأوروبية – وبالأخص بريطانيا – من الحصول على المزيد من الامتيازات التجارية[11]لرعاياها من الدولة العثمانية؛ مستغلةً ما تمرّ به الدولة من أزمات سياسية وعسكرية خلال تلك الفترة؛ كإعفاء التجّار الأجانب من دفع ضريبة نقل سلعهم (8 %) داخل الموانئ العثمانية – وجدة من أبرزها - بينما بقي التجّار المحليون يدفعون الضريبة المذكورة[12]؛ وعليه فقد أصبحت الموانئ العثمانية عامةً وجدة خاصةً سوقًا اقتصاديًا للدول الأوروبية بموجب تلك الامتيازات التي مثلت عبئًا ثقيلًا على الدولة العثمانية خلال تلك الفترة[13].

ثانيًا/ الحركة التجارية في موانئ الحجاز:

جدة:

تعززت الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية لميناء جدة بحكم موقعه الجغرافي المهم على الساحل الشرقي للبحر الأحمر, فهو مرفأ[14]الحجاز الرئيسي, ويتركز فيه الحكم والإدارة العثمانية في الحجاز كله[15], منها إدارة الميناء والجمرك, ودار للبرق والبريد, وإدارتا البلدية والحجر الصحي, ووكالة لرعاية السفن, ومخافر للقوات الأمنية, ومقر للحكومة الذي يقع عند باب سور المدينة[16]؛ وبحسب التنظيم الإداري العثماني لولاية الحجاز فإن جدة قد أصبحت سنجقًا ويشرف على إدارتها هو قائمقام[17]؛ حيث كانت سلطته واسعة تشمل إشرافه المباشر على الشؤون الإدارية, والأمنية, والمالية؛ إضافة إلى الاهتمام بشؤون الحجاج وضمان سلامتهم خلال مواسم الحج, كما كان عليه رفع الأمور والتقارير كافة إلى الوالي العثماني الذي يمثل السلطة العليا في الحجاز[18]بالتزامن مع وجود عدد من القنصليات الأوروبية في جدة للحفاظ على مصالحها التجارية, وتقديم ما يلزم من مساعدات لرعاياها القادمين لأداء فريضة الحج, مع الحصول على مزيد من الامتيازات التجارية, وقد اكتسبت القنصلية البريطانية في جدة نفوذًا كبيرًا؛ بسبب علاقاتها الوثيقة مع كلٍّ من الوالي العثماني وأمير مكة المكرمة[19], وازدياد الدور التجاري لبريطانيا والهند بوصفهما شريكين تجاريين

للحجاز خلال تلك الفترة[20]. وقد توافرت عدة عوامل أو مقومات ساعدت على ازدهار الحركة التجارية في جدة, وأن تحتل المكانة المتميزة بين بقية الموانئ في البحر الأحمر, ومن أهمها:

موقع جدة الجغرافي والإستراتيجي على ساحل الشرقي للبحر الأحمر؛ مما جعلها مدينة مفتوحة للتبادل التجاري وكانت - إلى حدّ كبير - محطة لتوزيع البضائع وإعادة تصديرها؛ إضافةً إلى أنها طريق الحجاج إلى مكة المكرمة خلال مواسم الحج؛ فكان المموّل الرئيسِ للحياة الاقتصادية بجدة هما: تجارة التصدير وإعادة التصدير (الترانزيت), ومواسم الحج في الحجاز[21].

وكانت البضائع والسلع المنقولة عبر البحر الأحمر متنوعة؛ فقد كانت تأتي من الهند, والشرق الأقصى, وجنوبي شبه الجزيرة العربية, وساحل إفريقيا الشرقي ومصر إلى موانئ الحجاز وتحديدًا ميناء جدة, مثل موانئ: السويس, والقصير, وسواكن, ومصوع, وبربرة, وزيلع, والحديدة, والمخا[22]. وتشمل البضائع التي كانت على قمة الواردات في الحجاز عبر جدة: (الأرز, والقمح, والشعير, والدقيق, والسكر, والبن, والأقمشة, والسجاد, والحرير, وريش النعام, والمسك, والأخشاب, والعطور, والصابون, والحليّ) وغيره, ويبلغ دخله السنوي بمرور تلك البضائع عبر جمرك جدة بخمسة أو ستة ملايين قرش عثماني؛ أما الصادرات فتشمل: (الجلود, والبن, والصمغ العربي, والحناء, واللؤلؤ, والأصداف, والمرجان, والعسل, والصبار) وغيره[23].

وقد كانت الحركة التجارية البحرية الداخلية بين ميناء جدة وبقية الموانئ في الحجاز مستمرة بواسطة المراكب الشراعية أو السنابيك[24]في عملية نقل البضائع بحسب قواعد العرض والطلب للسلع الموجودة المستوردة والمحلية[25].

التنوع السكاني واشتغالهم بالمهن والحرف المتعلقة بالتجارة؛ كصناعة السفن والمراكب, وصيد الأسماك, واستخراج اللؤلؤ, والملاحة الساحلية[26], وأيضًا مهن الحمالين والصرافين والمعداويين الذين ينقلون البضائع بمراكبهم الشراعية من السفن الكبيرة إلى الميناء[27], وقد كان للموقع الإستراتيجي المهم لميناء جدة أثره في توجيه سُكَّانها إلى العمل التجاري والاتصال بالبحر؛ فقد امتلكت جدة أسطولًا تجاريًا كبيرًا تنوعت سفنه ما بين كبيرة وصغيرة, فمنها سفن اقتصرت حركتها على موانئ البحر الأحمر, ومنها سفن امتد نشاطها إلى الموانئ الواقعة خارجه؛ إذ كان يوجد سفن شراعية صغيرة قدر عددها بـ(200) سفينة, و تبلغ حمولتها (80) طنًا, وسفن شراعية كبيرة قدر عددها بعشر سفن, وتبلغ حمولتها من (600) إلى (1000) طن؛ أما ملاّحوها فكانوا من أبناء جدة المهرة وأصحاب خبرة بالملاحة والطرق البحرية في المحيط الهندي وصولًا إلى الشرق الأقصى[28]. وبما أن مدينة جدة مفتوحة للعالم الخارجي فإنها قد اجتذبت العديد من التجّار والبيوتات العربية وغير العربية من حضرموت, ونجد, والهند, وإيران, وجنوب شرق آسيا؛ إضافة إلى الدولة العثمانية, والمغرب العربي, وإفريقيا, وأوروبا, للإقامة فيها ومزاولة مهنة التجارة[29]؛ ومن ثمّ فإن سكّانها كانوا خليطاً من جنسيات مختلفة؛ سواء أكانت عربية أو غير عربية؛ إضافة إلى سكانها الأصليين[30].

أنها كانت ملتقى للطرق البحرية التي تربط بين ميناء جدة وبقية الموانئ في البحر الأحمر, والخليج العربي, والمحيط الهندي, وصولًا إلى الأناضول, وروسيا, وأوروبا, وشمال إفريقيا[31]؛ ومحطة

مرور لمعظم خطوط الملاحة العالمية لنقل البضائع والمسافرين عبر شركات السفن البخارية بشكل منتظم وخلال مواسم الحج؛ مثل: شركات السفن المصرية, والبريطانية, والفرنسية, والنمساوية, والهولندية, والعثمانية؛ ففي عام (1273هـ/1857م) تمت الموافقة من قِبل الدولة العثمانية على طلب ولاية مصر لأجل تأسيس شركة سفن بخارية؛ بهدف تنشيط الحركة الملاحية بين موانئ الحجاز وبقية الموانئ في البحر الأحمر والخليج العربي[32]لتبدأ نشاطها عام (1274هـ/1858م) باسم الشركة المجيدية, ثمّ أعيدت تسميتها لاحقا باسم الشركة العزيزية[33]عام (1280هـ/1864م)؛ حيث بدأت نشاطها الملاحي عبر خطها ما بين السويس وموانئ البحر الأحمر[34], من ضمنها جدة التي كانت إحدى المحطات التجارية للشركة[35], ثمّ اشترى الخديوي إسماعيل (1279 – 1296هـ/1863 – 1879م) عام (1281هـ/1865م) الشركة وحوّل اسمها إلى شركة البوستة الخديوية (Khedivial Mail S.S Company)[36], أما باقي السفن الأوروبية فكانت تستفيد من التسهيلات التي تقدمها سلطات الميناء في الشحن والتفريغ للبضائع؛ لذا كانت تستخدم جدة أحيانًا محطة لتوقف السفن البخارية وبالأخص البريطانية منها خلال مدّة الدراسة[37].

المنشآت التجارية في ميناء جدة كالأسواق, والوكالات, والخانات التي يسكنها التجّار[38]؛ غير أن الأسواق قد اكتسبت الأهمية الكبرى خلال تلك الفترة لتنوع البضائع والسلع القادمة من الموانئ الهندية, والمصرية, واليمنية, والأوروبية, أو ما يصل إليها من الإنتاج الداخلي من قرى وبواديها, أو حتى أطراف شبه الجزيرة العربية؛ فكانت تلك الأسواق مزدهرة ومتنوعة بأنواع كثيرة من السلع التجارية[39]لسدّ احتياجات سُكّانها ومن جاورهم؛ فكان من أشهر تلك الأسواق: سوق الندى, وسوق الجامع, وسوق البُنْط, وسوق الخاسكية[40], وسوق العصر, وسوق البدو, وسوق البرادعة, وسوق السبحية وسوق الرقيق وغيرها من الأسواق القديمة التي كانت تمتد بجانب البحر[41].

الخدمات البحرية وإرشاد السفن إلى مكان رسوها أو إخراجها بواسطة المرشد الملاحي[42]؛ حيث اشتهر سكان جدة بعمل المرشدين في الميناء[43]؛ إضافة إلى الإشراف المباشر في الميناء من حيث تطبيق الأنظمة والقوانين؛ كتحصيل إيرادات جمرك جدة من الرسوم والضرائب؛ فقد كان النظام المتبع في توزيع صافي حاصلات الجمرك مناصفةً بين الوالي العثماني وأمير مكة المكرمة[44], وكانت تُحدّد قيمة البضائع الواردة إلى الجمرك والصادرة منه بواسطة موظف من الجمارك يطلق عليه (الخردجي)؛ أي: المثمّن[45], ولم يكن يُسمح لأصحاب السفن بالرسو في الميناء وتفريغ ما فيها من البضائع إلاّ بعد إذن من السلطات الرسمية[46], وكان ملّاكو السفن إذا دفعوا رسومًا في جمرك جدة لا يدفعون رسومًا في موانئ الحجاز الأخرى[47]؛ ولعل هذا الأمر زاد من أهمية جمرك جدة من الناحية المالية؛ نظرًا لأن معظم السفن التجارية القادمة إلى ولاية الحجاز عادةً ما تأتي إلى ميناء جدة – أولًا – وتدفع جمركها بعد تفريغ حمولاتها, وقد كانت تزداد الرسوم بازدياد عدد السفن التجارية الواردة إليه, وخصوصا خلال مواسم الحج. وقد قامت السلطات الرسمية بين الحين والآخر بإصلاحات اللازمة لتطوير الميناء والاستفادة من تجارتها البحرية؛ ففي عام

(1312هـ/1895م) افتُتِح رصيف جديد لميناء جدة لتنظيم حركة مرور الحجاج والمسافرين القادمين إليها[48], وفي عام (1315هـ/1898م) أرسلت ولاية الحجاز للحكومة المركزية بإستانبول بضرورة تأسيس رصيف وترسانة[49] في جدة لتأمين حركة مرور السفن القادمة والمغادرة من الميناء[50], كما قام الوالي عثمان نوري باشا[51] بالإصلاحات اللازمة لتطوير ميناء جدة وتحسين أدائه؛ كتنظيم حركة نقل الحجاج والبضائع بواسطة السنابيك إلى الميناء, وعدم ترك البضائع والسلع على الأرصفة منعًا للتلف, كذلك تسقيف الأسواق بالخشب والحديد لكيلا يتعرض التجّار وسلعهم لحرارة الشمس؛ إلى جانب هدم العشش من الدكاكين والمقاهي حفاظًا على الصحة العامة[52].

لم تكن تجارة مدينة جدة ومينائها قاصرة على التجارة البحرية فقط؛ بل كان هناك التجارة البرية التي يمارسها تجّار جدة مع الموانئ والمدن كافة في شبه الجزيرة العربية؛ حيث تعتمد تلك التجارة على طرق القوافل التجارية التي لابدّ من توافر الأمن لنقل البضائع والسلع من جدة إلى باقي الموانئ والمدن الداخلية[53], وقد كان القبائل البادية هي المهيمنة على تجارة القوافل بصفة عامة, والتي كانت تنشط حركة القوافل أكثر خلال مواسم الحج, حيث كان لقبائل حرب وعتيبة وجهينة اليد الطولى في إعداد تجارة القوافل وتيسيرها[54], وقد كانت تُمثل قوافل الحج للقبائل مصدرًا رئيسيًا للدخل, وفرصة للتجارة؛ فالتجّار يذهبون بالقوافل إلى القبائل ليبيعوا بضائعهم ثمّ يعودون لينضمّوا إلى الحجاج قبل رحيلهم من الحجاز[55].

ينبع البحر:

برزت أهمية ميناء ينبع البحر ميناءً رئيسيًا للمدينة المنورة والتي كانت تُرسل إليها سنويًا من الدولة العثمانية أو من ولاية مصر المعونات الاقتصادية والعينية من الحبوب والقمح, ومخصصات الحرم المكي, ولوازم الحرم النبوي الشريف؛ إلى جانب أرزاق التكية المصرية, وما تحتاج إليه قافلة الحجّ المصري التي كانت تمرّ برًا على مقربة من الميناء[56]؛ فكان ميناءً مهمًا وفاعلا في النشاط الإقتصادي خلال تلك الفترة؛ حيث تعدّ التجارة والملاحة أهم الحرف والأنشطة الرئيسة لسكان ينبع البحر؛ إضافةً إلى صيد الأسماك واستخراج الصدف[57], وصناعة السفن والمراكب الشراعية[58]؛ وقد قدّر عدد سكان ينبع البحر بين (5000) و (7000) شخص[59], وفي أواخر العهد العثماني قدّر عددهم بـ(12,000) شخص[60], معظمهم ينتمون إلى قبيلة جهينة الموجودين في المناطق المجاورة لمدينة ينبع التي تمتد شمالًا بطول ساحل الحجاز؛ لذا وُصفت ينبع أنها مدينة عربية تمامًا لقلة عدد الأجانب فيها؛ فكان لتجّار ينبع نشاط بحري واسع ممتد بامتداد البحر الأحمر, وكان يرسو بميناء ينبع ما يقرب من أربعين أو خمسين سفينة لأجل التجارة[61], ومن أهم الواردات التي كانت تصل إلى مينائي ينبع البحر ورابغ: (الحنطة, والشعير, والقمح, والأرز, والعدس, والفول, والذرة والدقيق, والدخن, والسكر, والشاي والأخشاب), وتشمل الصادرات: (التمور, والعسل, والملح, والجلود, والأغنام, والأقمشة الهندية, والفحم النباتي, والحناء) [62].

ولقد ارتبطت ينبع البحر بالتجارة الداخلية مع كلٍّ من المدينة المنورة, وجدة, ورابغ, والوجه, والمويلح؛ والتي كانت تتمثل في الاستيراد والتصدير, وتوزيع البضائع, والنقل التجاري

البحري والبري؛ إذ كانت التجارة البرية بين المدينة المنورة وينبع البحر تتم بتسيير قافلة كل أسبوعين أو كل شهر - بحسب عدد الإبل الصالحة للسفر - لنقل البضائع والسلع[63], كما أن المراكب الشراعية قد أدّت دورًا مهمًا في نقل البضائع والمسافرين بين ميناء ينبع البحر وبقية الموانئ في الحجاز. وحرصت السلطات الرسمية آنذاك على تأمين حركة النقل والعبور بين الموانئ؛ سواء عن طريق البحر, أو البر, وتأمين وصول قوافل الحجاج, وبحسب ما ذكره الرحّالة المصري اللواء محمد صادق باشا الذي زار ينبع البحر عام (1297هـ/1880م) أنه كان يوجد في الميناء مخازن كبيرة لتخزين الغلال والمؤن التي كانت تُرسلها مصر خلال تلك الفترة, وأن معظم تجّارها كانوا من صعيد مصر؛ إلى جانب تجّار العرب الذين كانوا يزورون ينبع البحر خلال مواسم الحج, كما أن الحجاج كانوا يشترون ما يلزمهم من سوق ينبع[64], ويقع هذا السوق بجوار الميناء, وتباع فيه مختلف البضائع والسلع, وهو عبارة عن مجموعة من الدكاكين بينها طريق ضيّق يسير فيها الناس, وهذه الدكاكين كانت مسقوفة بجذوع النخل[65]؛ فقدّر عددها بـ(300) دكّان[66], وبمرور الوقت ازداد عدد الدكاكين والمحلات التجارية؛ فتميز سوق ينبع بحركة تجارية واسعة ومستمرة طوال العام, وبالأخص خلال مواسم الحج[67]؛ وبجانب السوق توجد المقاهي التي يتردد عليها التجّار والحجاج وغيرهم[68]. وقد كان سكان ينبع البحر يستفيدون من تخزين حاجيات الحجاج من بضائع ومؤن مقابل مبلغ معيّن إلى حين عودتهم من الحج[69].

كما تقع مصلحة للجمارك في الجهة المقابلة للميناء الذي ترسو عليها السفن القادمة, ويتولى إدارة شؤون هذه المصلحة عدد من الموظفين الأتراك الذين كانوا يحصّلون الرسوم على البضائع الواردة للميناء[70]؛ إلى جانب مقر للحكومة والبريد, وصهاريج يتجمع فيها مياه الأمطار, وبسبب موقع ينبع البحر الإستراتيجي, ووقوعها على طريق قوافل الحجاج والتجّار فإن الوالي عثمان نوري باشا قد بنى سورًا ثانيًا لينبع حمايةً لها[71], وكان يدير شؤون المدينة قائمقام خاص لمتابعة أوضاعها؛ حيث كانت تتبع إداريًا لسنجق المدينة المنورة[72], كما كان لينبع محافظ ونائب عنه, ومجلس إدارة يرأسه المحافظ ويتألف من ستة أعضاء, ثلاثة منهم منتخبون[73].

ولقد اهتمت السلطات العثمانية بإصلاح ميناء ينبع البحر وترميم أرصفته خلال تلك الفترة؛ بهدف تنشيط الحركة التجارية فيه؛ ففي عام (1321هـ/1903م) حيث أصدرت السلطات الرسمية أوامرها بضرورة ترميم أرصفة الميناء وإصلاحه لأجل حماية الحركة التجارية فيه, وعدم إتلاف البضائع والسلع الموجودة في المخازن[74].

رابغ :

تقع رابغ على ساحل البحر الأحمر فيما بين ينبع البحر وجدة, وهي عبارة عن مرفأ صغير يبعد عن جدة سبعة أميال بحرًا وثلاثين ساعة برًا ناحية الشمال[75]؛ لذا وُصفت رابغ أنها قرية تبعد عن ساحل البحر مسيرة ساعة على الجمال, ولم يكن بها مرسى للسفن؛ حيث كانت السفن تقف بعيدة في عرض البحر, لتنقل بعدها السنابيك البضائع والمسافرين إلى الساحل[76]. وترجع أهمية رابغ خلال تلك الفترة في أنها أحد الموانئ الرئيسة لنزول قوافل الحجاج القادمة

إليها عن طريق البحر وخاصة من مصر والشام والشمال الإفريقي والإحرام منها ثمّ التوّجه إلى مكة المكرمة؛ إلى جانب أنها إحدى محطات التموين الاقتصادي والعسكري للقوافل المارة بها[77]؛ إذ يوجد بها سوق كبير

وقلعة تحتوي على مخازن للغلال وذخائر[78]كان قد بناها الوالي عثمان باشا[79]عام (1260هـ/1844م) بهدف حماية القوافل والتجّار وغيرهم من اعتداءات بعض القبائل[80]. وقد ازدهر هذا الميناء بحركته التجارية الداخلية التي ربطت بينه وبين ميناء جدة باستيراد كثير من البضائع التي تصل إلى جدة من الموانئ الهندية, وإعادة تصديرها إلى رابغ بواسطة المراكب الشراعية[81], كما ارتبط بميناء ينبع البحر وبما يرد إليه من بضائع مصرية خلال تلك الفترة[82], وأيضًا بميناء الليث في جنوب جدة[83]؛ إلى جانب ازدياد حركة البيع والشراء فيه خلال مواسم الحج عند مرور قوافل الحجاج[84], ومع تطور الحركة التجارية في رابغ قررت السلطات الرسمية تأسيس إدارة للرسوم الجمركية عام (1301هـ/1884م) إلى جانب مخازن لتخزين البضائع والسلع التجارية في الميناء؛ منعًا للتلف أو السرقة[85].

اللّيثِ :

يُعد ميناء اللّيثِ أحد أقدم الموانئ على ساحل البحر الأحمر, وهو ميناء صغير في جنوب جدة, قدّر عدد سكانه بـ(6000) نسمة[86], فسمُيت خلال تلك الفترة بالحميدية أو قائمقامية الليث (معمورة الحميدية) بحسب وضعها الإداري في ولاية الحجاز[87]؛ وحظي باهتمام كبير خلال تلك الفترة لأسباب تجارية وعسكرية؛ حيث كان منفذاً بحريًا مهمًا لكلٍّ من عسير وتهامة, يرتاده تجّار عسير لقربه من ميناء القنفذة[88]الذي تربطه بالليث روابط التبادل التجاري المحلي؛ إلى جانب ميناء جدة الذي كانت تُرسل البضائع والتجارة الداخلية إلى الليث بواسطة المراكب الشراعية والسفن التجارية؛ والتي تجد رواجًا كبيرًا في سوق الليث[89]. ولم يقتصر نشاطه التجاري على ورود السفن من موانئ الحجاز فحسب؛ بل من خارجه كموانئ البحر الأحمر والخليج العربي والهند؛ فكان بها جمرك, وأمينها يُحصّل الرسوم على بضائع التجّار؛ سواء الواردة إلى الميناء, أو الصادرة منه؛ إضافةً إلى وجود كاتب للجمرك مهمته تسجيل الرسوم المقررة على البضائع[90].

ولقد شمل واردات ميناء الليث الكثير من البضائع والسلع المتنوعة مثل: (الدقيق, والبن, والشاي, والسكر, والتوابل, والزيوت, واللبان, والمصوغات الذهبية والفضية, والسلاح) ؛ حيث كانت تجارة السلاح خلال تلك الفترة مزدهرة لافتقار الناس إلى عنصر الأمن, وقد اعتاد تجّار قبائل ألمع على ارتياد ميناء الليث لشراء ما يلزمها من السلاح, وقد تمثلت صادرات ميناء الليث في: (الجلود, والصمغ, والحبوب, والسمن البلدي، والتمر, والأصواف, والماشية) [91].

ولما لميناء الليث من أهمية لموقعه الجغرافي المهم, ولأهميته التجارية والإستراتيجية على ساحل الحجاز؛ فإن الوالي عثمان نوري باشا قد قدّم مذكرة إلى الحكومة المركزية بإستانبول في (19 ربيع الأول 1305هـ/ 15 ديسمبر 1887م) يطلب فيها تخصيص المبلغ المطلوب لإصلاح وإعماره, من بناء مقر للحكومة, وقلعة صغيرة, وعدة منازل[92], وبالفعل أُصْلِح الميناء وعُمِّر بفضل جهود

الوالي العثماني خلال تلك الفترة[93], وقد ساعد على ازدهار الحركة التجارية في ميناء الليث وأسهم بفاعلية في تطورها العمراني أنها كانت محطة لمرور قافلة الحج اليمني جنوبًا أو بالقرب منها؛ حيث كان الحجاج يشترون ما يحتاجون إليه من سلع ومواد الغذائية, ويبيعون بعض السلع والمصنوعات التي جلبوها معهم؛ مما يحقق منفعة كبيرة لسكان الليث والتجّار خلال مواسم الحج[94].

موانئ شمال الحجاز: الوجه – المويلح – ضباء – العقبة:

بدأت الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 – 1327هـ/1876 – 1909م) تطالب بضمّ الشريط الساحلي الممتد من الوجه جنوبًا حتى العقبة شمالًا تحت الإدارة العثمانية في الحجاز وإنهاء السيادة المصرية لها؛ حفاظًا على الساحل الشمالي للبحر الأحمر[95]؛ نتيجة لمتغيرات عدة في المنطقة, ومراسلات الوالي عثمان نوري باشا للحكومة العثمانية[96], من أبرزها الاحتلال البريطاني لمصر عام (1299 هـ/1882م) وإبعاد الخطر البريطاني عن شمال الحجاز؛ لكون تلك المواقع والقلاع تمثل خطًّا أوليًا للأماكن المقدسة عبر طرق قوافل الحج المصري والشامي الواقعة إلى الداخل, وهو أمر أدركته الدولة العثمانية؛ لذلك وقفت بشدة أمام أي خطر يقترب من شمال الحجاز[97]؛ وإبعادًا لهذا الخطر أرسلت الإدارة العثمانية في الحجاز (200) جندي وجهازًا إداريًا برئاسة قائمقام, ومعه موظفون للسيطرة على الوجه وإداراتها عام (1305هـ/ 1888م)[98], وفي (1 رجب 1309 هـ/31 يناير 1892م) أُصدرت الأوامر إلى ولاية الحجاز بضمّ مينائي المويلح وضباء تحت الإدارة العثمانية مباشرةً[99], وفي العام نفسه ألحقت العقبة بولاية الحجاز بعد انسحاب القوات المصرية منها[100].

أما أهم ملامح ومقومات النشاط التجاري لتلك الموانئ فقد جاءت كالآتي:

الوجه: ميناء صغير على الساحل الشرقي للبحر الأحمر شمال الحجاز, قدر عدد سكانه بـ(2500) نسمة, وبحسب التشكيلات الإدارية لولاية الحجاز فقد أصبح الوجه قائمقامية من الدرجة الأولى نظرًا لأهميته, ويوجد فيه مقر للحكومة, وثكنات عسكرية, وإدارة الحجر الصحي[101], وقلعة عسكرية تحتوي على مخازن لتموين قوافل الحجاج, وبرج على الساحل لمراقبة حركة السفن[102], وقد عمل سكانها في صيد الأسماك والتجارة مع موانئ البحر الأحمر؛ حيث تصل البضائع والسلع من مينائي السويس والقصير؛ إلى جانب البريد عبر خط ملاحي السويس – الوجه كل خمسة عشر يومًا بواسطة مراكب الشركة الخديوية[103]؛ أما صادرات الوجه الخارجية فكانت عبارة عن منتجات محلية كالسمن والصوف[104], وكذلك يوجد سوق محلي يقصده التجّار والحجاج والقبائل البادية خلال مواسم الحج, وبلغ عدد دكاكين الوجه (20) دكانًا [105]؛ فكان للقبائل البادية دور في تجارة الوجه حيث يبيعون الزبد واللبن وغيره, ويشترون الأرز واللبن[106].

ومع تطور تجارة الوجه البرية والبحرية وبناءً على مذكرة أرسلتها إدارة الرسوم الجمركية في جدة عام (1313هـ/1895م) إلى نظارة الرسوم الجمركية بإستانبول تقرر تأسيس مقر لإدارة الرسوم الجمركية في الوجه على مساحة أرض (182) مترًا مربعًا, وبتكلفة مالية (14,729) قرشًا عثمانيًا

مـن خـلال الرسـومات والكشـف المبـدأئي لمبـانٍ تلـك الإدارة المزمـع تأسيسـها, وعـلى مـا يبـدو فقـد أصبحـت إدارة الرسـوم الجمركيـة في الوجـه تابعـة لإدارة الرسـوم الجمركيـة في جـدة بعـد تأسيسـها عـام (1316هـ/1898م) [107].

المويلـح : سـاعد موقـع المويلـح عـلى طريـق الحجـاج في ازديـاد الحركـة التجاريـة فيهـا بحسـب مـا ذكـره الرحالـة الذيـن زاروهـا خـلال تلـك الفـترة, وفي الوقـت نفسـه ارتبطـت بعلاقـات تجاريـة مـع الموانـئ المصريـة وغيرهـا مـن الموانـئ بواسـطة المراكـب الشراعيـة, حيـث مثلـت التجـارة النشـاط الرئيـسِ لسـكانها ومـا جاورهـم مـن القبائـل الباديـة[108], وقـد وفّـرت قلعـة المويلـح متطلبـات قافلـة الحـج المـصري, وللتجّـار والقبائـل القاطنـين حـول القلعـة[109], وقـد كان يوجـد أمـام القلعـة سـوق يبـاع فيهـا مـا يحتاجـه الحجـاج والمسـافرون مـن البضائـع والسـلع؛ كالحبـوب, والخـضروات, والعسـل, والسـمن وغـيره[110], وكان التجّـار الذيـن يقصـدون المويلـح يقيمـون في أكـواخ أو خيـام, كذلـك القبائـل الباديـة لمـا لهـا مـن الأهميـة بالنسـبة لهـم؛ لأنهـا أقـرب بلـدة إليهـم يحصلـون فيهـا عـلى المـؤن والبضائـع[111], وبحسـب مـا ذكـره الرحالـة المـصري صـادق باشـا الـذي مـر بالمويلـح عـام (1297 هـ/1880م) أن بهـا مخـازن لتجـارة الفحـم والحطـب والمـواد الغذائيـة[112].

ضبـاء: يعـدّ أحـد أقـدم الموانـئ عـلى سـاحل البحـر الأحمـر, وهـو مينـاء صغـير يسـتقبل الحجـاج عـن طريـق المراكـب الشراعيـة[113]؛ والبضائـع والسـلع مـن الموانـئ المصريـة؛ فمنـذ أوائـل عـام (1300هـ/1883م) كانـت هنـاك حركـة الصـادرات والـواردات متبادلـة بـين ضبـاء ومـصر بواسـطة السـفن الشراعيـة؛ إضافـةً إلى علاقـات تجاريـة مـع موانـئ البحـر الأحمـر نتيجـةً لاشـتغال سـكانها بالتجـارة البحريـة؛ فضـلًا عـن حركـة تجاريـة داخليـة مـع جـدة وينبـع والوجـه, وبجانـب هـذه الحركـة التجاريـة البحريـة كانـت تقـوم حركـة تجاريـة بريـة بـين ضبـاء وبقيـة المناطـق والمـدن[114]. وقـد تمتعـت مدينـة ضبـاء بأهميـة كبـيرة خـلال تلـك الفـترة؛ نتيجـةً لموقعهـا الإسـتراتيجي لجميـع الطـرق التـي تأتيهـا مـن ولايتـي الشـام والحجـاز ومـا إليهـما[115], وقـد كان فيهـا سـوق تجـاري يمـوّن بعـض المـدن والمناطـق القريبـة مـن المـواد الغذائيـة الضروريـة التـي يعتمـد عليهـا السـكان في حياتهـم[116].

العقبـة: هـي مدينـة صغـيرة في رأس خليـج العقبـة عـلى نحـو (190) ميـلًا مـن السـويس بطريـق البحـر, ومـن ثـمّ فهـي تحتـل موقعًـا متميـزًا عـلى رأس الخليـج الضيـق الـذي أعطتـه اسـمها؛ فعُرفـت قديمـا باسـم (أيلـة)[117], وقـد عظـم شـأنها في العهـد العثـماني الثـاني عندمـا جعلوهـا مركـزًا لتمويـن جيشـهم في اليمـن, ومـدوا إليهـا خـط الهاتـف مـن معـان عـام (1323هـ/1905م), وكان مـن المقـرر أن يمتـد خـط فرعـي سـكة حديـد الحجـاز مـن معـان إلى العقبـة, لكـن لم يُنفّـذ؛ إلى جانـب أنهـا كانـت محطـة مـن محطـات قافلـة الحـج الشـامي والمـصري[118].

وقـد بـرز دور العقبـة الاقتصـادي خـلال تلـك الفـترة لكونهـا ملتقـي للطـرق التجاريـة البريـة والبحريـة؛ حيـث شـهدت المنطقـة صـلات تجاريـة مـع كلٍّ مـن بـلاد الشـام ومـصر عـبر العديـد مـن الطـرق؛ مـما سـاعد عـلى وصـول السـلع التجاريـة إليهـا, وتصديـر بعـض منهـا إلى خارجهـا؛ سـواء كان ذلـك إلى المناطـق المجـاورة, أو إلى بلـدان المجـاورة مثـل بـلاد الشـام ومـصر؛ إلى جانـب كونهـا سـوقًا تجاريًـا

كبيرًا منذ انتظام مرور قوافل الحج المصري على الدرب البري إليها حتى عام (1301هـ/1884م) عندما اتخذت طريقًا بحريًا من السويس إلى جدة للوصول إلى الأماكن المقدسة, وقد كان للقبائل البادية دور في النشاط التجاري للعقبة بتقديم إبلهم وخدماتهم لقوافل الحج المارة, مقابل الأعطيات الممنوحة لهم, وأحيانًا مرافقتها إلى مكة المكرمة؛ إضافة إلى تسويق منتجاتهم المحلية وشراء ما يلزمهم من المؤن والبضائع[119]. ومن الملاحظ أن موانئ شمال الحجاز كانت عبارة عن مرافئ صغيرة لتوقف المراكب الصغيرة ومرورها, لا السفن البخارية الكبيرة, مع محدودية النشاط التجاري والناتج المحلي, ما عدا ميناء الوجه الذي اكتسب الأهمية الإدارية والسياسية والاقتصادية خلال تلك الفترة, إلى جانب أنها عبارة عن محطات لمرور قوافل الحجاج شمالا إلى مكة المكرمة, وفي تقديم بما يلزم من الماء والمؤن. وقد استمرت الموانئ تُمثل أهمية بارزة مراكز للحركة التجارية لسكان ولاية الحجاز حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى؛ حيث توقفت الحركة التجارية للموانئ نتيجةً للحصار البحري البريطاني لساحل الحجاز[120], وفي (9 شعبان 1334هـ/10 يونيو 1916م) اندلعت الثورة العربية الكبرى بعد مراسلات (حسين – مكماهون[121](3)) لتكون جدة أول مدينة تقع في أيدي قوات الشريف حسين بن علي بعد أن سلّمها العثمانيون لهم في (15 شعبان/ 17 يونيو) في ذلك العام, وأصبحت مستودعًا كبيرًا ومخزناً للأسلحة والذخائر لعمليات قوات الشريف خلال الثورة العربية[122]؛ أما باقي الموانئ فقد سُلّم بعضها أو كلها للثوار على إثر سقوط جدة؛ إما سلمًا أو عسكريًا إلى أن سقطت العقبة بأيدي قوات الشريف عام (1335هـ/1917م)[123].

الخاتمة :

أسهم الموقع الجغرافي للحجاز على ساحل البحر الأحمر واتصاله ببلاد الشام شمالا واليمن جنوباً, وبمصر برًا وبحرًا, ومقابلته للموانئ الإفريقية في تنشيط الحركة التجارية, وازدهار الأسواق بتنوع السلع القادمة إليه, كما ارتبطت الحركة التجارية في الحجاز بمواسم الحج ارتباطًا وثيقًا؛ فتكرار الشعيرة سنويًا فتح المجال أمام العديد من الأنشطة التجارية التي تتم عبر المنافذ الساحلية لهذا الإقليم؛ ومن ثمّ ارتكز النشاط التجاري لموانئ الحجاز على عاملين رئيسين, هما: الموقع الإستراتيجي للإقليم على ساحل البحر الأحمر, وتدفق الحجاج سنويًا خلال مواسم الحج. وبعد العرض التاريخي للموضوع توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج, من أهمها:

ارتبط النشاط التجاري لموانئ الحجاز بعدة عناصر أو مقومات مشتركة أثرّت في وجود هذا النشاط ونمّوه؛ ولعلّ من أبرزها الموقع الجغرافي وأثره على نشاط السكان التجاري, مواسم الحج, الأسواق التجارية والمخازن, الجمرك, تنوع التجارة ما بين داخلية وخارجية.

أن جميع الموانئ في الحجاز قد ارتبطت ببعضها بواسطة المراكب أو السفن الشراعية الصغيرة لنقل البضائع والمسافرين, وأيضًا عن طريق قوافل الحج المارة بالقرب منها, والقبائل البادية الذين يقصدون الموانئ للبيع والشراء.

أن النشاط التجاري البحري في الحجاز كان مركزًا في موانئ بعينها على رأسها جدة وينبع البحر؛ مع تباين بقية الموانئ وتفاوتها في الأهمية التجارية والاقتصادية.

دور الـوالي عثـمان نـوري باشـا في إصـلاح بعـض الموانـئ وتعميرهـا لتنشـيط الحركـة التجاريـة فيـه وحمايتـه؛ إلى جانـب دوره في اسـتعادة الإدارة العثمانيـة لموانـئ شـمال الحجـاز وإنهـاء التبعيـة المصريـة لهـا؛ نتيجـة لمتغـيرات وأحـداث عـدة في المنطقـة.

التوصيات :

ضرورة اهتـمام بالدراسـات البحثيـة حـول الوظائـف والمهـن المتعلقـة بالتجـارة البحريـة في موانـئ الحجـاز والبحـر الأحمـر.

إلقـاء الضـوء عـلى دور القبائـل العربيـة بالحجـاز مـن النواحـي الاقتصاديـة والاجتماعيـة خـلال فـترات تاريخيـة متعاقبـة.

إعـداد دراسـة تاريخيـة حـول جهـود الـوالي العثـماني نـوري باشـا في الولايـات العربيـة (الحجـاز, واليمـن, وبـلاد الشـام).

ملحق رقم (1), خريطة إقليم الحجاز وموانئه خلال فترة الدراسة[124](*) :

الهوامش:

(1) أحمد السباعي, تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران, ج2 (الرياض : الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية, 1419هـ/ 1999م), ص 592 – 593 , 635

(2) عبد الرحمن سعد العرابي, التمردات الاجتماعية في مكة المكرمة إبان فترة الحكم العثماني للحجاز 1256 – 1334 هـ/ 1840 – 1916 م أسبابها وتأثيراتها من خلال المصادر المحلية المعاصرة, مجلة جامعة الملك عبد العزيز, مج 18, ع1 (1431هـ/ 2010م), ص 4 , 46 .

(3) العرابي, التمردات الاجتماعية في مكة المكرمة, ص 17.

(4) للاستزادة حول قانون الولايات الصادر من الدولة العثمانية عن الحجازانظر:
Saleh Muhammed Al – Amr,The Hijaz Under Ottoman Rule 1869 – 1914 :Ottoman Vali,The Sharif of Mecca, and The Growth of British Influence,(Riyad: Riyad University, 1978), p 71.

(5) تستند حركة التنظيمات أو حركة الإصلاح والتجديد العثمانية إلى مرسومين أساسيين صدرا في عهد السلطان العثماني عبد المجيد الأول (1255 – 1278هـ/1839 – 1861م), وقد كان لهما الفضل في إنقاذ الدولة من أزمات تعرضت لها, وسنّ قوانين وأنظمة تتماشى مع ظروف ذلك العصر وعلى المبادئ الأوروبية دون المساس بالشريعة الإسلامية, فعُرف الأول بخط شريف كلخانة عام (1255هـ/1839م), والثاني بخط الهمايوني عام (1272هـ/1856م). انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى, أصول التاريخ العثماني, ط3 (القاهرة: دار الشروق, 1424هـ/2003م), ص 198 – 213

(6) مبارك محمد المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة خلال الحكم العثماني الثاني 1256 هـ-1335/1840 - 1916م (جدة: النادي الأدبي الثقافي, 1413هـ/ 1993م), ص21, 259

(7) آمال السبكي, الملاحة البريطانية في البحر الأحمر 1881 – 1888م , (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية, 1985م), ص8, 14؛ سلوى سعد سليمان الغالبي, دور القنصلية البريطانية في جدة من خلال وثائق الأرشيف البريطاني (1297 – 1302 هـ/ 1879 – 1884م), الدرعيّة, السنة 14 , العددان الثالث والرابع والخمسون, (1433هـ/2012م) , ص 303

(8) جميلة العيسى, الصراع البريطاني الفرنسي حول البحر الأحمر (1213 – 1286هـ/1798 – 1869م), (الرياض: مكتبة العبيكان, 1421هـ/2001 م), ص 381 – 382.

(9) المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة, ص 145 – 146.

(10) للاستزادة أكثر حول قانون التجارة البحرية الذي أصدرته الدولة العثمانية عام (1280هـ/1863م) انظر: نوفل أفندي نعمة الله نوفل, الدستور, مراجعة وتدقيق: خليل أفندي الخوري, مج1, (بيروت: المطبعة الأدبية, 1301هـ), ص 266 – 322

(11) الامتيازات التجارية: اسم يطلق على الاتفاقيات الخاصة التي نال بها الأجانب المقيمون في

الدولة العثمانية حقوقًا تستثني رعاياها من سلطات التشريعات كالقضاء والضرائب, وكانت الامتيازات تتضمن إعفاء الأجانب من الضرائب, واحترام حرمة مساكنهم, وحمايتهم من القبض عليهم إلاّ من خلال أحد موظفي القنصلية التابع لها.انظر: أحمد عطيّة الله, القاموس السياسي, ط3, (القاهرة: دار النهضة العربية, 1968 م), ص 118.

(12) عبد الرؤوف سنّو, تطوّر الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية : من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني, مجلة المنهاج, ع4, (1417هـ/1996م), ص 117 – 118.

(13) محمد سعيد الشعفي, التجارة الخارجية لمدينة جدة في العهد العثماني 1840/ 1916م, (الرياض: د.ن, 1428هـ /2007م), ص 41.

(14) الفرق بين المرفأ والميناء أن المرفأ يُطلق على الجزء الهادي من الماء الذي يعدّ لحماية السفن؛ بشرط أن يكون ذا عمقٍ كافٍ يسمح باستقبالها ورسوها؛ أما الميناء فيشمل المرفأ إضافةً إلى جميع المنشآت التي تستخدم في عمليات الشحن والتفريغ والتخزين وزوارق الإرشاد وغيرها؛ ومع ذلك فليس كل مرفأ طبيعي يكون ميناء. انظر: ثريا أحمد العصيمي, المظاهر الحضارية لمدينة جدة من خلال كتب الرحالة الغربيين, (جدة: مركز تاريخ البحر الأحمروغرب المملكة العربية السعودية, 1445هـ), ص 91

(15) عبد الله بن سراج عمر منسي, جدة في التاريخ الحديث (923 – 1344هـ/1517 – 1926م), (الناشر المؤلف, 1436هـ/2015م), ص 97

(16) أيوب صبري باشا, مرآة جزيرة العرب, ترجمة وتعليق: أحمد فؤاد متولي والصّفصافي أحمد المرسي, (القاهرة: دار الآفاق العربية, 1419هـ/ 1999م), ص 134 – 135

(17) قائمقام: هو الشخص الذي يقوم مقام الغير في منصبه, مثل قائمقام الصدارة وقائمقام إستانبول, وهو أعلى منصب إداري في الأقضية؛ وفي جدة كان قائمقام يمارس سلطته الواسعة بواسطة عدد من الموظفين والهيئات التي يرأسها, وكان تعتمد سلطته ونفوذه على شخصية والي الحجاز من حيث قوته أو ضعفه. انظر : سهيل صابان, المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية, (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية, 1421هـ/2000م), ص 170 ؛ إسماعيل, مرجع سابق, ص 21

(18) صابرة مؤمن إسماعيل, جدة خلال الفترة 1286 – 1326هـ/ 1869 – 1908م دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة, (الرياض: دارة الملك عبد العزيز, 1418هـ), ص 19, 21

(19) تهاني جميل الحربي, القنصليات الأجنبية في جدة (1252 – 1344هـ/1836 – 1925م) دراسة تاريخية وثائقية, (الرياض مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية, 1440هـ/2019م), ص 341 ؛

(20) Al – Amr ,Op.Cit, p 169.

(21) وليم أوكسنولد, الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب الحجاز تحت الحكم العثماني1840 – 1908م, ترجمة: عبد الرحمن سعد العرابي, جدة: مركز النشر العلمي جامعة الملك عبدالعزيز, 1431 هـ/2010 م), ص 149.

(22) أوكسنولد, مرجع سابق, ص 40, 42.

(23) العصيمي, مرجع سابق, ص 102.

(24) حجاز ولايتي سالنامة سي سنة 1309هـ/1892م , (مكة المكرمة: مطبعة الحجاز ولايتي, 1309هـ), ص277 – 278؛ صبري باشا, مرآة جزيرة العرب, ص 133.

(25) السنابيك: مفردها سنبوك, وهي زوارق أو مراكب شراعية متوسطة الحجم, تحمل ما يزن مائة رطل فما فوق, وهي تنقل البضائع والمسافرين من السفن الكبيرة الراسية في البحر إلى الساحل؛ والواقع أن هذه المراكب الشراعية كانت لها أسماء مختلفة للتمييز بين أنواعها؛ فهناك سنبوك وهو أكبرها, والهوري وهو عبارة عن زورق صغير يتسع لشخصين أو ثلاثة, وغالبًا ما يستعمله الصيادون, وهناك النوري وهو الوسط بين السنبوك الكبير وبين الهوري الصغير. انظر : الأرشيف العثماني بإستانبول, 7/DH.MKT 1351 , السفن الشراعية في جدة , عام 1303 هـ, محمد علي مغربي, ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري, (جدة: تهامة, 1982م), ص 175

(26) المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة, ص 415 .

(27) يفيم ريزفان, الحج قبل مئة سنة – عبد العزيز دولتشين ومهمته السرية في مكة عام 1898م, ترجمة: دار التقدم في موسكو, ط2, (بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية, 1993م), ص 179.

(28) عبد الرحمن سعد العرابي, الحرفيون في جدة في القرن 13هـ/19م, مجلة جامعة الملك عبد العزيز, مج 23, ع1, (1436هـ/ 2016 م), ص 35 , 46.

(29) حجاز ولايتي سالنامة سي سنة 1309هـ/1892م , ص 277.

(30) نورة إبراهيم نامي النامي, أثر النشاط التجاري على البيوت التجارية بجدة وعوامل استمرارها خلال الفترة الزمنية (1256 – 1335هـ/1840 – 1916م), مجلة الدراسات العربية, مج40, ع 3, (2019م), ص 1441.

(31) إبراهيم رفعت باشا, مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية, ج1 (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية, 1344هـ /1925م), ص23

(32) حجاز ولايتي سالنامة سي سنة 1301هـ/ 1884م , (مكة المكرمة: مطبعة الحجاز ولايتي , 1301هـ), ص 274.

(33) الأرشيف العثماني – التصنيف: A.MKT.UM 69/1981 –, عنوان الوثيقة : طلب ولاية مصر تأسيس شركة نقل بحري في البحر الأحمر, تاريخ الوثيقة: 5 /6 /1273هـ, دارة الملك عبد العزيز, رقم السجل: 43215.

(34) Ulrike Freitag, A History of Jeddah: The Gate to Mecca in the Nineteenth and Twentieth Century's, (Cambridge: Cambridge University Press, 2020), p 52 .

(35) أحمد كمال الطوبجي, النقل البحري في مصر, (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر, 1959م), ص 65 – 69.

(36) منسي, مرجع سابق, ص 99.

(37) أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون, تاريخ مصر في العهد العثماني 1517 – 1914م , مج2, (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية, 1439هـ/ 2017 م), ص 633.

(38) إسماعيل, مرجع سابق, ص 103.

(39) جون لويس بوركهارت, ترحال في الجزيرة العربية, ترجمة: صبري محمد حسن, مراجعة: محمد صابر عرب, ج1, (القاهرة : المركز القومي للترجمة, 2007 م), ص 35 , 71.

(40) مبارك محمد المعبّدي, بعض ملامح أسواق جدة التجارية في القرن الثالث عشر الهجري, (جدة: دار العلم للطباعة والنشر, 1410هـ), ص 13 , 20.

(41) أحمد محمد أحمد الحضراوي, الجواهر المعدّة في فضائل جدة, تحقيق: علي عمر, (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية, 1423هـ/2002م), ص 50 – 53

(42) إسماعيل, مرجع سابق, ص 60.

(43) عبير عثمان محفوظ الصبان, الحرف والصناعات في جدة في القرن 14هـ/20م , رسالة ماجستير, جامعة الملك عبد العزيز, جدة, (1441هـ/2020 م), ص 78 .

(44) ريزفان, مرجع سابق, ص 179.

(45) المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة, ص 136.

(46) إسماعيل, مرجع سابق, ص 122 .

(47) المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة, ص 137.

(48) Al – Amr ,Op.Cit, p 78.)

(49) فيليب بيتريا, تاريخ مشترك مصادر فرنسية لتاريخ شبه الجزيرة العربية (الحجاز ونجد) 1839 – 1943م, ترجمة: المركز الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية (صنعاء : المركز الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية, 2014م), ص 157

(50) ترسانة: هي المنشأة التي تقام على ساحة واسعة فوق شواطئ البحار والأنهار عمومًا, وتحتوي على الورش التي تُنشيء السفن الحربية والتجارية, وتعمل على صيانتها وإصلاحها. انظر : صالح سعداوي صالح, مصطلحات التاريخ العثماني: معجم موسوعي مصور, مج1, (الرياض: دارة الملك عبد العزيز, 1437هـ/2016م), ص 368 .

(51) الأرشيف العثماني – التصنيف: 175/ 374 – Y.MTV, عنوان الوثيقة: طلب تأسيس رصيف وميناء بحري لجدة, تاريخ الوثيقة: 1315/11/29هـ, دارة الملك عبد العزيز, رقم السجل: 45837 .

(52) عثمان نوري باشا: عيّن قائداً للحجاز برتبة فريق عام (1297هـ/1880م), ثمّ واليًا على ولاية الحجاز وشيخًا للحرم عام (1299هـ/1882م), وبقي في هذا المنصب حتى عام (1303هـ/1886م). مُنح رتبة المشيرية عام (1303هـ/1886م) تقديرًا للخدمات التي قدمها, وعُزل في السنة ذاتها. ثمّ نقل إلى حلب وبعدها إلى اليمن واليًا, كما عيّن مرتين لولاية بلاد الشام, وأعيد تعيينه

لولاية الحجاز عام (1310هـ/1892م) وحتى عام (1311هـ/1893م) , ثمّ عُزل منها, فعاش في إستانبول حتى وفاته. انظر : سهيل صابان, مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني, (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة, 1425هـ/2004م) ص 133.

(53) الحضراوي, مرجع سابق, ص 46.

(54) لطيفة ناصر المطلق, النشاط التجاري في ميناء جدة الإسلامي في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي , مجلة المؤرخ المصري , ع 35, (2009 م), ص 22 – 23

(55) المعبّدي, بعض ملامح أسواق جدة التجارية, ص 12.

(56) أوكسنولد, مرجع سابق, ص 46.

(57) حمد الجاسر, بلاد ينبع لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة, (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر, 1967م), ص 71؛ عدنان عيسى العمري, النشاط الاقتصادي في ينبع في العصر العثماني من خلال الوثائق والإشارات التاريخية,, (المدينة المنورة: كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز للدراسات تاريخ المدينة المنورة, د.ت), ص 67

(58) بوركهارت, ترحال في الجزيرة العربية, ج2, ص 210؛ ريزفان, مرجع سابق, ص 177.

(59) عبد الكريم محمود الخطيب, تاريخ يَنبُع, (الرياض: د.ن, 1405هـ/ 1985م) , ص 186.

(60) صبري باشا, مرآة جزيرة العرب, ص 152؛ رفعت باشا, مرجع سابق, ج1, ص 12.

(61) شرف عبد المحسن البركاتي, الرحلة اليمانية لشريف مكة حسين بن علي, (لندن: دار الورّاق للنشر, 2007 م), ص 144

(62) بوركهارت, ترحال في الجزيرة العربية, ج2, ص 209؛ 210.

(63) سميرة مبارك علي بلسود, مينائي ينبع ورابغ فيما بين عامي (1256 – 1373هـ/1840 – 1954م) دراسة تاريخية حضارية, رسالة دكتوراه, جامعة أم القرى, مكة المكرمة, (1430هـ/2009م), ص 242 – 253؛ العمري, مرجع سابق, ص 23 – 24

(64) المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة, ص 420.

(65) محمد صادق باشا, الرحلات الحجازية , إعداد وتحرير : محمد همام فكري, (بيروت: بدر للنشر والتوزيع, 1999م), ص 93 .

(66) ريتشارد ف. بيرتون, رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز, ترجمة وتعليق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ, ج1, (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب, 1994م), ص 186.

(67) الجاسر, مرجع سابق, ص 109.

(68) العمري, مرجع سابق, ص 26.

(69) بيرتون, مرجع سابق, ص 186.

(70) العمري, مرجع سابق, ص 28.

(71) بيرتون, مرجع سابق, ص 187.

(72) رفعت باشا, مرجع سابق, ج1, ص 13.

(73) ريزفان, مرجع سابق, ص 179.

(74) رفعت باشا, مرجع سابق, ج1, ص 13.

(75) الأرشيف العثماني – التصنيف: 22/2266 – S.D, عنوان الوثيقة: طلب ترميم وإصلاح رصيف ميناء ينبع, تاريخ الوثيقة: 7 / 8 / 1321هـ, دارة الملك عبد العزيز, رقم السجل : 41723.

(76) صبري باشا, مرآة جزيرة العرب, ص 153.

(77) رفعت باشا, مرجع سابق, ج2, ص 202 – 203.

(78) نهلة شحات محبت, رَابغ ووصف الرحالة لها في العصر الحديث, مجلة الجمعية التاريخية السعودية, السنة 19, ع37, (2018م), ص 44 – 45, 52؛ الرّويثي, مرجع سابق, ص 383 – 384 .

(79) صادق باشا, مرجع سابق , ص 95.

(80) عثمان باشا: عمل واليًا على الحجاز بعد انسحاب قوات محمد علي باشا, وذلك في الفترة من عام (1256هـ/1841م) حتى عام (1261هـ/1845م) وهو المعروف بـ(تتار عثمان باشا). انظر: صابان, مداخل بعض أعلام, ص 130.

(81) سحر علي محمد دعدع, ولاة الحجاز في العصر العثماني في الفترة (923 – 1287هـ/1517 – 1870م) (دراسة تاريخية حضارية), رسالة دكتوراه, جامعة أم القرى, مكة المكرمة, (1433هـ/2012م), ص 343 .

(82) المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة, ص 416.

(83) العيسى, مرجع سابق, ص 383.

(84) المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة, ص 416.

(85) حمد محمد القحطاني, الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز (1297 – 1323هـ/ 1880 – 1905م), ط2, (بيروت: الدار العربية للموسوعات, 1429هـ/2009م), ص 136

(86) الأرشيف العثماني – التصنيف: 3929/67 – I.SD , عنوان الوثيقة : طلب تأسيس إدارة جمركية ومخازن إلى ميناء رابغ, تاريخ الوثيقة : 1 / 4 / 1301 هـ, دارة الملك عبد العزيز, رقم السجل: 41568.

(87) البركاتي, مرجع سابق, ص 144.

(88) البركاتي, مرجع سابق, ص 144 ؛ إسماعيل مرجع سابق, ص 19, 198.

(89) ميناء القنفذة: هو مرفأ لإقليم عسير خلال الحكم العثماني, حيث تحولت عسير إلى متصرفية مركزها أبها, ويتبعها ست أقضية خلال مدّة الدراسة. انظر: صلاح أحمد هريدي, عسير تحت الحكم العثماني (1289 – 1336هـ/1872 – 1914م), (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية,1999م), ص 47

(90) المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة , ص 421 .

(91) سميرة مبارك علي بلسود, موانئ تهامة ومراسيها (اللِّيث/القُنفُذَة/حَلْي/البِرْك/القَحْمَة/الشَّقِيق/ جازان) 1179– 1351هـ/ 1765 – 1932م (دراسة تاريخية حضارية), (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي الأدبي, 1430هـ/2009م), ص 264

(92) بلسود, موانئ تهامة ومراسيها, ص 288 – 289؛ المعبّدي, النشاط التجاري لميناء جدة, ص 422.

(93) الأرشيف العثماني – التصنيف: 1469 – 119/DH.MKT, عنوان الوثيقة: إعمار ميناء الليث , تاريخ الوثيقة : 29 / 4 / 1305هـ , دارة الملك عبد العزيز, رقم السجل: 33726.

(94) إسماعيل, مرجع سابق, ص 199.

(95) بلسود, موانئ تهامة ومراسيها, ص 309 – 310.

(96) مطلق البلوي, العثمانيون في شمال الجزيرة العربية (1326 – 1341هـ/ 1908 – 1923م) , (بيروت: الدار العربية للموسوعات, 1427هـ/2007م), ص 58 .

(97) من أبرز تلك الأحداث والمتغيرات التي حدثت في البحر الأحمر افتتاح قناة السويس, وازدياد أهمية تلك الموانئ في شمال الحجاز بعد تبديل طريق الحج المصري البري بالطريق البحري إلى جدة؛ إضافةً إلى الاحتلال البريطاني لمصر, وتحذير الوالي عثمان نوري باشا للحكومة العثمانية من خطورة بقاء هذه الموانئ تحت الإدارة المصرية الخاضعة للسيطرة البريطانية, كما أن حدود ولاية الحجاز في السابق كانت تمتد حتى خليج العقبة شمالًا, انظر : دايل بن علي الخالدي, الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 – 1327هـ/ 1876 – 1909م),(الرياض: دارة الملك عبد العزيز, 1435 هـ/2014م), ص 92 – 93.

(98) البلوي, مرجع سابق, ص 58.

(99) الخالدي, مرجع سابق, ص 93 – 94.

(100) الأرشيف العثماني بإستانبول, 57 – 36/Y.A.RES, إخطار الحكومة العثمانية إلى ولاية الحجاز, عام 1309 هـ.

(101) هند غسان أبو الشعر, تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني (922 – 1337هـ/ 1517 – 1918م) , (عمّان: اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن, 2000 م) , ص 17.

(102) سالنامة ولاية الحجاز, سنة 1309هـ/ 1892م, ص 258.

(103) بيرتون, مرجع سابق, ص 175؛ صادق باشا, مرجع سابق, ص 33 – 34 .

(104) محمد لبيب البتنوني, الرحلة الحجازية, ط2 (القاهرة: مطبعة الجمالية, 1329هـ), ص 223.

(105) أوكسنولد, مرجع سابق, ص 43 .

(106) صبري باشا, مرآة جزيرة العرب, ص 137.

(107) القحطاني, الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز , ص 137.

(108) الأرشيف العثماني – التصنيف: 587 – 70/S.D, عنوان الوثيقة: تأسيس مقر للجمارك في ميناء الوجه, تاريخ الوثيقة: 16 / 1/ 1316 هـ دارة الملك عبد العزيز, رقم السجل: 38586 .

(109) ليون روش, اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام (مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز), ترجمة وتعليق: محمد خير محمود البقاعي, (بيروت: جداول, 2011م) , ص 53؛ جورج أوغست ڤالين (عبد الوَلي), صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر, ترجمة: سمير سليم شبيلي, مراجعة: يوسف إبراهيم يزبك, ط2 (بيروت: منشورات أوراق لبنانية, 1991م), ص 142 – 143.

(110) أمل علي عابد البلادي, التنظيمات الإدارية والمالية لقلعة المويلح في العهد العثماني (1290 – 1295هـ/1870 – 1875م) دراسة وثائقية, مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية, مج2, ع2, (2017 م), ص 399 .

(111) القحطاني, الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز, ص 137.

(112) ڤالين, مرجع سابق, ص 141 – 142.

(113) صادق باشا, مرجع سابق, ص 275 – 276.

(114) سميرة مبارك علي بلسود, دراسة حضارية وتاريخية للقيمة الاقتصادية لموانئ البحر الأحمر: مينائي ضباء وأملج نموذجًا, مجلة جامعة الملك عبد العزيز, مج28, ع2, (2020م), ص 160, 172 – 173

(115) موسى مصطفى عبد القادر العبيدان, مدينة ضباء بين الماضي والحاضر (دراسة تاريخية), (الرياض: مطابع الفرزدق, 1407 هـ/ 1987م), ص 82 – 85.

(116) ڤالين, مرجع سابق, ص 22.

(117) العبيدان, مرجع سابق, ص 85.

(118) أيلة: نال ميناء أيلة (العقبة) شهرة كبيرة خلال العصور التاريخية القديمة والإسلامية؛ حيث قدمت أيلة بخدمة متميزة في تجارة البحر الأحمر والشرق بحكم موقعها الجغرافي المهم المرتبط بطرق التجارة البحرية المتصلة مع الموانئ الأخرى, والبرية المؤدية إلى بلاد الشام ومصر؛ فضلًا عن مرور قافلة الحج المصري والشامي بها في طريق ذهابهم وإيابهم. انظر: خالد محمد سالم العمايرة, موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك (648 – 923هـ/1250 – 1517م), (الرياض: دارة الملك عبد العزيز , 1428 هـ), ص 53 – 54

(119) نعوم شقيّر, تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها, تقديم : محمد إبراهيم أبو سليم, (بيروت: دار الجبيل , 1411 هـ/ 1991 م), ص 193 – 194 .

(120) مأمون عبد الله أصلان بني يونس, الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العقبة (1864 – 1925م), دورية كان التاريخية, س4, ع13, (2011 م), 9 – 10.

(121) Freitag, ,Op.Cit, p 222 .

(122) السير آرثر هنري مكماهون (Sir Arthur MacMahon): وُلد عام (1278هـ/1862م). تخرج ضابطًا في الجيش البريطاني عام (1300هـ/1883م), تنقل في المناصب الإدارية في الحكومة البريطانية, وفي عام (1332هـ/1914م) عُين أول مندوب سامٍ لمصر بعد إعلان الحماية, وحضر مؤتمر الصلح في باريس عام (1338هـ/1919م) مندوبًا عن بريطانيا. توفي عام (1368هـ/1949م). انظر: نجدة فتحي صفوة, الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية, مج1(1914 – 1915م), (بيروت: دار الساقي,1996م), ص 117

(123) الشعفي, مرجع سابق, ص 31.

(124) حسين محمد نصيف, ماضي الحجاز وحاضره, (د.م: مكتبة ومطبعة خضير, 1349هـ/ 1930م), ص 57 .

(125) (*) القحطاني, الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز, ص 293 .

أثر طريق البخور الشرقي على السمات الفنية في مدينتي نجران والفاو

أ.نوره سعيد سعد الدوسري

باحثة دكتوراه- قسم التاريخ - جامعة الملك خالد
المملكة العربية السعودية

الملخص:

تتناول هذه الدراسة الأساليب الفنية في المدن الواقعة على طريق البخور الشرقي وخاصةً مدينتي نجران والفاو؛ بوصفهما من أبرز المراكز الحضارية التي ازدهرت على امتدادِ هذا الطريق التجاري الحيوي، الذي ربطَ مدن الجزيرة العربية بممالكِ العالم القديم، لذا تركّز الدراسة على تحليل طبيعة الفنون التي سادتْ في هاتين المدينتين، وبيان أثر التفاعل التجاري والثقافي في تشكيل ملامحها الفنية.وعليه تهدف الدراسة إلى إجراءِ مقارنةٍ علميةٍ بين نجران والفاو؛ من حيث الخصائص الفنية والمؤثرات الخارجية التي أسهمت في تشكيل إنتاجهما الفني، مع إبراز أوجه التشابه والاختلاف بينهما، لذا تنبع أهمية هذا الموضوع؛ من كون الفن يمثل مرآةً تعكس أنماط التفكير والمعتقدات السائدة في المجتمعات القديمة.واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي المقارن، وتوصلت إلى أن طريق البخور أدى دورًا محوريًا في نقل وتأثير أنماط فنية متعددة، مثل: التأثيرات الهلنستية والمصرية وغيرها، مما أسهم في إثراء وتطوير الفنون في كلتا المدينتين.

الكلمات المفتاحية: نجران، الفاو، طريق البخور، الفنون، الرسم، النحت.

The Impact of the Eastern Incense Road on the Artistic Features of Najran and Al-Faw

A.Norah Seed Saad Aldawsari

Abstract;

This study examines the artistic styles of cities located along the eastern Incense Road, with particular emphasis on Najran and Al-Faw. These two cities were among the most prominent cultural centers that flourished along this vital trade route, which connected the Arabian Peninsula to the kingdoms of the ancient world. The study analyzes the nature of the arts that prevailed in both cities and demonstrates how commercial and cultural interaction shaped their distinctive artistic features.The study aims to conduct a scientific comparison between Najran and Al-Faw in terms of their artistic characteristics and the external influences that shaped their artistic production, while highlighting key similarities and differences. The significance of this research lies

in the understanding that art serves as a mirror reflecting the patterns of thought and belief that dominated ancient societies. Employing a descriptive-analytical comparative approach, the study concludes that the Incense Road played an essential role in the transmission of diverse artistic styles—including Hellenistic and Egyptian influences—which enriched and contributed to the development of the arts in both cities.
Keywords: Najran; Al-Faw; Incense Road; Art; Painting; Sculpture.

المقدمة:

شَـهِدَت مـدن الجزيـرة العربيـة تطـورًا في الجوانـب الحضاريـة، ومـن أبرزهـا: الجوانـب الفنيـة، وإن كانـت في بدايتهـا تتسـم بالبدائيـة؛ حيـث ظهـرت غـير مُتقنـة وتتصـف بالجمـود، إلا أنهـا بعـد ذلـك شَـهِدَت تطـورًا في الفكـرة والإتقـان؛ إذ يُعتقـد أن للعلاقـات التجاريـة مـع الحضـارات الأخـرى عـبر طريـق البخـور دورٌ في تطورهـا؛ حيـث انتقلـت تلـك المؤثـرات عـن طريـق هـذا الطريـق، واتضـح ذلـك في فنونهـا التـي حملـت هويـةً عربيـةً محليـةً بتأثـيرات خارجيـة، ومـن بـين تلـك المـدن نجـران، والفـاو.

أولاً: طريق البخور:

احتلّـت شـبه الجزيـرة العربيـة موقعًـا مُهـمًا تـرَك أثـرًا في مكانتهـا التاريخيـة والحضاريـة عـبر العصـور؛ حيـث كانـت تُعَـدُّ حلقـة الوصـل بـين حضـارات ودول العـالم القديـم، وكان مـن بـين مقوماتهـا الحضاريـة مـرور طـرق التجـارة فيهـا، وكان طريـق البخـور هـو الأبـرز مـن بينهـا (خريطـة1) الـذي لَعِـبَ بمسـاريه دورًا محوريًـا في ربـط مختلـف مناطـق شـبه الجزيـرة العربيـة، مـن الجنـوب إلى الشـمال ومـن الـشرق إلى الغـرب، فضـلاً عـن مسـاهمته في تعزيـز الروابـط بـين المراكـز الحضاريـة في الممالـك والـدول المجـاورة، مثـل: بـلاد الرافديـن، وبـلاد فـارس، والهنـد، والسـاحل الفينيقـي، ومـصر، وبـلاد الإغريـق، والرومـان. (بسـيوني، 2024م: 2008)

وقـد تَشـكلَ هـذا الطريـق كأحـد مخرجـات تجـارة البخـور؛ الـذي يُعَـدُّ مـن السـلع ذات الأهميـة الكـبرى في العصـور القديمـة، فقـد كان بمثابـة سـلعة اسـتراتيجية نفيسـة، حتـى أن قيمتـه كانـت تسـاوي معـدن الذهـب أو أعـلى بقليـل، وكانـت مناطـق زراعتـه الأساسـية في جنـوب شـبه الجزيـرة العربيـة التـي ينبـت فيهـا أفضـل الأشـجار والنباتـات العطريـة. (جعفـر، 2023م:620) كـما كانـت تُسـتَجلب أيضًـا مجموعـةٌ مـن المـواد العطريـة مـن شرق أفريقيـا ومـن الهنـد إلى جانـب اليمـن وظفـار في عـمان ((Deblauwe,1991:133.

وكانـت مدينـة ظفـار هـي المركـز الرئيـسي الـذي ينطلـق منـه طريـق البخـور، ومـن ثـم يسـير هـذا الطريـق باتجـاه الشـمال، بحيـث يمـرُّ بعـددٍ مـن المـدن في الممالـك اليمنيـة القديمـة وصـولاً إلى نجـران، وعندهـا يتفـرّع هـذا الطريـق إلى مسـارين، هـما: "المسـار الأول الغـربي" الـذي يسـير باتجـاه شـمال الجزيـرة العربيـة بمحـاذاة سـاحل البحـر الأحمـر، ويُسـتكمل هـذا الطريـق حتـى يصـل إلى البـتراء ومـن هنـاك تُـوزع السـلع إلى خـارج شـبه الجزيـرة العربيـة. وأمـا "المسـار الشرقـي" فيبـدأ أيضًـا مـن

نجـران ثـم يتجـه شـمال شرقًـا، مخترقًـا وسـط شـبه الجزيـرة العربيـة حتـى يصـل إلى قريـة الفـاو، ومـن هنـاك يتجـه إلى اليمامـة، ثـم يتجـه شرقًـا حتـى واحـة الهفـوف، ويمتـد منهـا حتـى يصـل إلى الجرهـاء التـي تُعَـدُّ نقطـة انطـلاق لعـددٍ مـن الطـرق التـي تصـل إلى بـلاد الرافديـن أو إلى البـتراء. (الحسـيني، 2018م: 396).

وعليـه فقـد شَـهِدَ طريـق البخـور ازدهـارًا ملحوظًـا خـلال الفـترة الممتـدة مـن القـرن الثالـث قبـل الميـلاد حتـى القـرن الثالـث الميـلادي، وكان لهـذا الازدهـار أثـرٌ عميـقٌ في مختلـف جوانـب الحيـاة في المـدن العربيـة لاسـيما تلـك التـي نشـأت عـلى امتـداد هـذا الطريـق التجـاري البـري الـذي ربـط بـين مراكـز حضاريـة متعـددة.

وفي بداياتهـا، كانـت هـذه المـدن تمثـل محطـات تجاريـة محـدودة الوظيفـة، تعتمـد عليهـا القوافـل العابـرة لتلبيـة احتياجاتهـا الأساسـية، حيـث نشـأت علاقـات تبادليـة بـين سـكان تلـك المحطـات وأصحـاب القوافـل، تمثلـت في توفـير أماكـن التوقـف، وإمـدادات الميـاه والغـذاء، إلى جانـبِ تأمـين الجـمال والحمايـة، وذلـك مقابـل جـزء مـن البضائـع المنقولـة أو مقابـل عوائـد نقديـة. ومـع مـرور الزمـن، شَـهِدَت بعـض هـذه المحطـات نمـوًا تدريجيًـا وتوسـعًا عمرانيًـا واقتصاديًـا، مكّنهـا مـن التحـول إلى مراكـز حضريـة مؤثـرة، غالبًـا عـلى حسـاب القـرى والأراضي الزراعيـة المجـاورة، حيـث أسـهم هـذا التحـول في نشـوء مـدن تجاريـة متكاملـة، لَعِبـتْ دورًا مُهـمًا في تعزيـز الأمـن والاسـتقرار عـلى طـول الطريـق، مـما أدى بـدوره إلى تنشـيط حركـة التنقـل وتوسّـع النشـاط التجـاري في المنطقـة. (النعيـم: 1992، 206،207).

ومـن جانـبٍ آخـر، أدّى طريـق البخـور دورًا محوريًـا في نقـل المؤثـرات الحضاريـة الخارجيـة وتعزيـز التبـادل الثقـافي بـين المجتمعـات، حيـث يتضـح مـن ذلـك مـن خـلال أن هـذا الطريـق لم يكـنْ مجـرّدَ ممـرٍ تجـاري لنقـل السـلع، بـل مثّـلَ قنـاةً فاعلـةً لانتقـال الأفـكار والأنمـاط الثقافيـة المتنوعـة، مـما أسـهمَ في إثـراء الحيـاة الفكريـة والحضاريـة في المـدن الواقعـة عـلى امتـداده، ومـن أبرزهـا: نجـران، والفـاو.

ثانيًا: نجران:

تُعَـدُّ مدينـة نجـران القديمـة (الأخـدود) مـن أبـرز المراكـز التجاريـة التـي ازدهـرت في جنـوب الجزيـرة العربيـة، وذلـك خـلال الفـترة الممتـدة مـن القـرن السـادس قبـل الميـلاد حتـى نهايـة القـرن الثالـث الميـلادي، وهـي الحقبـة التـي شَـهِدَت ذروة ازدهـار حضـارات جنـوب الجزيـرة العربيـة. (جمعـة:2021م، 77).

وتميـزت نجـران بموقـع اسـتراتيجي فريـد منحهـا مكانـةً تفـوقُ العديـدَ مـن المحطـات التجاريـة التقليديـة؛ إذ إنَّ هـذه المحطـات غالبًـا مـا يقتـصر دورهـا عـلى تقديـم الخدمـات للقوافـل العابـرة، مثـل: الإيـواء، والتـزوّد بالمـؤن. أمـا نجـران، فقـد أتـاحَ لهـا موقعهـا أن تـؤدي دور مركـز تجـاري نشـط؛ تسـتقبل فيـه القوافـل القادمـة مـن ممالـك اليمـن، وتُمـارَس فيهـا عمليـات البيـع والـشراء بصـورة منتظمـة، لـذا فقـد أسـهم هـذا الـدور في ازدهـار النشـاط الاقتصـادي داخـل المدينـة؛ حيـث ضمّـت سـوقًا بـارزًا عُـرِفَ باسـم "سـوق العمديـن" والـذي يُعَـدُّ مـن أشـهر وأكبـر أسـواق العـرب في نجـران، ويرتبـط سـبب تسـميته؛

بما كان يقيمهُ التجار فيه من عمودين، أحدهما: من الذهب، والآخر من الفضة، في دلالةٍ رمزيةٍ على ازدهار التجارة وأهميتها في المدينة. (آل هتيلة، 2015م، 59). كما انطلقت من مدينة نجران القوافل التجارية المتجهة إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربية، الأمر الذي عزّز من مكانتها؛ بوصفها المركز الرئيسي لشبكة الطرق التجارية. وإلى جانب دورها الاقتصادي، برزت نجران؛ بوصفها مركزًا مهمًا للتبادل الثقافي والحضاري؛ إذ أسهمت حركة القوافل المستمرة في نقل الأفكار والعادات بين مختلف المناطق، واستمرَّ هذا الدور الحيوي منذ الألف الأول قبل الميلاد وحتى ظهور الإسلام. (الأنصاري وآل مريح، 2003م: 18).

وتتميز نجران بأنها تقع في منبسط من الأرض ويخترق الوادي أراضيها (جريس، 2013م: 28) إضافةً إلى أنها كانت تشتهر بخصوبة أرضها ووفرة مياهها (الأنصاري وآل مريح، 2003م: 18) حيث تنوعت مصادر المياه فيها، إما من مياه الأمطار، أو مختزنة على أعماق قريبة من الأرض (العمري، 2003م، 65).

ولا شك أن المقومات الجغرافية التي امتازت بها نجران تُعَدُّ من أبرز العوامل التي أسهمتْ في تحقيق الاستقرار السكاني وتعزيز النشاط التجاري فيها، كما أدّت إلى زيادة فرص الاحتكاك بالحضارات المختلفة، الأمر الذي انعكسَ في تنوّع مظاهرها الثقافية وتطوّرها الحضاري.

ثالثًا: الفاو:

تقع الفاو في موقع جغرافي مميز جنوب غرب مدينة الرياض، وتبعد عنها نحو 700 كيلومتر، كما تقع على مسافة تقارب 100 كيلومتر جنوب شرق السليل، ونحو 150 كيلومترًا جنوب شرق الخماسين المركز الإقليمي لوادي الدواسر، إضافةً إلى بُعدها بحوالي 180 كيلومترًا شمال شرق مدينة نجران، وتتسم الفاو بأهمية موقعها الطبيعي؛ حيث تقع في منطقة التقاء وادي الدواسر بجبال طويق عند مصب ممر مائي يُعرف باسم "الفاو" أو "الفجوة"، وهو ما يُرجّح أنه كان سببًا في تسميتها بهذا الاسم في الفترات اللاحقة؛ تمييزًا لها عن غيرها من القرى المجاورة، كما تُشرف الفاو على الحافة الشمالية الغربية لصحراء الربع الخالي (الأنصاري، 1982م: 15).

وفي المقابل، حظيت الفاو بأهميةٍ تجاريةٍ بارزة؛ إذ أسهمَ النشاط التجاري بدورٍ كبيرٍ في تشكيل أنماط الحياة لدى سكانها، لكونه يمثلُ وسيلةً رئيسيةً لربطهم بالأمم والمجتمعات المجاورة، مما أتاحَ فرص التفاعل الاقتصادي والتواصل الحضاري. (شعيب،2005م، 60). وقد أسهم موقعها الجغرافي في تعزيز هذه الاتصالات؛ إذ مثّلتْ الفاو نقطةً محوريةً تربط بين عددٍ من الطرق التجارية التي تتقاطع عبر شبه الجزيرة العربية، مما جعلها مركزًا فاعلًا في شبكة النقل والتبادل التجاري.(Lara, 2024,136) حيث يتم فيها استقبال القوافل التجارية من مختلف الممالك.

وتجدر الإشارة إلى الأهمية الأمنية لموقع الفاو؛ إذ تميّزت بطبيعة جغرافية ذات طابعٍ حصين، وفّرت لها حماية طبيعية بفعل التضاريس المحيطة بها. (Ali, 2021,8)ويُستدَلُّ من ذلك أن مرور القوافل التجارية عبرها أسهمَ في تعزيز مكانتها ورفع أهميتها، لتبرز لاحقًا كإحدى المدن الرئيسة ذات الدور المحوري في الجزيرة العربية.

السمات الفنية في مدينتي نجران والفاو:

شَـهِدَت مدينتـا نجـران والفـاو نهضـةً فنيـةً ملحوظـةً خلّفـت إرثًـا حضاريًـا لا يمكـن تجاهلـه أو إغفالـه، غـيرَ أن دراسـة الفـن في هاتـين المدينتـين قـد يضـع الباحثـين أمـام تحديـات تتعلـق بالتتابـع الزمنـي؛ وذلـك نتيجـةَ وجـودِ فجـواتٍ زمنيـةٍ في الطبقـات الأثريـة المكتشـفة في الموقعـين، مـما يحـدُّ مـن إمكانيـة بنـاء تسلسـل تاريخـي متكامـل ودقيـق للتطـور الفنـي فيهـما.

وعليـه يمكـن تنـاول الفـن في نجـران والفـاو؛ بوصفـه أحـد أهـم الشـواهد الأثريـة التـي تعكـس المكانـة الحضاريـة لهاتـين المدينتـين ودورهـما اللتـين تمثـلان حلقـة وصـل تجاريـة واسـتراتيجية بـين الحضـارات القديمـة؛ حيـث أسـهم الموقـع الجغـرافي المميـز لهـما عـلى امتـداد طريـق البخـور في نشـوء تفاعـل حضـاري واضـح، نَتـجَ عنـه امتـزاج العنـاصر الفنيـة المحليـة بالمؤثـرات الخارجيـة القادمـة عـبر شـبكات التبـادل التجـاري والثقـافي، وقـد أفـضى هـذا التداخـل إلى ظهـور ملامـح فنيـة ذات طابـع خـاص، اتّسـمت بالتميّـز والتفـرّد، مـما يجعـل الفـن في نجـران والفـاو تعبـيرًا واضحًـا عـن حركـة التواصـل الحضـاري في تلـك الحقبـة.

وفي هـذه الدراسـة، سـيتم إلقـاء الضـوء عـلى تلـك السـمات الفنيـة التـي ظهـرت عـلى مختلـف ألـوان الفنـون التشـكيلية القديمـة بالمدينتـين، سـواءً في الرسـم، أو النقـش، أو النحـت.

أولاً: الفنون الصخرية والرسوم الجصية:

أظهـرت الدراسـات الأثريـة ثـراء منطقـة نجـران بالفنـون الصخريـة، وتـبرز أهميتهـا؛ بوصفهـا تمثـل دليـلًا ماديًـا يعكـس أنمـاط حيـاة الإنسـان القديـم وأنشـطته المتنوعـة؛ إذ تُعَـدُّ هـذه المناظـر مصـدرًا مهـمًا لفهـم مظاهـر الاسـتقرار البـشري، وممارسـات الصيـد، وأنمـاط اللبـاس، وصناعـة الأدوات، إلى جانـبِ توثيقهـا للحيوانـات التـي كانـت تَعيـش في البيئـة المحليـة، لذلـك فقـد كشـفت أعـمال المسـح الأثـري عـن وجـودِ عـددٍ كبـيرٍ مـن الفنـون الصخريـة المتنوعـة، شـملت أشـكالًا آدميـةً وحيوانيـةً ونباتيـةً، إضافـةً إلى وسـوم القبائـل، وتمتـدُّ هـذه الفنـون عـبرَ عـددٍ مـن المواقـع بنجـران، بـدءًا مـن بـئر حمـى باتجـاه جبـل الكوكـب وجبـال القـارة، مـرورًا بـوادي يدمـة وصـولًا إلى وادي تثليـث.

الجديـر بالذكـر فـإنَّ وكالـة الآثـار والمتاحـف (هيئـة الـتراث حاليًـا) قامـت بمسـح شـامل للمنطقة، أسـفرَ عـن توثيـق 86 موقعًـا للنقـوش الصخريـة، تضـم مشـاهد فنيـة تمثـل الإنسـان والحيـوان بمـا في ذلـك الجـمال والخيـول والوعـول وغيرهـا مـن الكائنـات، كـما تشـير هـذه المعطيـات إلى أن هـذه النقـوش تنتمـي إلى فـترات زمنيـة متأخـرة نسـبيًا، تمتـدُّ مـن العـصر البرونـزي حتـى الحقبـة الإسـلامية. (الجبريـن، 2012م:20،19).

وتُبـيّن بعـض النقـوش الصخريـة المكتشـفة في نجـران طابعًـا بدائيًـا في أسـلوب التنفيـذ، ومـن ذلـك مـا عُـثِر عليـه داخـل أحـد المبـاني في القلعـة؛ إذ تضمـنَ هـذا النقـش عنـاصر آدميـة نُفّـذت عـلى حجـر رسـوبي باسـتخدام تقنيـة الحـز؛ مـما أدى إلى خشـونة سـطحها وعـدم انتظامـه. ورغـم عـدم وضـوح تفاصيـل الشـكل بصـورة كاملـة، إلا أنـه يُحتمـل أنـه يصـوّر شـخصين متجاوريـن أو متماسـكين، مـع رفـع أيديهـما إلى الأعـلى في وضعيـةٍ تُفسَّـر عـلى أنهـا تعبـير عـن الرقـص أو طقـس احتفـالي، وهـو مـا يعكـس

جانبًا من الممارسات الاجتماعية أو الرمزية في ذلك العصر. (صورة1) (الفواز، 2014م:42).

وتوحي الوضعيات الجسدية للأشخاص في هذا النقش بممارسة الرقص في سياق احتفالي ربما يكون مرتبطًا بطقوس دينية أو مناسبة اجتماعية، ويمكن استنتاج ذلك من خلال حركة الأجساد، ورفع الأيدي، وميل الأرجل، وهي عناصر مشتركة في حضارات العالم القديم تُعبّر عن ديناميكية الحركة والرقص. ويظهر في النقش بساطة الأسلوب وبدائية التنفيذ، مع غياب التفاصيل الدقيقة، مقابل تركيز الفنان على إبراز الحركة العامة أكثر من الاهتمام بملامح الوجوه أو التفاصيل التشريحية، فقد صُوّر أحد الرجلين برأس يتناسب مع الجسد، في حين ظهر الآخر بصورة غير واقعية؛ إذ بدا برقبة طويلة ورأس صغير، مما يعكس محدوديةَ الإتقان أو اختلافًا في هوية ومكانة الأشخاص. كما أن تمثيل الأطراف، من أيدي وأرجل، جاء غير دقيق من الناحية النسبية والتشريحية، وهو ما يُعزز الطابع التجريدي أو الرمزي للرسم. وتجدر الإشارة إلى أن بعض التفسيرات المحتملة، ترى أن هذا المشهد قد يكون مرتبطًا بحدث احتفالي ذي دلالة خاصة، حيث إنَّ الأذرع المرفوعة قد يُفسَّر أحيانًا على أنه احتفال ديني (القحطاني، 2021م:46) ذا طابع رمزي، التزم فيه الفنان بقواعد وضوابط فنية ثابتة ومعروفة لدى المركز الحضارية المجاورة.

وفي الواقع، كان للرقص في الحضارات القديمة مكانة دينية واجتماعية بارزة؛ إذ عُدَّ إحدى وسائل التواصل مع الآلهة، أي أنه اتخذَ طابعًا شعائريًا قريبًا من مفهوم الصلاة، إضافةً إلى كونه يمثل وسيلةً للترويح عن النفس وتعزيز التآلف الاجتماعي (ألويس، 2010: 34). ويبدو أن هذا النقش المُنفَّذ على حجر غير مصقول يعكس هويةً محليةً خالصةً، وقد نُفِذَ على يد فنان من منطقة الأخدود دون تأثيرات خارجية واضحة (الفواز، 2014: 84) حيث تتجلى فيه بساطة التنفيذ وبدائية الأسلوب، مع التركيز على إيصال الفكرة العامة أكثر من العناية بالتفاصيل الجمالية أو الدقة الشكلية. ومع ذلك، فإنَّ هذا العمل الفني قد يشير في الوقت ذاته إلى أن سكان القلعة لم يكونوا بمعزلٍ عن التقاليد الفنية السائدة في محيطهم، بل كانوا جزءًا من تفاعل حضاري واسع، ظهرت ملامحه في القوالب والأساليب الفنية المرتبطة بمشاهد الرقص والتعبير الحركي.

كما عُثِرَ في قلعة نجران على نقش صخري ذو طابع بدائي، تضمنَ تصويرًا لجمل أُحادي السنام، وقد تمَّ تنفيذ هذا النقش على حجرٍ جيري باستخدام تقنية الحز، مما منحَ السطح مظهرًا غير منتظم. وتُظهر اللوحة سمات فنية بدائية من حيث التنفيذ؛ إذ جاءتْ قوائم الجمل في مستوى واحد دون إبراز واضح للمنظور أو الحركة، كما صُوّر عنق الجمل بشكل ممدود بصورة مبالغ فيها نسبيًا؛ ويعكس هذا الأسلوب محدودية الدقة في التمثيل التشريحي، مع تركيزٍ واضحٍ على إبراز الشكل العام للحيوان أكثر من التفاصيل الواقعية. (صورة2) (الفواز، 2014م: 50،49).

كما عُثِرَ في الجهة الجنوبية الشرقية من جبل الكوكب في نجران على نقش لجمل، ذي سنام متوسط وذيل متوسط الطول، ورسم الرأس متصلاً برقبة انسيابية تتناسب مع تكوين جسم الجمل الممتلئ والضخم، وهي صفات ارتبطت بالجمل في كل العصور، نُفِذَ العمل بتقنية الحفر، مع اعتماد معالجة فنية ركزت على إبراز الشكل الخارجي للجمل، واعتمد الفنان أسلوب الخط

الخارجي لتحديد الملامح العامة للشكل، وتضمنَ ذلك الجسم مع الرقبة، كما أظهرَ الفنانُ شكل الجمل في وضع الاستعداد للحركة، وهذا العمل كشفَ عن قيمٍ جماليةٍ قائمةٍ على التوازن بين الكتلة وحدود الخط الخارجي (صورة3). (الجبرين، 2012م: 35،36).

وعلى جانب آخر، عُثِرَ في أحد المباني داخل القلعة على نقش صخري آخر يُظهر تصويرًا لجمل، نُفِذَ أيضًا على حجر جيري باستخدام تقنية الحز، إلا أن تمثيل الجمل في هذه اللوحة جاءَ مختلفًا من حيث المعالجة الشكلية؛ إذ صُوّر الجمل ذو السنام الواحد في وضعية حركة (المشي) حيث يبدو وكأنه يُقدّم أطرافه الأمامية نحو الأمام، كما يتبين في التكوين التشريحي إبراز لملامح الجمل بشكل أكثر وضوحًا، من خلال تصوير الوجه البارز، والعنق الممتد إلى الأعلى، والسنام، والقوائم الخلفية، إضافةً إلى الذيل المتدلي إلى الأسفل (صورة4) (الفواز، 2014م: 49). ويُفهم من هذا التمثيل أن الفنان سعى إلى تقديم الجمل في حالة حركية تعكس الحيوية بدلًا من الاكتفاء بالشكل الجامد.

ولُوحِظ في النقوش السابقة وجود تفاوت واضح في مستوى الجودة والتعبير الحركي، على الرغم من تناولهما الموضوع نفسه، وهو الجمل.

الجدير بالذكر فإنَّ هذه النقوش تحمل أهميةً خاصةً من حيث دلالتهم الرمزية؛ إذ يظهر الجمل فيهما بوصفه عنصرًا منفردًا، دون أن يظهر في خِضّم مشاهد الصيد أو ميادين القتال كما هو شائع في كثيرٍ من الفنون الصخرية، مما يشير إلى احتمال تحوّله إلى رمز تعبيري مرتبط بالمنطقة. ويُفهم من ذلك أن الجمل لم يكنْ مجرّدَ عنصرٍ بيئي، بل يحملُ دلالةً اقتصاديةً وثقافيةً، خاصةً أنه يمثّل وسيلةَ النقل الأساسية في طريق البخور، الأمر الذي يعكس ارتباطه الوثيق بحركة القوافل والتجارة، كما أن تكرار ظهوره في الفن الصخري يمكن أن يُفسَّر على أنه مؤشر على أهمية نجران كمحطةٍ رئيسةٍ في شبكات التبادل التجاري ونقل السلع.

ومن جهة أخرى، فإنَّ التفاوت الملحوظ في مستوى الإتقان بين الرسوم البدائية والأخرى الأكثر تطورًا يُحتمل أن يكون ناتجًا عن تأثيرات فنية خارجية أسهمتْ في تطور الأسلوب الفني المحلي، سواءً بشكل مباشر عبر الاحتكاك بالمراكز الحضارية المجاورة أو بشكل غير مباشر من خلال التفاعل الثقافي، ويعكس هذا التطور في مجمله ازدهار نجران اقتصاديًا؛ نتيجةً لنشاط القوافل، واتساع حركة التجارة فيها.

ولعل ما ظهرَ في النقوش السابقة يعكس حجم التطور الذي شَهِدَهُ الفن الصخري في نجران، وهو تطور يُرجَّح أن طريق البخور كان من أبرز العوامل المؤثرة فيه؛ إذ تبينَ أن الفن في مراحله المبكرة اتسم بالبساطة والجمود، وهو ما ظهرَ في الرسومات المحلية التي ركزتْ على التكوين العام دون عناية كبيرة بالتفاصيل أو الدقة الفنية، غيرَ أن هذا النمط الفني أخذ في التطور تدريجيًا؛ مع ازديادِ الاحتكاك بالمراكز الحضارية الأخرى عبر طريق البخور، فازدادت الرسوم إتقانًا ووضوحًا، وظهرت محاولات أكثر وعيًا لإبراز الحركة والتفاصيل، لذا يعكس هذا التحول أثر التفاعل الحضاري في الارتقاء بالممارسة الفنية في نجران وتطويرها عبر الزمن.

وأما الفنون الصخرية والتصوير (الرسم) في الفاو، فمع وفرتها، أمكن تصنيفها في أربع مراحل:

المرحلة الأولى: اتجه الفنان في هذه المرحلة إلى النقش على الصخور الجبلية لتسجيل مشاهداته المستمدة من البيئة الطبيعية المحيطة به، وقد انصبّت الموضوعات المصوَّرة على عناصر متعددة، من أبرزها: الجمال، والخيول، إلى جانبِ مشاهد ذات طابع حربي، بما يعكس تفاعل الإنسان المبكر مع محيطه وتوثيقه لخبراته اليومية والأنشطة المرتبطة بحياته (صورة5).

المرحلة الثانية: مارسَ الفنان خلال هذه المرحلة الرسم على ملاط الجدران، كما هو شائع في معظم الغرف، ومن اللافت للنظر أنه استخدمَ الألوان في رسوماته ونصوصه خلال هذه المرحلة.

المرحلة الثالثة: أصبح للفنان خلال هذه المرحلة دورًا اجتماعيًا بارزًا، ويبدو أنه تلقى تكليفات من الأهالي برسم مشاهد مقترحة أو مطلوبة، ويتجلى هذا التوجه فيما عُثِر عليه في الدكان السادس، حيث ظهرت على الجدران ثلاث لوحات تصوّر رحلة صيد جمال على ظهر الخيل (صورة6) وكتبَ على رأس من يمتطيه كلمة "ملك"، كما رسم الفنان كلابًا في معية موكب، وقد استُخدِم في الرسوم اللونان الأحمر والأسود.

المرحلة الرابعة: أحرز فنان الفاو في هذه المرحلة تقدُّمًا ملحوظًا على المستوى التقني والجمالي؛ إذ ازداد مستوى الإبداع لديه، وأصبحت الألوان المستخدَمة أكثر ثباتًا، مع قدرتهِ على مزجها ودمجها بشكل أكثر وعيًا وتطورًا، وتتكوّن الألوان المستخدمة في تلوين هذه الرسوم غالبًا من أصباغ ترابية تعتمد على أكاسيد طبيعية وكيميائية، تُطحن بشكل ناعم للغاية لضمان قابليتها للتشرب والتغلغل داخل المسام الدقيقة للملاط، مما يُسهم في ثباتها واستمراريتها لفترات زمنية طويلة، كما يُلاحظ أن أغلب هذه الألوان ذات أصل طبيعي، وهو ما منحها قدرة عالية على المقاومة والبقاء، كما استُخلصت بعض الألوان الأخرى من مصادر بيئية محلية غير ترابية، ومن أبرزها: اللون الأحمر الناتج عن خام الحديد الأحمر المعروف باسم الهيماتيت، ويتوفر بكميات كبيرة في منطقة جبل طويق القريبة من الفاو، مما يعكس استفادة الفنان من موارده الطبيعية المحيطة في إنتاجه الفني. (الأنصاري، 1982م:21)

كما أن هناك من يقوم بتقسيم المراحل الفنية في الفاو إلى مرحلتين؛ استنادًا إلى مفاهيم التأثير والتأثر؛ إذ كانت المرحلة الأولى التي تتمثل في القرون الثلاثة الأولى الميلادية، وقد بَرزَ فيها بشكل جلي وصريح التأثيرات الفنية المصرية والسورية، بينما تمثل المرحلة الثانية السمات الفنية المحلية الخالصة. (Breton,2025:55)

ويجب الإشارة إلى دور التجارة في ازدهار الفن؛ حيث لَعِبت التجارة دورًا محوريًا في نقل المواد الخام، والأدوات، والتقنيات الفنية، إلى جانبِ نقل المهارات وأساليب العمل المرتبطة بالحرف وأحيانًا جُلِبت الأعمال الفنية نفسها، كما ساهمت تجارة الرق في جلب فئات مدربة عملت في هذه المهن، ناقلةً معها خبراتهم وأساليبهم الفنية، كما أن توفرَ قدرٍ مناسبٍ من الثروات الطبيعية والانفتاح على أسواق الاستهلاك ساهمَ في إنعاش الحركة التجارية؛ وذلك من خلال الطلب على

مـواد الخـام ومنتجـات الحـرف، ولا يُسـتبعد أن لموقـع الفـاو دور في اسـتقطاب الصنـاع والفنانـين مـن مـصر وبـلاد اليونـان وشـمال وجنـوب وشرق الجزيـرة العربيـة؛ للإقامـة فيهـا، مـما جعـلَ منهـا بيئـةً فنيـةً متنوعـةً تحمـل طابعًـا اقتصاديًـا وثقافيًـا مميـزًا. (السـنان، 2009م:17،18).

وبالنسـبة لمسـألة الـرق وموطنهـم الـذي جـاءوا منـه، فمـن المعـروف أنـه مـن أبـرز مصـادر الـرق أسرى الحـروب أو أشـخاص يتـم شراؤهـم مـن الأسـواق التجاريـة في الممالـك المحيطـة بالجزيـرة العربيـة (الغـزالي،2013: 89) وخصوصًـا التـي يصـل إليهـا طريـق البخـور، لذلـك تُرجّـح الباحثـة أن الرقيـق الذيـن وُجـدوا في الفـاو جـاءوا مـن خـارج الجزيـرة العربيـة ربمـا كانـوا مـن أحـد الـدول الهلينسـتية؛ حيـث كانـوا يُبَاعـون في أسـواق النخاسـة، ومـن ثـم يتـم نقلهـم إلى مناطـق مختلفـة مـن العـالم القديـم، ومنهـا: الفـاو.

وهنـا يتضـح أن التجـارة الدوليـة أسـهمت بشـكل فاعـل في التطـور الفنـي في الفـاو؛ إذ إنَّ ازدهـار النشـاط التجـاري ومـا يرافقـه مـن تراكـمٍ للـثروة انعكـسَ عـلى مسـتوى الرفاهيـة الاجتماعيـة داخـل المدينـة، الأمـر الـذي دفـع نحـو الاهتـمام بالجوانـب الجماليـة مثـل: الزخرفـة، والفنـون، كـما أن الاحتـكاك المسـتمر بـين السـكان والتجـار والفنانـين القادمـين مـن مناطـق مختلفـة أسـهم في انتقـال أسـاليب وتقنيـات فنيـة جديـدة في مجـالات الرسـم والتزيـين، مـما أتـاحَ تنوعًـا أكـبر في الإنتـاج الفنـي المحـلي. وإلى جانـبِ ذلـك، يُحتَمـلُ أن التجـارة قـد أسـهمت في اسـتقدام أو انتقـال فنانـين مـن المناطـق التـي ارتبطـت الفـاو بعلاقـات تجاريـة معهـا، حاملـين معهـم خبراتهـم ومهاراتهـم الفنيـة، وهـو مـا عـزّزَ مـن تطـور الأسـاليب المحليـة، لهـذا يمكـن القـول: إن الفنـون في الفـاو تعكـس بوضـوح أثـر التبـادل التجـاري عـبر طريـق البخـور الـذي يُعَـدُّ أحـد العوامـل الرئيسـة في تطـور الحركـة الفنيـة فيهـا وارتقائِهـا.

وفي سـياق إبـراز التطـور الـذي طـرأ عـلى الأسـاليب الفنيـة في الفـاو، تـمَّ العثـور في القاعتـين الشـمالية والجنوبيـة مـن القـصر عـلى رسـوم تزيّـن جدرانهـما (التميمـي، 2011: 56) وتتمثـل هـذه الرسـوم في لوحـات جداريـة تُعـرف بتقنيـة "الفريسـكو"(1) وهـي عبـارة عـن قطـع مـن الملاط الجبـسي عُـثِرَ عليهـا مقلوبـة، وتضمّـن بعضهـا مشـاهد مرسـومة عـلى سـطحها47 :1991 (Al-Saud,). وقـد أظهـرت إحـدى هـذه اللوحـات مشـهدًا يتكـوّن مـن ثلاثـة أشـخاص، تتجـلى في ملامحهـم تأثـيرات فنيـة يونانيـة واضحـة؛ إذ يظهـر الشـخص الأول بعيـون واسـعة وشـعر مجعّـد يُحيـط برأسـه إكليـل، في حـين يبـدو الشـخص الثـاني الواقـع إلى يسـاره أكـثر وضوحًـا في دلالاتـه الهيلنسـتية مـن خـلال زخرفـة الملابـس وطريقـة تصفيـف الشـعر، كـما ظهـر شـخص أخـير عـلى يمـين الشـخص الرئيـسي، وجميـع الأشـخاص صُـورّوا تحـت كرمـة تتـدلى منهـا عناقيـد العنـب (صـورة7) (صـورة8) (عبدالرحمـن، 1442هـ:285). وقـد زيّنـت تلـك المشـاهد باللـون الأحمـر، مـما يعكـس مـدى التطـور الحضـاري الـذي وصلـت إليـه قريـة الفـاو (شـعيب، 2005م:76). وتتجـلّى فخامـة القـصر في كونـه يمثـل نموذجًـا معماريًـا يجمـع بـين الطابـع المحـلي التقليـدي وبـين مؤثـرات فنيـة أجنبيـة، حيـث يظهـر هـذا التأثـير الخارجـي بوضـوح في إحـدى اللوحـات التـي تتضمـن رسـومًا لهيئـات آدميـة ذات طابـع يونـاني.

وتـرى الباحثـة: أن هـذا الانفتـاح الثقـافي في مدينـة الفـاو يعـود إلى موقعهـا الاسـتراتيجي عـلى طريـق البخـور الـذي ربطهـا بحضـارات العـالم القديـم، وأسـهمَ في نقـل الأفـكار والأنمـاط الثقافيـة والفنيـة

المتنوعة إليها.

ومن النماذج الأخرى للرسوم التي عُثِرَ عليها في مدينة الفاو لوحة جصية اكتُشفت في المنطقة السكنية، وتعود إلى الفترة الممتدة ما بين القرن الأول والثالث الميلادي، وتُظهر اللوحة رسمًا لجمل مُزيَّن بزخرفة تصويرية مميزة من الجانب، حيث طُوِّق عنقه بكسوة مزخرفة، بينما يتدلى فوق ظهره غصن كرمة منحني يحمل عنقودًا من العنب في دلالة رمزية وجمالية واضحة، كما تضم اللوحة عناصر زخرفية أخرى متنوعة، من بينها: خطوط رأسية وأشكال متقاطعة، وقد نُفذت هذه العناصر باستخدام ألوان متعددة شملت الأحمر والأسود والأصفر.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا النمط من الزخارف الهندسية عُثِرَ على نظائر له في عددٍ من مواقع الجزيرة العربية، مثل: الأخدود، وثاج، وتيماء، مما يعكس امتدادًا ثقافيًا وفنيًا مشتركًا في المنطقة (الحديثي، 1442هـ: ص62) وكذلك يعكس انتشار هذا الفن الزخرفي في تلك الفترة. أما ظهور الجمل على اللوحة، فمنَ المرجّح أنه كان يرمز إلى مكانةٍ اقتصاديةٍ بارزةٍ في مجتمع الفاو تمامًا كما هو الحال في نقوش نجران، هذا إلى جانبِ نجاح الفنان في إبراز العناصر الزخرفية التي زيّنت جسد الجمل؛ مما يعكس قيمته الحضارية التي قد تصل إلى حد التقديس من ناحية، وكذلك التطور الفني والجمالي الذي بلغه الفنان في الفاو من الناحية الأخرى.

أما عنقود العنب المرسوم على ظهر الجمل، فيُرجَّح أنه يحمل دلالةً رمزيةً ذات أصل أجنبي؛ فقد ارتبط العنب في الحضارة المصرية القديمة بمفاهيم البعث وتجدد الحياة ضمن المعتقدات المتصلة بالإله أوزيريس، كما اكتسبَ حضورًا بارزًا في الفن الإغريقي والروماني؛ بوصفه رمزًا مرتبطاً بالإله ديونيسوس (باخوس)(2)، إله الخمر والخصب، حيث كان يظهر كثيرًا في السياقات الفنية بما في ذلك النقوش والأنصاب الجنائزية الرومانية (سيرنج، 1992: 315–316). في المقابل، يُعَدُّ الجمل من الحيوانات ذات الأهمية المركزية في بيئة الجزيرة العربية، الأمر الذي يعكس تداخل العناصر المحلية مع الرموز الوافدة في هذا التمثيل الفني.

وبناءً على ذلك، ترجّح الباحثة: أن هذا التشابه في العناصر الرمزية يعود إلى شبكة الصلات التجارية التي ربطت مدينة الفاو بكلٍّ من الحضارة المصرية والعالم الهلنستي، كما تعكس هذه الرسوم مظهرًا من مظاهر التداخل الثقافي؛ إذ يظهر فيها مزج واضح بين العنصر المحلي المتمثل في الجمل؛ بوصفه رمزًا بيئيًا عربيًا والعناصر الأجنبية المتمثلة في زخارف العنب ذات الدلالات الرمزية الوافدة من تلك الحضارات.

الجدير بالذكر، فإنه عُثِرَ في مدينة الفاو على عددٍ من اللقى الأثرية، من بينها مصنوعات زجاجية تحمل زخارف تصويرية تشير إلى وجود علاقات ثقافية وتجارية مع الحضارة المصرية. ومن أبرز هذه المكتشفات شظايا زجاجية أُعيدَ تركيبها لتشكّل كأساً للشرب، يُرجّح تأريخه إلى أواخر القرن الأول أو أوائل القرن الثاني الميلادي، يبلغ ارتفاع الكأس نحو (15.5 سم) ويصل قطر قاعدته إلى حوالي (3 سم) وقد صُنِعَ من زجاج شفاف باستخدام تقنية النفخ، ثم جرى تجميع أجزائه بحيث شكّل جزءًا كبيرًا من هيئته الأصلية، حي يرتكز الكأس على قاعدة دائرية مسطحة ذات

حلقة قاعدية فقدت جزءًا منها، ويتسع تدريجيًا نحو الأعلى، ويُظهر الجزء العلوي منه تمثيلاً لشخصية ذات طابع مصري قديم يُحتمل أنها تمثل رجلاً نوبيّ الأصل، يتجه وجهه نحو اليسار، مع تقدّم الساق اليمنى على اليسرى في وضعية حركة، ويعلو رأسه غطاء منخفض ذو شكل قريب من القرص الدائري (يمثل قرص الشمس) بينما تتقدمه هيئة تشبه الأفعى المقدسة ذات الدلالة الرمزية في الفكر الديني المصري القديم، وقد نُفذت ملامح الوجه بأسلوب فني يتسم بوجه مثلث غير منتظم، وأنف بارز، وعين لوزية كبيرة ذات حدقة سوداء، وفم صغير، وأذن بارزة، مع غياب واضح لتفاصيل الذقن باستثناء لحية صغيرة مستعارة، كما يتميز العنق بالطول والصدر بالاتساع، مع زخرفة تمثل صدرية تغطي منطقة الصدر والكتفين وتلتف حول الرقبة، وهي ما تُعرف باسم طوق «الوِسَخ» المصري الذي كان يُعَدُّ من أبرز الحلي في مصر القديمة، ويُستخدَم في السياقات الدينية والجنائزية والطقسية. وفي الجزء السفلي من الكأس يظهر رمز لصقر يُنسب إلى الإله حورس في الحضارة المصرية القديمة، مصوَّرًا في وضعية جانبية تتجه نحو اليسار، مع رأس بيضاوي، وعين كبيرة، ومنقار قصير، وجسم مختزل التفاصيل، ويعلو هذا المشهد زخارف نقطية صفراء تتخذ شكلاً نصف دائري أو قوسًا مقلوبًا، كما يظهر أيضًا تمثيل لحيوان أسد مجنح يتجه نحو اليمين، وإلى جانبه تكوين مستطيل الشكل يشبه الخرطوشة المصرية المخصصة لكتابة أسماء الملوك، ويحيط بجسم الكأس إطار زخرفي مكوّن من خطوط أفقية باللونين البني والأصفر في الأسفل، يقابلهما إطار علوي مماثل يحدّ التصميم، ما يعكس وعيًا فنيًا واضحًا بتنظيم العناصر الزخرفية وتوزيعها داخل مساحة محددة. ويُلاحظ أن الفنان قد نجح في تحقيق توازن بصري بين العناصر التصويرية والزخرفية عبر إحاطتها بإطار يحددها ويبرزها، ويعكس هذا الكأس مستوى متقدمًا من التطور في صناعة الزجاج والفنون التطبيقية في الجزيرة العربية، إلى جانبِ ما يؤكده من تفاعل حضاري واسع مع الفن المصري القديم. (صورة9) ((AlThibi,2022:99,100. ويتضح من هذا الكأس بجلاء مدى التأثير المصري على مدينة الفاو؛ إذ ظهرت عليه عددٌ من الرموز المصرية المعروفة، مثل: الزيّ المصري التقليدي، والأفعى المقدسة، ورمز الصقر (حورس). وعلى الرغم من أن تنفيذ هذه العناصر لم يخلُ من بعض الاختلافات في دقة الأسلوب مقارنةً بالنماذج المصرية الأصلية، فإنَّ حضورها في هذا السياق الفني يعكس بوضوح عمق العلاقات التجارية والثقافية بين الفاو ومصر، وما نتجَ عنها من تأثيرات خارجية أسهمت في تشكيل بعض ملامح الإنتاج الفني في الفاو.

كما عُثِرَ في مدينة الفاو على كأس زجاجي مكتمل الصنع، تم تشكيله بتقنية النفخ ويتخذ لونًا زبديًا، وقد خُصص لاستخدامه في شرب السوائل بما في ذلك الخمور، حيث يتميز هذا الكأس بغياب المقابض، وبفوهة دائرية واسعة، في حين ترتكز قاعدته المقعرة التي تتسع تدريجيًا نحو الأعلى، وتكمن أهم سماته في زخرفته الهندسية التي تتألف من خطوط متقاطعة تتخذ هيئة مضلعات منتظمة، مع تلوين الكأس باللون الأزرق، وهو لون ارتبط بشكل ملحوظ بالكؤوس المصرية. كما تظهر على سطحه عناصر زخرفية بارزة تتوزع بشكل منتظم حول الجسم، ما يعكس عناية واضحة بالتناظر والتنظيم الزخرفي، وقد عُثِرَ على نماذج مشابهة لهذا النوع من

الكـؤوس في مـصر القديمـة، وهـي محفوظـة في عـددٍ مـن المتاحـف، مثـل: المتحـف اليونـاني الرومـاني بالإسـكندرية، ومتحـف كليـة الآداب بجامعـة الإسـكندرية، الأمـر الـذي يؤكـد انتشـار هـذا الطـراز الفنـي في السـياق المـصري.

ومـن الجديـر بالذكـر أيضًـا فـإنَّ تحاليـل كيميائيـة أُجريـت عـلى بعـض القطـع الزجاجيـة المكتشـفة في الفـاو، أظهـرت تطابقًـا في المكونـات الأساسـية بينهـا وبـين المصنوعـات الزجاجيـة المصريـة، مـع وجـود اختلافـات طفيفـة في النسـب المئويـة للعنـاصر المكوِّنـة، ويُعَـدُّ هـذا التشـابه دليـلاً ماديًـا إضافيًـا عـلى قـوة العلاقـات التجاريـة والتبـادل الفنـي بـين مـصر ومدينـة الفـاو في تلـك الفـترة (العتيبـي، 2022م: 129،130).

ثانيًا: فن النحت:

شَـهِدَ فـن النحـت في الجزيـرة العربيـة تطـورًا تدريجيًـا عـبر مراحـل تاريخيـة متعـددة؛ حيـث بـدأت ممارسـاته بأشـكال بسـيطة تمثلـت في إنتـاج تماثيـل صغـيرة مـن الطـين أو الفخـار؛ وذلـك لسـهولة تشـكيل هـذه المـواد وقدرتهـا عـلى تجسـيد العنـاصر الإنسـانية والحيوانيـة، وكانـت هـذه التماثيـل تُـترك لتُجفـف طبيعيًـا أو تُحـرق في أفـران خاصـة؛ بهـدف زيـادة صلابتهـا واسـتقرارها. ومـع تطـور التقنيـات الفنيـة، اتسـعَ نطـاق المـواد المسـتخدمة في النحـت ليشـمل الرخـام والمعـادن المختلفـة، مثـل: الذهـب، والبرونـز، مـما أتـاح مسـتويات أعـلى مـن الدقـة والتفصيـل في التنفيـذ، وقـد اتسـمَ هـذا الفـن في بداياتـه بطابـع محـلي واضـح عكـسَ الخصائـص البيئيـة والثقافيـة لسـكان الجزيـرة العربيـة، قبـل أن يتأثـر تدريجيًـا بالتواصـل مـع الحضـارات المجـاورة، مثـل: الحضـارة المصريـة والهلنسـتية والرومانيـة وغيرهـا، وهـو مـا أسـهم في تنـوع الأسـاليب وثـراء الإنتـاج الفنـي في المنطقـة)المغـربي، 2019م: 136).

إنَّ هـذا التطـور الفنـي الـذي شـهدته الجزيـرة العربيـة شـملَ مدينتـي نجـران والفـاو، حيـث كان لهـما نصيـبٌ بـارزٌ منـه؛ إذ أسـهمتا في تمثيـل هـذا التحـول التدريجـي في الفنـون بمـا يعكـس تفاعلهـما مـع المـوروث المحـلي والانفتـاح عـلى المؤثـرات الحضاريـة الوافـدة؛ نظـرًا لطبيعتهـما المكانيـة عـلى طريـق البخـور.

تميّـزت التماثيـل التـي عُـثِرَ عليهـا في نجـران بتركيزهـا عـلى موضوعـين رئيسـيين، هـما: التماثيـل الآدميـة، والتماثيـل الحيوانيـة، وقـد جـاءت التماثيـل الآدميـة في صورتـين؛ إمـا مجسّـمة بشـكل كامـل أو في هيئـة نصفيـة، كـما شَـمِل الإنتـاج الفنـي تماثيـل حيوانيـة عكسـت بدورهـا تنـوع الموضوعـات في الفـن المحـلي. ومـن حيـث التقنيـة، تنوّعـت أسـاليب الصنـع المسـتخدمة في هـذه التماثيـل؛ إذ نُفِـذَ بعضهـا بالنحـت المبـاشر عـلى الحجـر، بينـما صُنِـع بعضهـا الآخـر مـن الطـين أو المعـادن، كـما اسـتُخدمت تقنيـات فنيـة مختلفـة في التشـكيل، مثـل: القوالـب، وأسـلوب الشرائـح، إضافـةً إلى نحـت الكتـل المعدنيـة، وهـو مـا يـدلُّ عـلى تطـور تدريجـي في المهـارات التقنيـة وتعـدد وسـائل الإنتـاج الفنـي في المنطقـة (كنـكار، 2012م: 144).ومـن أبـرز أعـمال النحـت المكتشـفة في نجـران تمثـال صغـير لجمـل، يبلـغ طولـه نحـو 9 سـم، وعرضـه 2 سـم، وارتفاعـه قرابـة 11 سـم، وقـد صُنـع مـن مـادة البرونـز. ويُلاحـظ أن التمثـال يشـمل بعـض العيـوب الفنيـة الناتجـة عـن عمليـة الصـب، مثـل: الانبعاجـات، ووجـود ثقـوب طفيفـة، إلا أن

هـذه العيـوب لم تُقلـل مـن القيمـة الفنيـة للعمـل؛ فقـد أظهـر النّحـات عنايـةً واضحـةً بتفاصيـل الـرأس؛ حيـث نجـح في إبـراز العينـين وتجويـف الفـم والأنـف بدقـة نسـبية، كـما سـعى إلى تمثيـل الخطـام عـلى الفـم والـرأس، وإن جـاءت خطوطـه ضعيفـة وغـير مكتملـة. ومـع ذلـك، بـرزت بقيـة العنـاصر التشريحيـة بوضـوح؛ إذ ظهـرت الأذنـان أعـلى الـرأس بشـكل متناسـب، وجـاءت الرقبـة متناسـقةً مـع حجـم الجسـم، بينـما ظهـر السـنام بارتفـاع متـوازن يعكـس النسـب العامـة للتمثـال. أمـا الأطـراف السـفلية، فقـد نُفِّـذت بأسـلوب يوحـي بالرشـاقة، رغـم صغـر حجـم التمثـال، حيـث صُـوِّرت السـاق الأماميـة اليـسرى متقدمـةً عـلى اليمنـى في إشـارة إلى الحركـة، في حـين بقيـت السـاقان الخلفيتـان في وضـع ثابـت، وانتهـت جميـع الأطـراف بخـف دائـري الشـكل، مـما أسـهمَ في تحقيـق تـوازن بـصري وتناغـم في التكويـن العـام للتمثـال (صـورة10) (كنـكار،2012م: 80،81).

ويتّضـح مـن هـذا التمثـال أن موضوعـه الرئيـس يتمثـل في الجمـل، وهـو أحـد أبـرز الرمـوز المرتبطـة بالبيئـة العربيـة الصحراويـة؛ لمـا لـه مـن أهميـةٍ بالغـةٍ في الحيـاة الاقتصاديـة القديمـة لاسـيما في نشـاط تجـارة القوافـل، ويعكـس التمثـال مزيجًـا فنيًـا يجمـع بـين الطابـع المحـلي في اختيـار الموضـوع، وبـين تأثـيرات فنيـة خارجيـة يُرجـح أنهـا هلنسـتية، ظهـرت في معالجـة حركـة الجسـد والدقـة النسـبية في إبـراز تفاصيـل الوجـه، إضافـةً إلى الاهتـمام بالتناسـب بـين أجـزاء الجسـم المختلفـة، كـما يُلاحـظ أن الفنـان قـد سـعى إلى إضفـاء طابـع حـركي عـلى التمثـال، مـن خـلال وضعيـة السـاقين وتـوازن الكتلـة العامـة، وبذلـك يُجسّـد هـذا العمـل مسـتوى متقدمًـا مـن مهـارة الصُنّـاع في نجـران في مجـال النحـت المعـدني، ويعكـس قدرتهـم عـلى الدمـج بـين العنـاصر البيئيـة المحليـة والتأثـيرات الفنيـة الوافـدة، بمـا أسـهم في إنتـاج أعـمال ذات طابـع فنـي متنـوع ومركّـب.

كـما عُـثِرَ في نجـران عـلى عـددٍ مـن التماثيـل المصنوعـة مـن الصلصـال، وقـد تبـيّن أنهـا تمثـل موضوعـات نسـائية، وقـد اكتُشـفت هـذه التماثيـل في المنطقـة المركزيـة المحاطـة بالأسـوار، وهـو مـا يشـير إلى احتـمال ارتباطهـا بسـياقات ذات طابـع دينـي أو رمـزي داخـل المدينـة. ويرجّـح بعـض الباحثـين أن جـزءًا مـن هـذه التماثيـل قـد يمثـل الإلهـة أفروديتـي(3)، إلهـة الجـمال في المـوروث الإغريقـي، وقـد لُوحـظ أن أطرافهـا قـد انكـسرت. والجديـر بالذكـر فـإن الفنـان اسـتطاع أن يصـور تلـك التماثيـل بدقـة، ويتضـح ذلـك مـن خـلال التفاصيـل التشريحيـة للجسـم وحركتـه، وأن هـذه التفاصيـل الدقيقـة جعلـت الباحثـين في حـيرة؛ هـل هـي في الأصـل تماثيـل يونانيـة، أم أن الفنـان امتلـك مـن المهـارة مـا مكنـه أن ينحتهـا بهـذا الأسـلوب؟ (عبدالعزيـز، 2002م:151،152).

ويُلاحـظ أن هـذا التمثـال قـد صيـغَ عـلى هيئـة معبـودة الجـمال بطابـع هلنسـتي واضـح، وفي هـذا الإطـار، تـرى الباحثـة: أن طريـق البخـور يـؤدي دورًا محوريًـا في كلا الاحتمالـين؛ فـإذا كان التمثـال مـن إنتـاج محـلي، فـإنَّ ذلـك يعكـس انتقـال الأفـكار والأنمـاط الفنيـة الهلنسـتية إلى نجـران عـبر هـذا الطريـق التجـاري. أمـا إذا كان مسـتوردًا، فـإنَّ ذلـك يؤكـد بـدوره عمـق الروابـط التجاريـة التـي ربطـت نجـران بالعـالم الهلنسـتي، ومـا نتـجَ عنهـا مـن تبـادل للسـلع والمنتجـات الفنيـة عـبر شـبكة التجـارة القديمـة.

يُعَدُّ موقع الفاو من أبرز المواقع الأثرية التي كشفت عن مجموعةٍ مهمةٍ من الشواهد الفنية، لاسيما الأعمال النحتية المنفذة من المعادن والأحجار والطين، حيث تمثل هذه المكتشفات مصدرًا علميًا ثريًا للباحثين؛ إذ تقدّم دلائل واضحة على الجوانب الثقافية والفنية السائدة في تلك الحقبة، مما يجعلها مرجعًا أساسيًا في دراسة تاريخ الفن في الجزيرة العربية، وبوجه خاص في المملكة العربية السعودية، كما تبرز أهمية الفاو؛ في كونها مركزًا فنيًا تفاعليًا تأثر بالحضارات المجاورة وأثر فيها في الوقت نفسه، وهو ما يتجلّى في تنوع الأعمال الفنية الباقية وما تحمله من سماتٍ محليةٍ وعناصر مستوحاة من مؤثرات حضارية خارجية. (السنان، 2009م:22).

ومن الأمثلة على ذلك ما عُثِرَ عليه من تماثيل طينية اكتُشفت في منطقة السوق، ويُرجَّح أنها كانت تُستخدَم كدمى أو ألعاب للأطفال. ومن أبرز هذه النماذج تمثال يصوّر امرأةً بأسلوب ساخر؛ حيث نُفذت ملامح الوجه بطريقة غير متقنة توحي بالتشويه المتعمد، كما يتضمن التمثال إبرازًا لعضو الذكورة، وقد كُتِبَ اسم الشخصية بخط المسند على كلٍّ من الوجه والظهر، وهو ما يُضيف بُعدًا كتابيًا إلى هذا العمل الطيني، ويعكس في الوقت نفسه توظيف الكتابة إلى جانب التمثيل التشكيلي في بعض الممارسات الفنية في ذلك السياق. (الأنصاري، 1982: 22).

هذا إلى جانب التماثيل النسائية التي تجسّد مفاهيم الخصوبة والأمومة التي عُثِر عليها في العديد من المراكز العمرانية ذات الصلات المباشرة بالحضارات المجاورة، ومنها: الفاو، إذ يبدو على هذه التماثيل قوام ممتلئ غير متناسق الأبعاد، حيث تظهر في صورة عارية، مع إبراز وتضخين متعمد من الفنان في الأعضاء الأنثوية التي تميز هيئتها عن غيرها من باقي التماثيل الأنثوية التقليدية، وهي تتماثل في ذلك مع ما ظهر في مصر وبلاد الرافدين وسوريا القديمة. (167-Elsayyad,2024:166) كما عُثِر في الفاو على تماثيل تظهر عليها تأثيرات خارجية، حيث تم اكتشاف تمثال للإلهة تيخي(4) اليونانية، إلهة الحظ، إضافةً إلى الإلهة نايكي(5) إلهة النصر. ومن الواضح أن هذه المعثورات تعكس التأثيرات اليونانية على المنحوتات في الفاو، حيث ينقسم هذا التمثال إلى جزأين: "الأول" يصور إلهة النصر نايكي وهي ترفع يديها حاملةً دائرةً للأبراج الفلكية، وتظهر الإلهة بملابس مزينة بالورود عند الأكتاف، مع بعض الثنيات على الرداء التي تشير إلى الحركة. أما "الجزء الثاني" فيصور دائرةً تحتوي على نحت يمثل الأبراج الفلكية، ويتوسطها الإلهة تيخي، إلهة الحظ اليونانية (صورة11) (قادوس، 2020م، 285).

كما تميزت مدينة الفاو بفن النحت على المعادن؛ إذ أسفرت التنقيبات الأثرية عن مجموعةٍ من التماثيل البرونزية التي تُعَدُّ من أهم شواهد التراث الفني في الجزيرة العربية، وقد وُصفت غالبية هذه التماثيل بأنها تحمل طابعًا هلنستيًا، سواءً أكانت منتجة محليًا أو مستوردة عبر شبكات التبادل التجاري والثقافي، لذا يمكن -إلى حد ما- التمييز بين الأعمال المحلية وتلك المستوردة، رغم اشتراكها في بعض المعتقدات والمرجعيات الميثولوجية؛ إذ تتسم التماثيل المحلية غالبًا ببعض الملامح الأسلوبية التي قد تفتقر إلى الدقة الكاملة في التنفيذ، في حين تعكس في الوقت نفسه اجتهادًا فنيًا واضحًا ومحاولةً لتوظيف المؤثرات الوافدة ضمن سياق محلي. (السنان، 2019م:

10،9). أما التأثيرات الفنية الخارجية، فتتجلى بوضوحٍ في عددٍ من الخصائص الأسلوبية المختلفة؛ ففي الفن المصري القديم، تميّزت التماثيل بأسلوب وقوف نمطي يقوم على تقديم القدم اليسرى إلى الأمام، مع استقامة الذراعين بمحاذاة الجسم، إلى جانبِ إبراز عضلات الصدر والبطن بما يعكس الطابع الرسمي والرمزي لهذا الفن. أما في الفنون الهلنستية والرومانية، فقد برزت سمات أخرى أكثر واقعيةً تمثلت في تماثيل اتسمت أحياناً بالعُري، مع اهتمام واضح بالدقة التشريحية وتناسق نسب الجسم، كما اتسمت ملامح الوجه بطابع هادئ يعكس النزعة المثالية في التعبير، إضافةً إلى توظيف عناصر رمزية وزخرفية، مثل: عناقيد العنب، وقرن الخيرات، وإكليل الغار الروماني؛ بوصفها رموزًا ذات دلالات دينية وثقافية وجمالية. (قادوس، 2020: 288)، وأما الحضارة الإغريقية، فقد تميزت تماثيلها بالحركة (سارة، 2021،534).

ومن أبرز التماثيل البرونزية المكتشفة في الفاو تمثال الطفل المجنّح العاري (صورة 12) الذي يُرجح تأريخه إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي، حيث يبلغ ارتفاعه نحو 12.4 سم، وعرضه 6.1 سم، ويُظهر طفلاً عاريًا ذا جناحين صغيرين، يرتدي التاج المصري المزدوج، ويحمل في يده اليسرى قرن الخيرات الذي يتدلى منه عنقود من العنب. أما اليد اليمنى، فتبدو مقبوضةً مع بسط إصبع الإبهام باتجاه الفم في إشارة رمزية مميزة، في حين يتدلى شعره على جانبي الرأس، وينسدل جزء منه على الصدر بشكل زخرفي، ويعكس هذا التمثال تداخلاً واضحًا في المؤثرات الحضارية؛ إذ تتجلى فيه سمات متعددة المصادر؛ فهو يرتبط في رمزيته بالطفل المصري الإلهي (حورس) المعروف في التقاليد اليونانية باسم هاربوكراتيس (حربوقراط)، ويظهر ذلك في حركة الإصبع المميزة والتاج المصري الذي يُعَدُّ من أبرز الرموز الفرعونية. وفي المقابل، تبرز التأثيرات الكلاسيكية الهلنستية والرومانية في معالجة الجسد، من حيث العُري، وليونة التشكيل، والانسيابية في الانحناءات، إضافةً إلى الجناحين اللذين يقربان هيئته من تصوير الإله إيروس(6) في الفن اليوناني، أو كيوبيد في الفن الروماني. كما يظهر التمثال في وضعية اتزان تقوم على الارتكاز على القدم اليسرى مع ثني اليمنى في حالة راحة، بينما يمسك بقرن الخيرات وعنقود العنب، في دلالة رمزية تجمع بين الوفرة والخصب والتأثيرات الدينية المتداخلة. (المغربي،2019م: 148) (قادوس: 2020م:149). كما يُعَدُّ «قرن الخيرات» أحد الرموز البارزة في الميثولوجيا الإغريقية؛ إذ ارتبطَ بعددٍ من المعبودات؛ بوصفه رمزًا للوفرة والعطاء والخصب. (عمار،2015م:51) لذلك يُعَدُّ هذا التمثال من الشواهد الأثرية الدالة على عمق العلاقات التجارية التي ربطت مدينة الفاو بالحضارة المصرية، كما يعكس في الوقت نفسه مدى التأثير الفني المصري في تشكيل ملامح فن النحت في الفاو، وما شهدهُ من تفاعل وتبادل ثقافي بين الحضارات المختلفة.

ويتّضح مما سبق أن كلاً من مدينتي نجران والفاو شهدتا تفاعلاً فنيًا وثقافيًا ثريًا نتجَ عن موقعهما الاستراتيجي؛ بوصفهما محطتين مهمتين على طرق التجارة القديمة؛ فقد أسهم هذا الموقع في استقبالهما للتجار والوفود القادمة من مختلف الحضارات، مما أتاحَ انتقال المؤثرات الفنية والأفكار الثقافية إليهما، إلى جانبِ الحفاظِ على خصوصيتهما المحلية، ونتيجةً لذلك؛ تميزَ الأسلوب

الفني في كلتا المدينتين بمزيجٍ واضحٍ من العناصر المحلية والتأثيرات الأجنبية، الأمر الذي انعكس في تنوع الإنتاج الفني وثرائه، وجعلهما نموذجين بارزين للتفاعل الحضاري في الجزيرة العربية خلال تلك الفترات التاريخية.

النتائج:

بات واضحاً أن مدينتي نجران والفاو مثلتا مراكز فنية وحضارية بارزة في الجزيرة العربية القديمة؛ حيث أسهمت أعمال النقش والرسم والنحت في إبراز البعد الثقافي والديني لسكانهما، وقد عكستْ هذه الفنون قدرة الإنسان المحلي على التعبير عن معتقداته وأفكاره بأساليب تشكيلية متنوعة، اتسمتْ بالتطور التدريجي من البساطة إلى التعقيد، بما يدل على حيوية النشاط الفني في المدينتين.

تبين أن الموقع الجغرافي لنجران والفاو على طرق التجارة القديمة، وخاصةً طريق البخور الشرقي، كان عاملاً محورياً في تشكيل الهوية الفنية لهما؛ فقد أدّى هذا الموقع إلى تحويلهما إلى محطات استقطاب للتجار والوفود، مما أسهمَ في حدوث تفاعل حضاري واسع، انعكس في امتزاج العناصر الفنية المحلية بالمؤثرات الأجنبية القادمة من الحضارات المصرية والهلنستية والرومانية وغيرها.

بيّنت الشواهد الأثرية في نجران والفاو وجود تنوع واضح في الأساليب الفنية والتقنيات المستخدمة، سواءً في الفنون الصخرية أو النحت أو الزخرفة أو التصوير الجداري، كما أظهرت هذه الأعمال تباينًا في مستويات الإتقان بين البساطة المحلية والمهارة المتقدمة المتأثرة بالمدارس الفنية الخارجية، وهو ما يعكس تطورًا تدريجيًا في الوعي الفني والقدرات التقنية.

أوضحت الدراسة أن الفنون في نجران والفاو لم تكنْ معزولةً عن محيطها الحضاري، بل كانت تمثل جزءًا من شبكة تفاعل ثقافي واسعة، وقد ظهرَ ذلك في توظيف رموز ودلالات مستوردة، مثل: العنب، وقرن الخيرات، والأيقونات المصرية واليونانية، إلى جانبِ استمرار الرموز المحلية، مثل: الجمل، مما يعكس حالةً من التعايش بين المحلي والوافد.

خلُصَ البحث إلى أن الفنون في نجران والفاو تمثل نموذجًا واضحًا للتبادل الثقافي في الجزيرة العربية القديمة؛ حيث أسهمت الحركة التجارية في نقل الأفكار والأساليب الفنية، وربما أيضًا انتقال فنانين ومهاراتهم، وقد نتج عن ذلك إنتاج فني غني ومتنوع يجمع بين الأصالة المحلية والتأثيرات الحضارية الخارجية، مما يجعل المدينتين من أهم الشواهد على التفاعل الحضاري في تلك الحقبة.

الصور:

خريطة (1): طريق البخور الذي يمرُّ بمدينتي نجران والفاو (القحطاني، 2024م: ص14).

صورة (1): مشاهد الرقص من نجران (الفواز، 2014م: 42).

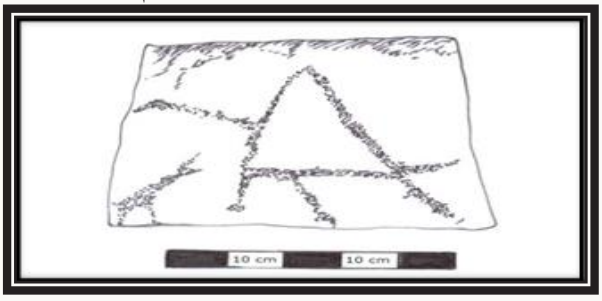

صورة (2): نقش صخري لأحد الجمال عُثِر عليه في أحد مباني قلعة نجران (الفواز، 2014م: 92).

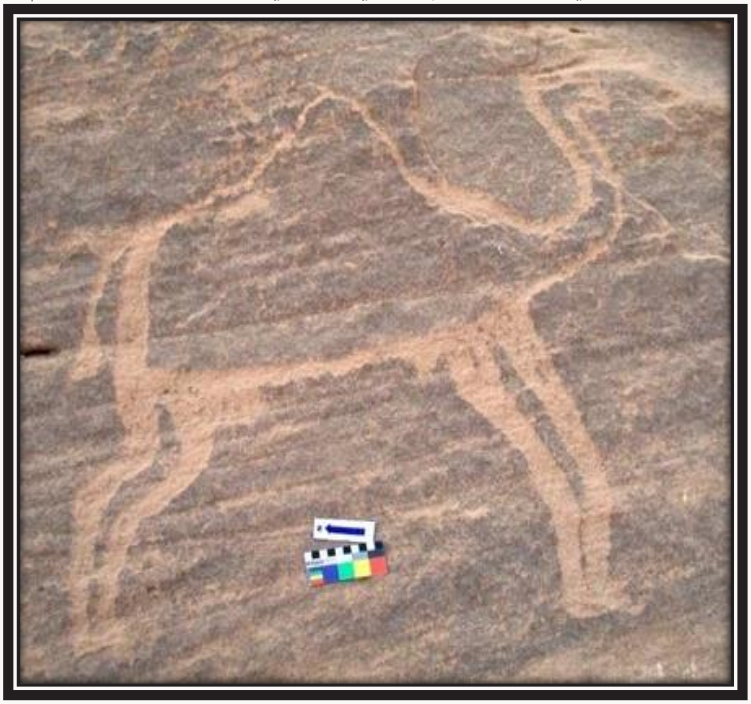

صورة (3) نقش صخري لجمل عُثِر عليه في جبل الكوكب (الجبرين، 2012م: 176).

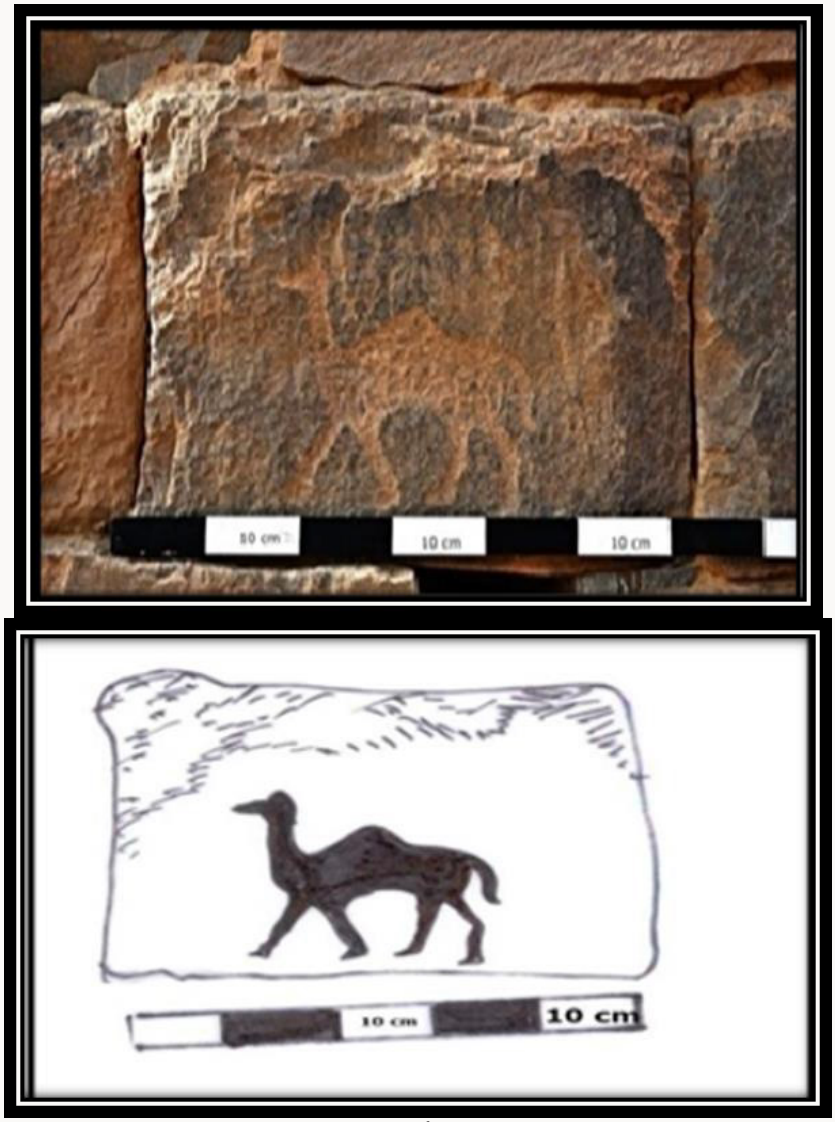

صورة (4): نقش صخري لأحد الجمال في أحد مباني قلعة نجران (الفواز،2014م، 49).

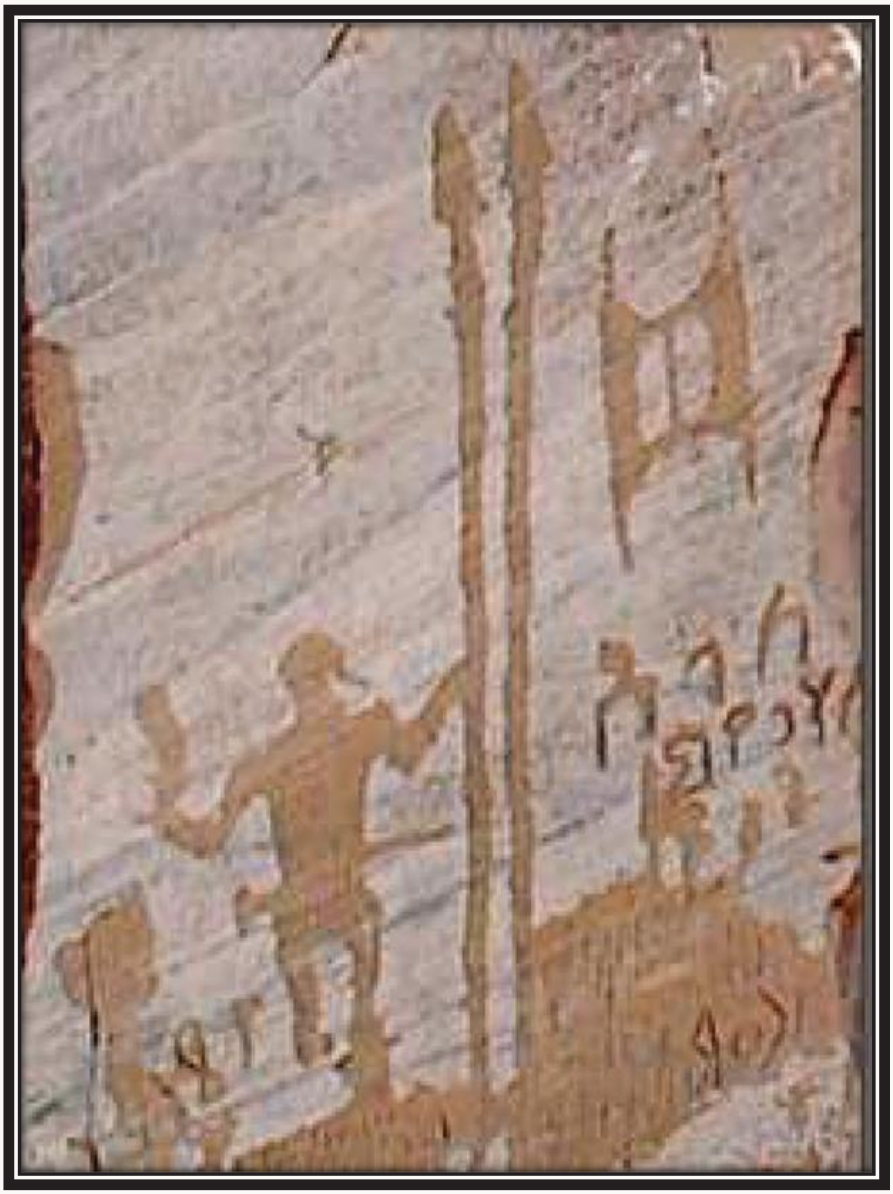

صورة (5) نقش على واجهات الصخور في الفاو (عبدالرحمن، 1442هـ: 283).

صورة (6) مشهد صيد الجمال رسمت في أحد دكامين الفاو (عبدالرحمن، 1442هـ:284).

صورة (7) جزء من رسمة الفريسكو التي عُثِر عليها في قصر الفاو تتضح التأثيرات اليونانية. (عبدالرحمن، 1442هـ:285).

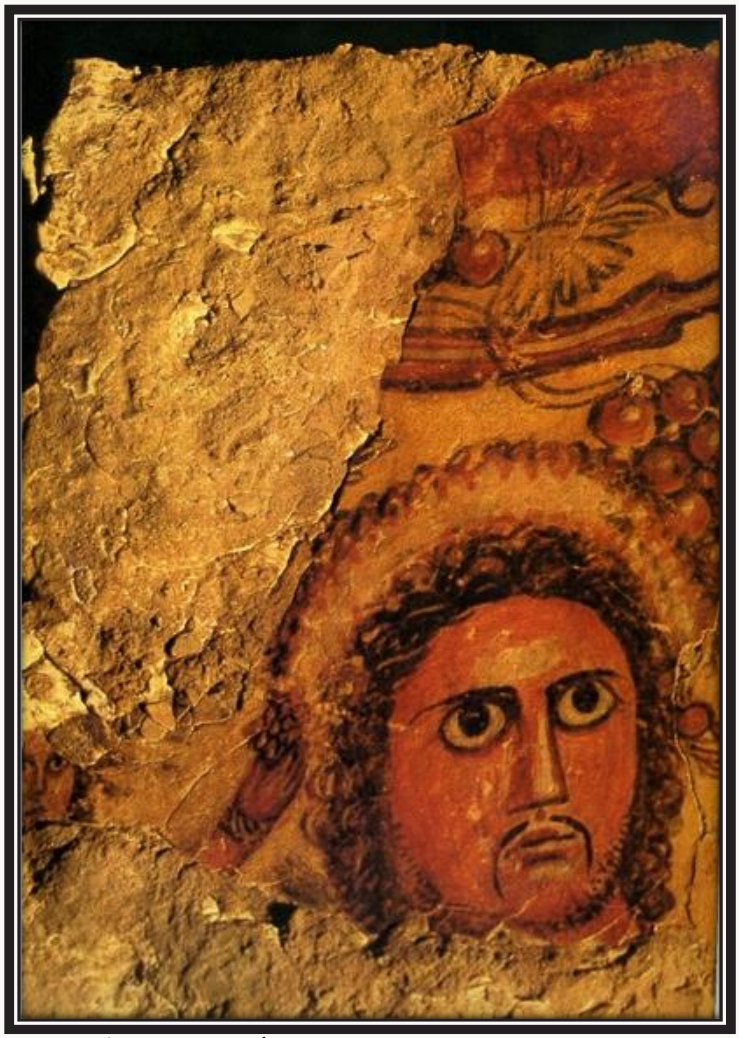

صورة (8) جزء من الرسمة التي عُثِر عليها في قصر الفاو تتضح التأثيرات اليونانية. (الأنصاري،1982م:66).

صورة (9) كأس زجاجي عُثِر عليه في الفاو (AlThibi,2022:100).

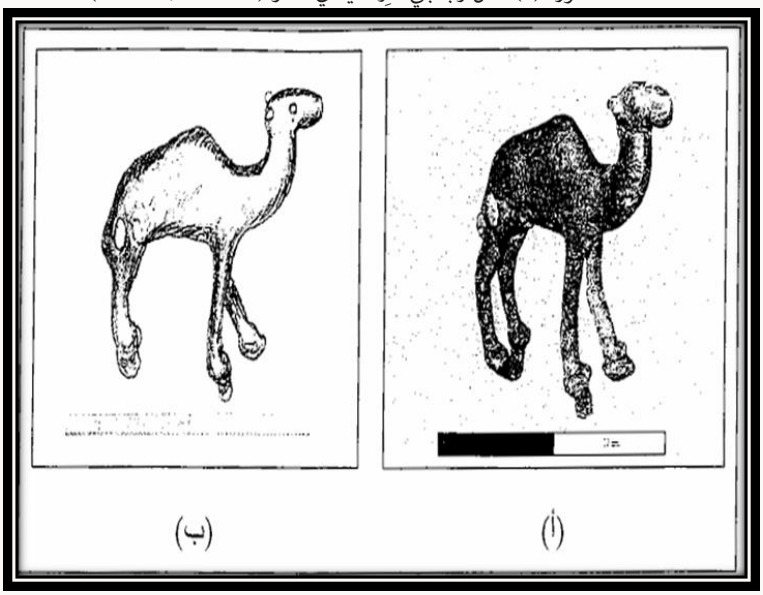

صورة (10) تمثال لجمل من البرونز عُثِر عليه في نجران (كنكار، 2012م، 80).

صورة (11) تمثال من الفاو يظهر فيه كلاً من المعبودة تيخي والمعبودة نايكي (قادوس،2020م، 297).

صورة (12) تمثال الطفل المجنح من البرونز عُثِر عليه في الفاو (قادوس، 2020م:297).

الهوامش:

(1) كلمة الفريسكو أو الأفرسك: هي كلمة من اللغة الإيطالية، وتدل على الرسوم الجصية الرطبة، ويتم الرسم بهذه الطريقة قبل جفاف الطبقة العليا من الملاط، فتتسرب الألوان داخل هذه الطبقة، ويتم تنفيذ الرسوم بطبقة سميكة من عجينة الألوان المخلوطة بمونة الجير، بحيث يصل سمكها إلى 3 سنتمترات تُبنى بها اللوحة قطعة بعد قطعة، وإذا تم النظر للقاطع لهذه الطبقة يكتشف أن الجص (المونة) ليس سطحيًا. (الحديثي، 1442هـ: 40،41).

(2) ديونيسوس: يُعَدُّ إله من بين آلهة أولمبيوس الاثني عشر، وهو ابن الإله زيوس، وهو إله الخمر، وانتشرت عبادته في كل أنحاء الإغريق، واشتهر عند الرومان باسم باخوس، وأيضًا انتقلت عبادته إلى مصر، حيث كان له عيد خاص يحتفلون به. (محمود، 2022م، 580،581).

(3) أفروديت تعتبر إلهة الجمال عند اليونانيون، ويقابلها فينوس عند الرومان، وهي من المعبودات المحبوبة في الحضارات القديمة، وتُعَدُّ المرآة أحد رموزها (منهل، 2024م: 37).

(4) تيخي: معبودة الحظ عند الإغريق، وتماثلها المعبودة فورتونا عند الرومان، واحتلت مكانةً كبيرةً خلال العصر الهلينستي، وقد ظهرت تيخي في الجزيرة العربية ومنها المملكة النبطية، وقد تم تصويرها وهي ترتدي فوق رأسها تاجًا يتخذ شكل أسوار المدينة (منهل، 2024م: 39).

(5) نايكي: هي إلهة النصر عند الإغريق، وهي ابنه زيوس، وتمثل نايكي الانتصار وقوة الإرادة والتغلب على الصعاب، وتصور نايكي في الغالب وهي تحلق في الهواء ممددة جناحيها، وتحمل إكليلاً من الزهور أو جريرة زيتون، وتقابلها فيكتوريا في العبادة الرومانية (منهل، 2024م: 36).

(6) إيروس: الذي يماثل كيوبيد الروماني، وتعددت الآراء حول نشأة إيروس، إلا أن الأسطورة التي تُعَدُّ أكثر انتشارًا هي التي تذكر أنه ابن أفروديت؛ لظهوره المتكرر معها في العديد من الأعمال الفنية، وأيضًا ارتباط إيروس برموز أفروديت كالإوزة والمرآة وصندوق المجوهرات وغيرها. والجدير بالذكر فقد انتشرت عبادة إيروس في الجزيرة العربية (منهل، 2024م:38).

المراجع العربية:

(1) أحمد، بشرى جعفر، "طريق البخور وأهميته في تجارة بلاد اليمن حتى القرن الرابع ميلادي"، مجلة الجامعة المستنصرية للعلوم الإنسانية كلية التربية، مج 1، 2023م، ص ص.618-630.

(2) الفواز، رشا إبراهيم، الزخارف المعمارية في موقع الأخدود، أطروحة ماجستير، قسم الآثار، جامعة الملك سعود، 2014م.

(3) آل هتيلة، محمد، نجران والنصرانية الأولى، ط1، لبنان: الدار العربية للعلوم، 2015م.

(4) ألويس، كامل طه، "الرقص في العراق القديم"، مجلة التربية الرياضية، مج 10، ع1، 2010م، ص ص33-46.

(5) الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية، ط1، الرياض: جامعة الرياض، 1982م.

(6) الأنصاري، عبدالرحمن وآل مريح، صالح، نجران منطلق القوافل، ط1، الرياض: دار القوافل للنشر والتوزيع، 1424هـ.

(7) بسيوني، أحلام رجب، "مراكز العمران على طريق البخور من جنوب الجزيرة العربية حتى ميناء غزة " دراسة في الجغرافية التاريخية"، المجلة العلمية بكلية الآداب جامعة طنطا، ع 55، 2024م، ص ص.2007-2107.

(8) بن جريس، غيثان بن علي، نجران دراسة تاريخية حضارية (ق-1ق4هـ/ ق-7ق10م) الجزء الأول، ط1، الرياض: مطابع الحميضي،2013م.

(9) التميمي، عبدالله كرامة، "كندة الأصل والمستقر معطيات من النقوش والآثار"، مجلة العلوم الإنسانية جامعة البحرين، ع20، 2011م، ص ص.44-92.

(10) الجبرين، فيصل حمد، الرسوم الصخرية في جبل الكوكب بمنطقة نجران دراسة تحليلية مقارنة، أطروحة ماجستير، كلية السياحة والآثار جامعة الملك سعود، 2012م.

(11) جمعة، سمر محمود أحمد محمد، "دراسة أثرية للعمارة التقليدية بالجزيرة العربية (عمارة منطقة سدوس - منطقة عسير - مدينة الأخدود) والاستفادة منها في تصميم العمارة المحلية"، مجلة التراث والتصميم، مج 1، ع2، 2021م، ص ص.70-85.

(12) الحديثي، فوزية عبدالله، الرسوم الجدارية في قرية الفاو دراسة فنية تحليلية، ط1، الرياض: وزارة الثقافة هيئة التراث، 1442هـ.

(13) الحسيني، خالد موسى والقابجي، الهام حمد عيسى، "المحطات والطرق التجارية قبل الإسلام"، مجلة كلية الآداب جامعة الكوفة، ع37، 2018م، ص ص395-416.

(14) سارة، خليل، الإغريق (تاريخهم ونظمهم وحضارتهم)، ط1، سوريا: وزارة الثقافة، 2021م.

(15) السنان، مها عبدالله، الفنون المعدنية من قرية الفاو (دراسة فنية مقارنة)، أطروحة دكتوراة، كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود، 2009م.

(16) السنان، مها عبدالله، "الصلات الفنية بين الجزيرة العربية ومصر"، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، مج 20، ع1، 2019م، ص ص331-357.

(17) سيرنج، فيليب، الرموز في الفن والأدب والحياة، ترجمة: عبدالهادي عباس، ط1، سوريا: دار دمشق، 1992م.

(18) شعيب، مروان غازي صالح، دولة كندة: نشأتها وتطورها وعلاقاتها داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها في عصر ما قبل الإسلام -دراسة تاريخية وحضارية-، أطروحة ماجستير، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، 2005م.

(19) عبدالرحمن، علي عبدالرحمن، المدخل إلى فنون الشرق الأدنى القديم مصر-العراق- الجزيرة العربية، ط1، الرياض: وزارة الثقافة هيئة التراث، 1442هـ.

(20) عبدالعزيز، إيمان، "التأثيرات الفنية اليونانية في شبه الجزيرة العربية في العصر المتأغرق"، مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية، ع50، 2002م، ص ص127-175.

(21) العتيبي، بدرية محمد حمدان، "العلاقة بين الوظيفة والشكل في الزجاج القديم في قرية الفاو"، مجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية، مج2، ع2، 2022م، ص ص122-138.

(22) عمار، حسني عبد الحليم، "أضواء جديدة على التواصل الحضاري بين مصر والجزيرة العربية مؤشرات المعتقد الأوزيري في الجزيرة العربية خلال الألف الأول قبل الميلاد"، دراسات في علم الآثار والتراث، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، ع6، 2015م.

(23) العمري، هادي صالح ناصر، "طريق البخور القديم من نجران إلى البتراء وآثار اليمن الاقتصادية عليه"، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2003م.

(24) الغزالي، علي كسار غدير، "الجذور التاريخية لظاهرة الرقيق عند الشعوب القديمة وعرب الجزيرة العربية قبل الإسلام (دراسة مقارنة)"، مجلة دراسات تاريخية، ع15، 2013م، ص ص75-124.

(25) قادوس، عزت زكي حامد، "التأثيرات الأجنبية على فنون الجزيرة العربية"، حولية العام الاتحاد للآثاريين العرب، مج 23، ع1، 2020م، ص ص269-299.

(26) القحطاني، رزنه مفلح سعد، "الصناعات في ثاج في الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي دراسة تاريخية حضارية في ضوء المكتشفات الأثرية"، مجلة وقائع تاريخية، ع 41، 2024م، ص ص11-105.

(27) القحطاني، نوره سعيد، "دراسة وصفية تحليلية مقارنة للفنون الصخرية بالرفعة بمنطقة عسير"، مجلة أدماتو، ع44، 2021م، ص ص43-60.

(28) كنكار، مشاعل يعقوب، تماثيل موقع الأخدود في نجران دراسة فنية مقارنة، أطروحة ماجستير، قسم الآثار، جامعة الملك سعود، 2012م.

(29) محمود، يحيى الشحات محمد، "ديونيسوس كإله للعالم الآخر: دراسة مقارنة مع أوزير"، مجلة مركز الدراسات البردية جامعة عين شمس، مج39، 2022م، ص ص579-608.

(30) المغربي، رهام حافظ، التأثيرات الفنية الهللينستية والرومانية على فن الجزيرة العربية (دراسة وصفية تحليلية مقارنة)، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنيا، 2019م.

(31) منهل، يحيى عوض، "المعبودات اليونانية وانتشارها في شبه الجزيرة العربية إبان العصر الهلينستي"، مجلة وقائع تاريخية، ع42، 2025م، ص ص11-65.

(32) النعيم، نوره عبدالله العلي، الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي، ط1، السعودية: دار الشواف للنشر والتوزيع، 1992م.

المراجع الأجنبية:

(1) Ali, Rawah A., "Kingdom of Kindah and its Foreign Relations Before Islam", International Journal of Research in Social Sciences and Humanities, Vol.11, No.1,2021, pp,314-.

(2) Al-saud, Abdullah S., Central Arabia during the early Hellenistic period, with particular reference to the site of al -'Ayun in the area of al -Aflaj in Saudi Arabia, phd Thesis, University of Edinburgh, 1991.

(3) AlThibi, Mohammad A., "Glass cup from Qaryat Al-Faw site (4th century BC–3rd century AD) Saudi Arabia: An analytical and typological study", Mediterranean Archaeology and Archaeometry, Vol. 22, No 2, 2022, pp.97108-.
(4) Breton, Jeam-F., "Qaryat Al-Fâw Une Ancienne Oasis En Arabie Centrale", ARCHEOLOGIA, n° 643, 2025, pp. 52- 57.
(5) Deblauwe, F, "Old South Arabian Trade Routes", Orientalia Lovaniensia Periodica 22, 1991, pp. 133- 158.
(6) Elsayyad. Emad A., "Symbolic and Cultural Indications of Motherhood Figurines in Ancient Arabia", Darah Journal of Arabian Peninsula Studies 2no: (2), 2024, pp.157- 189.
(7) Lara, Juan d., "Qaryat al-Fāw/Qaryatum dhātKāhilim: On the identity of the god Kahl", Arabian Archaeology and Epigraphy, Vol.35, No.1,2024, pp.136154-.